

مؤسسها وناشرها  
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير  
نوري الجراح

مستشارو التحرير

أزراح عمر، أحمد برقواوي  
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،  
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي  
ابراهيم الجبين، رشيد الخيون  
تحسين الخطيب، مفيد نجم

التصميم والإخراج والتنفيذ  
ناصر بخيت

رسامو العدد:

شذى وجوخ، علاء شرابي، محمد خياطة  
عمر ابراهيم، هيلدا جباري، أسامة النصار  
داؤد حسن داؤد، محمد ظاظا، ضياء العزاوي  
شبنام حسين، فيصل لعبيبي، عمر ابراهيم  
جمال الجراح، حاتم كوكو، جوني سمان

التدقيق اللغوي:

عمارة محمد الرجيلي

الموقع على الإنترنت:

www.aljadeedmagazine.com

الكتابات التي ترسل إلى «الجديد» تكتب خصيصاً لها  
لا تدخل المجلة في مراسلات حول ما تعتذر عن نشره.

تصدر عن

Al Arab Publishing Centre

المكتب الرئيسي (لندن) UK

1st Floor

The Quadrant

Hammersmith Road 179-177

London

W6 8BS

Dalia Dergham

Al-Arab Media Group

للاعلان

Advertising Department

Tel: +44 20 8742 9262

ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير

editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي

للافراد: 60 دولاراً، للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها  
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005

## هذا العدد

يضم هذا العدد من «الجديد» مقالات في الأيديولوجيا والدين والعنف والثقافة والمجتمع في ظل انفجارات سياسية ومجتمعية عاصفة ومتفجرة. وفي العدد إلى جانب النصوص الأدبية والشعرية والمقالات وعروض الكتب، هناك حوار موسع مع المفكر الفلسطيني السوري سلامة كيلا يندرج في سلسلة الحوارات التي تجريها «الجديد» مع المفكرين العرب حول الأيديولوجيا والدين والسياسة والتحويلات الاجتماعية. والحوار يلقي ضوءاً واسعاً على محطات من تجربة المفكر ورؤيته لواقع العرب اليوم ومآلات ما اصطلح على تسميته بـ«الربيع العربي» وقد صار شتاء دامياً، في ظل حاضر عالمي مختل الموازين، وذلك من منظور الباحث في الفكر والاقتصاد السياسي.

ملف العدد احتوى على 20 قصة قصيرة من العراق هي بمثابة أضمومة أولى من عشرين زهرة من أزهار المخيلة العراقية الحديثة، لعشرين كاتبة وكاتباً يشكلون بأعمالهم جزءاً أساسياً من التجارب التي تحتل اليوم المشهد القصصي العراقي وتلقى، في الوقت نفسه، قبولا على رقعة أوسع تشمل جغرافية الأدب القصصي العربي. نعتقد أن هذه القصص تشكل مجتمعة تجارب مشوقة في السرد، وهي يمكن أن تعكس، بالضرورة، جانباً من المستوى الذي بلغته القصة العراقية الحديثة.

سبق لـ«الجديد» أن نشرت ملفات قصصية من غير بلد عربي، كما أنها كرست عدداً ممتازاً ضم قصصاً قصيرة لـ 99 كاتبة وكاتباً عربياً. وتعد المجلة، حالياً، ملفاً واسعاً ومختاراً للقصة المغاربية.

في العدد أيضاً ملف آخر يضم ثلاث مقالات عربية تقرأ وتستعيد تجربة إدوارد سعيد (1935-2003) في ضوء أعماله وسجلاته الفكرية، بمناسبة مرور 14 عاماً على رحيله الذي حل ذكره في هذا الشهر. المقالة الأولى لخلدون الشمعة «إدوارد سعيد وثنائية الأنا والآخر». وهي دراسة متعمقة للكيفية التي تحولت معها القراءة الاستعمارية للآخر إلى ثنائية إثنية تعكس الاستعلائية الغربية نحو المختلف وفكرة القوة والإخضاع. المقالة الثانية لسعد القصاب «استعادة صورة ملتبسة بين مفكرين» تسترجع وتستجلي السجل الذي دار بين المفكرين صادق جلال العظم وإدوارد سعيد حول نظرية الأخير، انطلاقاً من النقد الذي قدمه العظم لأفكار سعيد في كتابه «الإستشراق معكوساً». المقالة الثالثة لحسونة المصباحي «إدوارد سعيد والأحكام المتجنبة» تستعرض كتاباً صدر مؤخراً في باريس ويضم ثلاثة حوارات أنغلو ساكسونية أجريت مع المفكر الفلسطيني مابين الثمانينات والتسعينات، بلور خلالها أبرز طروحاته الفكرية المثصلة بالاستشراق والإسلام وعلاقة الشرق بالغرب، والمنفى اللغوي والجغرافي ■

المحرر



علاء شراي

الأخيرة

احتفاء بالبلدة المغربية، شيء نساه المشرق العربي  
هيثم الزبيدي

160



المحتويات

العدد 31 - أغسطس / آب 2017



غلاف العدد الماضي يوليو/ تموز 2017

سرد

50 في تلك البلاد في متاهة الذكريات  
هيثم حسين

أصوات

28 المثقف العربي ورهاب الفئائم  
علي حسن الفواز

48 تأملات بين رحلتين  
مريم حيدري

130 نهاية الإنسان  
مريم الساعدي

131 ملف/ إدوارد سعيد / ثلاث محطات

132 إدوارد سعيد وثنائية الأنا والآخر  
خلدون الشمعة

136 استعادة صورة ملتبسة بين مفكرين  
سعد القصاب

138 إدوارد سعيد والأحكام المتجنبة  
حسونة المصباحي

كتب

140 الحريات الأسيرة  
بحث محمد الحموري في جذور  
وتجليات النكوص العربي  
نادر سرور

144 صوت الغراب: المسرات والأحزان  
ممدوح فراج النابلي

148 على آثار المهاجرين من كل عصر  
نجم الدين خلف الله

150 أصوات في الثقافة السودانية  
لمكي أبوقرجة  
محمد الحمامصي

152 الرواية العجائبية في الأدب المغربي  
لخالد التوزاني  
علي لفته سعيد

154 المختصر  
كمال بستانني

157 رسالة باريس  
ثالثية ماكرون وما بعد السياسة  
أبو بكر العيادي

كلمة

4 بلاغة التشيد الكوني  
المتوسط فضاء المعجزة الإنسانية وأرض الثقافات  
نوري الجراح

مقالات

6 في نقد العنف  
علي رسول حسن الربيعي

10 صناعة التوحش  
عامر عبد زيد

14 الدّين من وجهة نظر براغماتية  
سعيد عبيدي

18 سؤال الأيديولوجيا ونهاية التاريخ وصراع الحضارات  
جادالكريم الجباعي

122 السرد والهيمنة الأبوية  
هشام الماحوزي

126 الطيش والغياب في حال النقد الروائي العربي  
هيفا نبي

52 ملف/ 20 قصة من العراق

54 لا طفل يَهمَل بعد الآن  
أحمد خلف

58 حَوَاتِم  
أنمار رحمة الله

60 الخَوَافَات  
إنعام كجه جي

64 لماذا لا نذهب إلى البحر كثيرا  
بثينة الناصري

68 براءة دمي  
حسب الله يحيى

70 امرأة من ماء  
حميد الربيعي

72 اغتيال حقبة  
رغد السهيل

74 كونكان  
سعد محمد رحيم

76 زوجة الأمر  
صلاح زكنه

80 بيت الروح  
عبدالستار البيضاني

86 رائحة الغروب في حزيران  
عمّار يحيى

92 عودة الشيخ إلى أرابخا  
عواد علي

96 حافات السنين المدبية  
فرج ياسين

100 الحفيظ  
فيصل عبدالحسن

106 الرجل الذي قُتل  
لؤي حمزة عباس

108 شهريار  
محمد مزيد

110 جنات في نعيم  
ميسلون هادي

112 لعبة الدمى البشرية  
نهار حسب الله

116 لوحة باهتة لسماة بعيدة  
نهى الصراف

120 تفاصيل فقط  
يحيى السعيدني

حوار

30 سلامة كيلة  
مأزق الأيديولوجيا  
الإسلاميون والماركسيون خارج التاريخ

مسرح

44 كوابيس بغداد ودمشق  
عمّار المأمون

شعر

24 تقاحة التعب  
علي جعفر العلاق

40 أنا قتيلة الوقت وأنت سيف النهار  
آلاء أبو الشملات

128 إسفنجة الكلام  
محمد ميلاد

# بلاغة النشيد الكوني

## المتوسط فضاء المعجزة الإنسانية وأرض الثقافات

**المتوسط.** مرة أخرى، الجغرافيا وأبجديتها، التاريخ وأساطيره، الفكرة والحكاية والمغزى، وظلال المعنى في الصور والأشياء؛ تقسمها في ما بينها ضفاف المتوسط، وتتألق بها أقوام كتبت بمغامراتها وأقدارها المبهجة والأليمة تاريخ البحيرة ليكون مركز الجاذبية في تاريخ العالم.

المتوسط أولاً، والمتوسط في كل وقت بلغاته وأسمائه وزرقته العميقة. والسؤال لشاعر، بينما هو يعبر من ضفاف الشرق إلى ضفاف الغرب، ليس عمّا يجمع بين بشر ولغات وأقوام اقتسمت ضفاف البحيرة، وبمغامراتها اكتملت فكرة المركب الأقدم ليكون سفينة الناجين من الطوفان، ولكن عن الأسباب التي ظلت تهدد طفرة الفطرة في اللقاء الإنساني وعبقرية السفر بين الوجه وصورته في المرأة.

المتوسط، البرهة الأشد زرقة تحت سماء العالم، والمقطع الأكثر سحراً وبلاغة في النشيد الكوني.

لن يكون حدثاً عابراً وبلا تبعات أليمة أن تشيخ ضفة في شمال المتوسط وجهها عن أختها في جنوب المتوسط، وأن تتفاوت الأقدار البشرية بين ساكني شرق البحيرة وساكني غربها على النحو الفادح الذي نراه في برهتنا الإنسانية الحاضرة. لا قيامة لهذه البحيرة، إذ تنوهم نخبها الاقتصادية والسياسية والعسكرية قدرتها اللامحدودة على ابتكار قدر مستقبلي مخالف لما تريده الجغرافيا، ولما حملت به أصوات الثقافة التي تفكرت بالبحيرة وضافها بوصفها حديقة الجنس البشري الخلاق. إن اليأس الحضاري وحده، إذ يُطبق على الجماعة الإنسانية ويسلبها حب المغامرة وحب التعارف وحب الاكتشاف، هو ما يمكن أن يقفل الأفق ويحول دون قيام التواصل والتفاعل وتبادل الأفكار والخبرات بين البشر والثقافات، هنا وهناك، في جنبات الجغرافيا الطافحة بزهو الريادة في التاريخ؛ شُرّة العالم التي هي المتوسط.

\*\*\*

لا مخرج للثقافة العربية ومجتمعاتها من عدمية الثنائيات الضدية، ومن التخطب الأعمى في فخاخ الأقنعة والمجازات والرموز التي تتسلح بها قراءات الخصومة المؤبدة والنزال القدي بين الأصوليات، إلا بالانفتاح على الأوسع، في المجال الجغرافي لأسنة المتوسط وقلوبه، وأبعد حتى من الجغرافيا المحيطة وثقافتها المختلفة التي تعيش اليوم مجتمعة ورطة الروايات المتقاتلة. وبالمقابل لا مناص أمام الثقافات الأقوى، حتى لا أقول المتسيّدة، والتي كافحت نخبها المثقفة ضد أهواء القوة وأنانية التسيد والاستحواذ على الهويات الأخرى، من الإيمان بضرورة اللقاء والحوار والتفاعل بعيداً عن روح الاستعلائية وأهواء الهيمنة. ثمة مشترك أكبر من كل اختلاف، يمكن له أن يفتح النوافذ والأبواب على جاذبية الغريب الفجّج بالدهشة والبهجة، والمفعم بحب المغامرة وروح الاكتشاف.

من دون ذلك لا يرسم المشهد المتوسطي ولا يكتمل معناه.

\*\*\*

لا بد أن نعترف أن هناك حيرة وضياًعاً أصابا المتوسطيين على اختلاف ثقافتهم وتعددتها وتنوعها الذي هو، بلا شك، ثمرة تفاعل سابق وممتد في ما بينها، له محطات وعلاماته عبر العصور. وحتى عندما تصمت الثقافات عن هذا التاريخ صمت المنكر وقوع التفاعل، وتؤثر أفكار القطيعة على أفكار الانفتاح، في تقوقع على الذات واستسلام منافق للأنا الحضارية بوصفها نقية وكلية الاكتمال، فإن أقاصيص المتوسط وسيره وآثاره تتحدى خطاب القطيعة بحقائق التواصل.

يجب ان نتفكر هنا، كم يبدو غريباً درب الالام الشرقية وقد أخذت تحفر نفسها في مسار فاجع ها هو يحتل مساحة المشرق العربي كله، وخصوصا في الضفة الشرقية من المتوسط العظيم، الذي شهد القرنان التاسع عشر والعشرون ظهور مدنه القديمة من تحت الأرض وقد نفّض الآثاريون عنها غبار الأزمنة؛ ولكن ها هي تلك المدن العظيمة تدفن تحت الأرض ويدفن معها أهلها أحياء، كما حدث في الموصل (نينوى) العظيمة التي تعتبر من أوائل مدن التاريخ.

محمد خياطة



\*\*\*

هناك لغات وأقوام تجد نفسها اليوم غريبة في ظل الواقعة العالمية المسماة الحرب على الإرهاب، حيث تتحول هذه الحرب إلى واقعة أمنية يبذل فيها من أصل ثروات الأمم، وعلى رأسهم العرب، على مذبح «معارك الأمن» أكثر مما يبذل في معارك الوعي. والقضية في عمقها العميق مسألة ثقافية تتعلق بنكوص فكري جماعي تقهقرت معه قطاعات كبيرة من المجتمعات نحو أرض الظلام محمولة على أجنحة الغيب وقد تحول «الدين» على أيدي المتلاعبين به من رادع أخلاقي إلى أيديولوجيا قاتلة، صار معها التدين عربة تنقل الشباب من مقاعدهم بين أهل الدنيا إلى مصارعهم على أبواب الآخرة.

هذا أمر يستدعي من الثقافة العربية حركة مراجعة تاريخية تقوم على نقد الأفكار والتجارب والوقائع بحرية حقيقية. فالمسألة في البيت وليست خارجه، ما يعني أن علينا أن نبدأ بأنفسنا قبل أن نتوجه بسهام النقد للأدوار السلبية للأوروبيين نحو العرب في الحقبة الأخيرة، وهو نقد ضروري أيضاً، لكن ليس قبل تصفية الحساب النقدي مع الذات ■

نوري الجراح

لندن / تموز/ 2017



# في نقد العنف

## علي رسول حسن الربيعي

كان يتم تناول العنف والصراع عموماً حتى عام 1990 من وجهة نظر العلاقات الدولية والدراسات الاستراتيجية، مثل الحرب العالمية الأولى والثانية والحرب الباردة، وكان ينظر إلى الحروب الصغيرة، والصراعات منخفضة الشدة كنتيجة للاستقطاب الثنائي في أوضاع الحرب الباردة. لكن أصبح بعد عام 1990 زيادة في نسبة الحروب التي تجري في داخل الدول ولم يعد النموذج الذي ينظر لها بوصفها حروباً بالوكالة كافياً لتفسير طبيعة هذه الحروب والعنف المتفجر عنها. فنهاية الحرب الباردة والاحتفال بانتصار النموذج الليبرالي لم يأت بنهاية التاريخ التي رفعت شعاراً آنذاك. إذ أصبح الإرهاب وما يعرف بالحرب على الإرهاب والعنف سائداً ومهيماً على الأوضاع الداخلية، وأن لهذا ديناميكياته الخاصة.

**لقد** أحدثت الصراعات المحلية تحولاً مهماً في حقل دراسات الصراع والعنف. فقد أصبحت نظريات العلاقات الدولية والدراسات الاستراتيجية عاجزة عن الإمساك بديناميكيات وتعقيدات هذه الحروب الجديدة. وعندها بدأ التركيز على العوامل المحلية والأسباب الداخلية في سياقات العولمة الكونية وأثرها على تشكل الهويات الجماعية، أي بدأ ينعن النظر في ديناميكيات الجماعات الإثنية والطائفية، والمظالم الجماعية وغيرها. لذلك يستدعي تنامي ظاهرة العنف في العالم اليوم التفكير في أسبابها ونتائجها، لا اعتماداً على تراث من تقاليد سياسية ومقولات أخلاقية نتخذها نقاطاً ثابتة نثكئ عليها، ولكن نقوم بافتتاح طرق جديدة في التفكير من شأنها أن تنتج مفاهيم مختلفة تساعد أكثر على الفهم العميق للظاهرة، وعلى معالجتها والتصدي لجذورها. وهذا لا يتعارض مع الحاجة إلى مراجعة ونقد الأفكار التي تناولت العنف لكي لا تنقلب قوالب جاهزة ترسم مسار البحث، ولتمكينها بذلك من أن تسعف بإرشاديتها طرق التفكير في استلزام نسفها الحي

إلى ما يتجاوزها لتحقيق المطلوب ولصياغة مقاربات جديدة أكثر فاعلية، مقاربات تساعد في تركيب رؤية واقعية وموضوعية. لقد ناقش المفكرون طويلاً وبشكل معمق أيضاً مسألة العنف. هناك أنواع عديدة من العنف، منها البنيوي ومنها اللغوي ومنها الزمزي والذيني، ومنها الذموي الذي يحرض على القتل، ومنها ما دون ذلك. وما يهمني هنا هو كيف تتحول هذه الأنواع بسهولة من العنف اللفظي إلى العنف المادي، أي إلى الإيذاء الجسدي والقتل.

هناك طرق عديدة لمقاربة العنف، لكن ما أتناوله هنا هو مسألة العلاقة بين العنف والأعنف من خلال مناقشة ثلاثة مسائل هي:

أولاً: القدرة على تحمّل العنف وطبيعته التي تتخذ أشكالاً مختلفة.

ثانياً: حدود العنف.

ثالثاً، العنف والأعنف، والسياسة.

**أولاً: القدرة على تحمّل العنف وطبيعته التي تتخذ أشكالاً مختلفة**

هناك أنواع عديدة ومتنوعة من العنف يمكن إدراجها ضمن خطاطات مختلفة

بحسب الغرض من التحليل، فهناك، على سبيل المثال، العنف القانوني الذي تناولته مقاربة والتر بنيامين، والعنف البنيوي الذي ينزع بشكل ممنهج وقاس عن المستهدفين به إنسانيتهم لأجل ترويضهم وإخضاعهم، وهو يقع بحسب فرانز فانون في صلب النظام الكولونيالي، وهناك العنف الشمولي الذي يفقد الطبيعة الآدمية قيمتها الإنسانية الذي تصدّت له حنة أرندت في مقاربتها فأسمته بالشّر الجذري. لم يكن هدفي من هذه المقالة هو تصنيف الأنواع المختلفة من العنف، ولكن بالأحرى مناقشة طرق تصريفه وتحويله إلى أثر مادي ملموس، أي كتعذيب وأذى جسدي، وكقتل وإبادة جماعية.

لقد استمرّ العنف ملازماً للمجتمع البشري طوال التاريخ، وتخبرنا الذاكرة الثقافية أنّ الماضي لم ينتهِ هكذا بكلّ بساطة، فحتى بعد فترات كفون طويلة للعنف يمكنه الانفلات ليعود عودة المكبوت. إنّ الاعتقاد بإمكانية إنجاز تنوير حاسم ونهائي، أو بإمكانية وجود طريقة محدّدة تضع نهاية للعنف بشكل دائم يخلّص البشرية هو اعتقاد واهم مُضلل. بل هو تضليل خطير لأنّ مهمة التنوير

استمرار البقظة في مقاومة العنف والحدّ من تفلّت أشكاله.

فالتبيعة المتلونة للعنف تجعله يتخذ أشكالاً جديدة ومختلفة عن أيّ وقت مضى. إنّهُ يتخفّى مثل بروتئوس آلهة البحر في الأسطورة الإغريقية، ولا يمكن الحدّ مسبقاً من الطرق التي قد يظهر بها في مسيرة التاريخ، لذلك فإنّ الوعي بأشكاله الجديدة والمتوقعة، التوعية فهم بنياتها وديناميكياتها، التوعية بخطورتها وكشفها للرأي العامّ هي أكثر ما يواجهنا من تحديات صعبة ومستمرّة، فلاستجابة المناسبة والجديّة تجاه العنف هي أن نفهمه ونحلّله. لقد تطرّق فانون مثلاً إلى العنف الكولونيالي كشكل

من أشكال العنف المنهجي لفضح الحركة الكولونيالية وكشف تراثها المتقل بالجرمة ضد الإنسانية، لأنّ مواجهة عنفها ينبغي ألا يقتصر فقط على إدانة ما تمارسه على السكّان الأصليين من تمييز ووحشية، ولكن يتطلّب أيضاً تفكيك بنياتها نظرياً لأجل تعرّف آليات اشتغالها وأدوات نظمها المعقّدة، وما تقدم عليه مؤسساتها العدوانية من إجراءات غاشمة تذلّ أهالي البلد وتجزّدهم بشكل منتظم من إنسانيتهم فتطمس هويّاتهم ولغاتهم وثقافتهم لتجعل منهم مجرد كائنات تافهة لا أصل لها ولا جذور.

يساعدنا بنيامين، من جهة أخرى، على فهم السبل والحالات التي تظهر



عمر الربيعي

بها الأشكال المهلكة لسلطة الدولة فيما يتعلّق بالعنف القانوني في وقت نعتقد فيه بشكل عفويّ أو معتاد ودائم أنّ القانون وحكم القانون يمثلان حماية للمواطن ضدّ عنف يفتقد المبرّر. فيضيء بنيامين الجوانب المظلمة من حكم القانون، ليكشف لنا كيف يصبح في أوقات الأزمات وسيلة للعنف، وتعرّف طرق التمييز بين الاستعمال «الشرعي» للعنف عن غيرها من الاستعمالات «غير المنضبطة» و«غير الشرعية». وقد تحدّث جاك دريدا في دراسة عميقة (Force of Law: The Mystical Foundation of Authority) عند التعليق على مقال بنيامين «نقد العنف» عن الخداع والتضليل في الادّعاء



بوجود معيار واضح محدد، وقواعد أو مبادئ للتمييز بين العنف المقبول وغير المقبول.

وقامت أرندت، في هذا السياق، بتحليل العنف الشمولي في القرن العشرين حيث سعت إلى عرض فهم لما تتميز به التوتاليتارية من صفات، فكتشفت عن ماهية النزعات التاريخية الخفية التي تبلورت في الأنظمة الشمولية بعدما رأت ممارساتها العنيفة رأي العين، وهي ممارسات شبيهة بتلك التي حدثت في الماضي وفي أشكال مختلفة من الحكم يجمعها ويوحد بينها تاريخ طويل حافل بالمذابح، بالتعذيب، وبالإبادة الجماعية. لكن مع انفجار التوتاليتارية ظهر عنف جديد، هو القضاء المبرم على العفوية بالإجهاز على الاختلاف والمغايرة وإزالة التنوع الإنساني وجعل البشر لا لزوم لهم. لقد استشهدت بهذه الأمثلة من أجل التأكيد على نقطة أساس في مسألة العنف تتعلق بعدم إمكانية التحديد المسبق لكيفية وتوقيت انفجاره. لأنه لا يظهر في العالم بشكل واضح ولكن يتسתר وراء سياج منيع من البراءة، ويتمترس بمبرر الضرورة متدثراً بشعار الشرعية ومستعملاً تكتيك المباغتة، لذلك صار مرعباً ومنفلتاً بفعل التطور التكنولوجي، وتطور الأشكال الأوتوماتيكية للحرب. ولذلك أيضاً، فإن مهمة فضحه وكشف ما يغذيه ينبغي أن تتجاوز ما يحرضه ويحرض عليه، وما يستديمه فيبقى عليه أو يوشع من نطاقه إلى بيان ما ينبغي أن يكون عليه شكل الرد، وهي من غير شك مهمة صعبة ومعقدة لأنها تتجاوز ما هو نظري إلى ما هو عملي وميداني.

إن مهمة تنوير المفاهيم وتطوير أشكال الوصف وأنماط التحليل التي تمكن من استكناه ماهية هذه الظاهرة تصبح ترافاً فكرياً وعملاً لا فائدة ترجى منه ما لم يرافقها جهد تنويري يتشكّف به المجتمع

ويحفّزه على الرّد العقلاني المطلوب تجاه السلوك العنيف. فلكي يكون الموقف قوياً إزاء العنف لا بدّ من ترقية الوعي الجمعي وتحفيزه على قبول التغيير، على احترام الاختلاف والمغايرة والإقدام بشجاعة على رفض العنف. فتقييد العنف وكبحه ليست مهمة السياسيين فحسب، وإنما هي مهمة مشتركة بين قطاعات الدولة يتصدى لها المرّبون والوعاظ، المفكّرون والفلاسفة، الأطباء وعلماء النفس، رجال السلطة وفقهاء القانون، المؤرّخون وعلماء الاجتماع. إنّها مهمة نبيلة وصعبة



**إنّ مهمّة تنوير المفاهيم وتطوير أشكال الوصف وأنماط التحليل التي تمكّن من استكناه ماهية هذه الظاهرة تصبح ترافاً فكرياً وعملاً لا فائدة ترجى منه ما لم يرافقها جهد تنويري يتشكّف به المجتمع ويحفّزه على الرّد العقلاني المطلوب تجاه السلوك العنيف**



يتعيّن أن يتجنّد لأدائها الجميع حتى تحقّق التّجّاح المرغوب.

**ثانياً: تقييد العنف**  
عرف المجتمع البشري طوال تاريخه دورات من العنف أو من التّأرجح والتّقلّب بين العنف وضدّ العنف كما يصفه بنيامين، فقد كان هناك على الدوام إغراء للردّ على العنف بعنف

مضاد. ففي مقالتيهما لاحظت أرندت كما قانون أنّه من الوارد أن يكون للعنف العفوي والمباشر مبرر أخلاقي ومغزى سياسي، فضحايا الوحشية والإذلال غضبهم غير عقلاني يعبر عن سخط أخلاقياً. وتقليدياً لطالما اعتبر الامتناع والاستياء انفعالا سلبياً ينبغي التغلّب عليه، لكنّ تمييز الأشكال الفرضية لهما عن تلك التي تظهر كردّ فعل عنيف على الظلم السياسي من شأنه أن يعالج الضحايا ويحزّزهم ممّا قد تفضي إليه هذه المشاعر «الطبيعية» من انحراف في اتجاه العنف. فنحن نحتاج إلى التّحذير من إغراء الاحتفاء بالعنف وتمجيده مع العمل على التّخفيف من حدّة الانفعالات التي يعاني منها الأفراد والجماعات كما تؤكّد أرندت عند شجبتها القوي لموقف سارتر الذي اعتبر أنّ الرّغبة في الانتقام لا يمكن كبتها عند ضحايا الكولونيالية، وأنّ العنف سيجعل منهم أناساً أحراراً. لا يسع المرء إلّا أن يتفق مع ما ذهب إليه قانون بشأن إدراك حدود العنف ولزوم تقييده، فبالرّغم من إقراره بضرورة الغضب الذي يغيّر العنف بشكل مباشر وفوري، والذي بدونه لن تكون هناك أي حركة ثورية أبداً يعترف تماماً أنّ «روح الانتقام» وأنّ «العنف العفوي» يمكن أن ينعّض ويتفسّخ بسرعة فيحطّم الحركة الثورية. لذلك تراه قد أكّد كثيراً على دور القيادات السّياسيّة التي تصغي للأحداث وتعلّم من الناس في الحيلولة دون انزياح العنف وانحرافه عن جدية الكفاح من أجل التّحرّر، وعن أهداف مقاومة المحتلّ، لا سيما وأنّ ما يواجه الحركة الثورية من تهديدات جدية ومتنوعة لا يأتي من الخارج وإنما يعتمل بالداخل. فمهما كان الدور الذي يلعبه العنف الثوري والكفاح المسلّح في الإطاحة بالنظام القمعي إلّا أنّه لا يكفي أبداً لخلق ما يدعوه قانون التّحرّر وتدعوه أرندت

الحزبة العامة. إذ يمكن أن يكون العنف وسيلة ضرورية وفعالة للإطاحة بالنظام القمعي والحكم الشمولي؛ لكن لا يمكنه أبداً أن يخلق سلطة مخولة من قبل المجتمع ولا أن ينجز المطلوب لتحقيق الحزبة العامة بشكل فعلي وملموس. إنّ التّفاؤل الساذج مثل التّشاؤم الساذج كلاهما وجهان لعملة واحدة، وإنّ الارتباب من التّطوّرات الحتمية يدعم الزّوج الثوريّة والتّطلّع للحزبة، فيضفي على الحراك الاجتماعي بالسّعي إلى مأسسته وإضفاء الطابع السياسي عليه. وهذا الارتباب هو ما يسمّيه أندرياس كاليافاس: (Democracy and the Politics of the Extraordinary: Max Weber, Carl Schmitt, and Hanna Arendt) استثنائية السياسة الثورية مقارنة بالسياسة السّياسويّة، وهو ما يلفت فينومينولوجياً الانتباه بحسب أرندت إلى البهجة والإثارة التي تظهر في المواقف الثورية.

مازلنا وللأسف نجابه صعوبة الإبقاء على فكرة الحزبة حية وملموسة، وعلى ممارستها بشكل غير عنيف، وهي معضلة نظرية وعملية تواجه عالماً يزداد عولمة فيزداد فيه إغراء اللّجوء إلى العنف كلّ يوم.

**ثالثاً: اللاعنّف، العنف، والسياسة**  
توجد حجج قويّة لدعم الالتزام الأخلاقي والسياسي باللاعنف، لأنّ أكثر المشاكل خطورة في العالم اليوم هي ظاهرة تضخّم السلطة. فمع صعوبة مقاومة بنيات فكرية وعلاقات تقوم على قاعدة «الأمر والطاعة» في تصوّر السلطة يصبح وصف رايت ميلز في كتابه «سلطة النخبة» معقولا حينما يرى أنّ الطبيعة الثّائية للسلطة هي العنف. لم تتوقّف أرندت عن تصوّر طريقة مختلفة للتّفكير في السلطة وأثناء ذلك، أثارت الانتباه إلى تطوّر أنماطها وطرق ممارستها عندما يعمل الناس معاً

بشكل منظم ضدّ العنف فيتغلّبون عليه، وينجزون إصلاحاً جذرياً ناجحاً يثبت باللموس فاعلية السلطة غير العنيفة. وهذا ما تؤكّده وقائع التاريخ المعاصر حيث كانت نتائج المقاومة السلمية التي قادها غاندي في الهند حاسمة ومبهرة، وحيث حققت حركة الحقوق المدنية في أميركا نجاحاً لافتاً، واستطاعت الإضرابات العامة السلمية في الجزائر أن تنجح في إقناع المحتل الفرنسي بأنّ الإصرار على الاحتلال قضية خاسرة على الرّغم من انتصاراته العسكرية، كما



**ما يواجه الحركة الثورية من تهديدات جدية ومتنوعة لا يأتي من الخارج وإنما يعتمل بالداخل. فمهما كان الدور الذي يلعبه العنف الثوري والكفاح المسلّح في الإطاحة بالنظام القمعي إلّا أنّه لا يكفي أبداً لخلق ما يدعوه قانون التّحرّر وتدعوه أرندت الحزبة العامة**



استطاعت حركة التّضامن في بولندا بالإضافة إلى الحركات السلمية التي اجتاحت شرق أوروبا أن تسقط أعتى الدكتاتوريات الشيوعية الواحدة تلو الأخرى. وبذلك تكون سلطة أكثر فاعلية في مواجهة العنف من العمل المسلّح قد ظهرت بالفعل، مع أنّي لا أعتقد أنّه من الممكن التنبؤ متى وأين يمكن أن يظهر

أو يتطوّر هذا الثمط الجديد من السلطة، ولا تحديد الأحداث والظّروف التي تحفّز ظهورها والإقدام على ممارستها ميدانياً. وكلّ ما يمكن استفادته من الفحص الدقيق لتلك الحركات السلمية التي نجحت في تحويل السلطة للشعب هو أنّ الناس هم دائماً من يقودها ويهيئ لها، وأنّه من الضروري أن تبقى فكرة ما يمكن أن تنجزه قوّة اللاعنّف حية حتى في أحلك الظّروف حينما تبدو المعارضة ميؤوساً منها.

إنّ النظر في مخاطر أيّ تبرير لاستعمال العنف، وفي الطرق التي يساء بها استعمال هذا التبرير مسألة سياسة عامة، وإنّ الطريقة العملائية لتقييد سوء الاستعمال تكون ممكنة التطبيق عند فتح نقاش نقديّ عام حول إيجابيات وسلبيات أيّ تبرير مقترح للعنف. فالمسألة ليست مسألة مواجهة حالة معزولة ولكنها مسألة تتعلق بالسياسة وبالحكم السياسي، وقضية تتطلب مشاركة المعنيين بنتائجها وبمضاعفاتها الوخيمة في تقييم مختلف الآراء والحجج المدلى بها كحلّ لمعالجة موقف ملموس ومحدّد، فالحكم السياسي محفوف بالمخاطر دائماً، تعتمد ممارسته السليمة على توفّر حياة اجتماعية عامة ملتزمة بمنطق الإقناع، وعلى مجتمع يأخذ بالاعتبار الظّروف المحددة والملموسة مع الوعي بقابلية الخطأ. إنّه عندما يذوي النقاش العام ويموت الانخراط فيه يصبح مصير المجتمعات عرضة للتّلاعب، وعندما تطمس الحقائق وتمسخ الوقائع من أجل الدّفاع عن مصالح أنانية وتحقيق غايات وضعية عندها لا يبقى ما يمنع من تفجّر العنف.

كاتب وأكاديمي من العراق مقيم في بريطانيا



## صناعة التوحش في تجليات العنف إعلاميا

عامر عبد زيد

العنف اصطلاحاً يشتمل على الخشونة في المحاورة إلى استعمال السلاح والبطش والاضطهاد وهو عكس المسالمة. ومثالية ما يمارسه البعض (إنسان، دولة، سلطة، جهة، حزب، حركة) مما يعني أن العنف يضعنا أمام مقاربات متنوعة وكل مقارنة تعكس إدراكا معيناً وأسلوباً في التشخيص والاقتراح.



عمر إبراهيم

بث الرعب الشديد على كل المستويات الشعبية والرسمية عند الغرب، مشيراً إلى أن الشعوب الغربية عندما ترى هذه البشاعة في القتل بالذبح المصور تقوم بممارسة الضغط على الحكومات؛ لعدم توريث جيوشها في أتون معارك لا يعلم نتائجها إلا الله.

وتشير التقارير الإعلامية إلى أن حالة استقطاب مع التنظيم زادت بعد نشر وسائل الإعلام لمقاطع الذبح للضحايا فيما تأخذ النقطة الأولى جانباً آخر يجعل من تلك الرسالة متقبلة لدى المحطات الغربية والمحطات المتعاطفة معها التي تعتمد رسالة خلق التشويق لدى جمهورها المولع بالمفارقات. وغاية المحطة استثمار تلك الرغبات من أجل زيادة المتابعين لها. نتيجة أن المشاهد

والثالث يدخل ضمن إدارة التوحش المتمثل بخصوم التنظيم من الدول ومؤسساتها بهدف زعزعة أمنها. وهو يستثمر المناطق والدول التي تعيش حالة انقسام يحاول استثمارها من أجل إيصالها إلى حالة التوحش لهذا.

فمقلق جداً إطالة أمد الصراع السياسي في المنطقة، ما يصب لمصلحة داعش، فكل يوم يمر في ظل انسداد الأفق المستقبلي للخروج من هذا الصراع فهو يستثمره في استغلال الناشئة وتوريثهم من خلال ذلك الترويج والضح الإعلامي الهائل والمتزايد على «الإنترنت» كتابة وصوتاً وصورة. ورابعاً يهدف داعش من خلال نشر هكذا صور عنيفة إلى احتماليين، إما أن تكون هذه الفيديوهات حقيقية وعندئذ سيكون هدفها الأول هو

شعبية افتراضية تفوق الواقع، فهو ما إن يطاء أرضاً حتى يبادر بشكل منظم وسريع في تغذية المواقع بأخباره صوتاً وصورة.

فهذه التحليلات تكشف أن التنظيم وأنصاره يستثمرون الخطاب الرقمي الإعلامي بشكل فاعل عبر إعادة الترويج للحرب النفسية من أشكال وأساليب متنوعة؛ من أجل تحقيق غاياته، ومنها: أولاً زرع الشعور بالخوف في قلوب المتلقي عبر بث الرعب في الرأي العام من أجل تعظيم شأنه، والثاني الوصول إلى تجنيد مقاتلين، ومن أجل كسب عقول أكثر عدد من الناس، وصولاً إلى استمالة المتعاطفين والمؤيدين، ويكون الهدف من التواصل معهم استثمارهم والحصول على دعمهم ومسانداتهم.

**فهذا** العنف يتجلى اليوم عبر العالم الرقمي الافتراضي الذي تجاوز عائق المكان والمكان اللذين يعوقان الاقتراب بين الناس جغرافياً. فأصبح هذا الفضاء الرقمي مجالاً رحباً من أجل صناعة التواصل، فضلاً عن صناعة التوحش ومن ثم إدارته بفعل الاستثمار الإرهابي للخطاب الرقمي، فإن المتابع للأعمال الإعلامية المعادية التي يتبعها داعش يجد أنها أعمال تعتمد وسائل احتراافية تتوسل بمنطق العنف المفرط من أجل تحقيق غايات سياسية، وهو جزء من الفضاء والبيئة الرائجة بمرجعياتها ورموزها وتعاليمها أو بخطاباتها وأحكامها وفتاواها.

صحيح أن الإرهاب كعمل عسكري إنما يخطط له في السر وتحت الأرض ولكنه يشكل الوجه الآخر لثقافة تسهم في إنتاجه سميتها أنها متحجرة، أحادية، عدوانية، استبدادية كما تجري ممارستها تحت سمعنا وبصرنا، وكما تعمق نماذجها في الجوامع والمدارس أو عبر الشاشات والقنوات. فهذا الإرهاب بكل عنفه هو وليد البيئة التي تسهم في إفراز الكثير من الخطابات المماثلة له، وسوف تستمر بهذا مستقبلاً. فهذه الخطابات الأصولية تشن حربها ليس على الجسد وطاقاته

الحيوية وحدها، أو السلوك وحركيته ومرونته وصولاً إلى مطاردة النوايا، ومرجعية الإنسان لا تكون في ذاته بل في نظم التحريم المتفاقمة التي لا تترك خارجها سوى أشباح الحاجات. فالإعلام وليد تلك الممارسة بكل ثقافته والشرعي وكل بُعد التقني الذي يتيح الفضاء الرقمي اليوم، ومن ثم نستطيع تصنيف هذا النوع من الإعلام بوصفه يمثل شكلاً متطوراً من أشكال الحرب الإعلامية، التي تعتمد الحرب النفسية في تسويق رسالتها، التي تجد كل الوسائل مباحة من أجل تحقيق غايات التنظيم في إشاعة التوحش في البلدان المستهدفة وإدارته، سواء اعتمدت الإعلام المرئي أو المطبوع من أجل تحقيق أكبر قدر من الإبلاغ عن مضامين رسالتها الإعلامية المشبعة بالعنف المفرط الذي يتخذه وسيلة من أجل تحول خطابه الطوباوي إلى حقيقة وإعادة إنتاج الزمن المقدس: زمن البدايات، زمن الكمال، والعمل على إزالة الدنس والكفر والاستبداد والكفر عبر العنف الجهادي الذي يفترض خطاباً تضحويًا عنيفاً يقوم على إراقة الدم للذات، ومحقق الخصوم وإزالتهم من الوجود، كل هذه البؤرة الأيديولوجية





الإعلامي: اليوم قد أخذت وسائل الإعلام تنتبه إلى الأساليب الإعلامية وآليات الاختراق والتهويل والعنف المفرط، جعلها تعمل على القيام بخطوات نقدية: • من أجل مراعاة أخلاقيات المهنة التي تفرض المصداقية والحيلولة دون نجاح غايات التنظيم من رسائله التي تحث على العنف والحرب النفسية عبر إشاعة الكراهية وتجنيد أنصار ممن يعانون من الاغتراب الثقافي والحضاري والاجتماعي يحول دون جعلهم منتمين، بالإضافة إلى التنظيمات العالمية الدائمة التي تجد في تلك الوسائل ترويجاً لخطابها الكوني القائم على العنف سواء كانت الأصولية الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية التي تعمل على استثمار تلك الدعاية من أجل الترويج إلى مصالحها التي تدخل ضمن مفهوم الصراع الحضاري بين الإسلام والغرب. • إلى جانب هذا المعيار الأخلاقي بكل حمولته القيمية. ثقة عامل آخر أسهم في تجاهل الرسائل التي تبثها داعش من قبل الإعلام العالمي في أنه يتعلق بمراعاة البعد الإنساني المتمثل بمراعاة مشاعر الضحية وأهله. ومما لاشك فيه أن أهم معيار يجب توفره هو محاولة إزالة الخلافات الوطنية التي تخلق الأفق لإدارة التوحش وتزعزع الاستقرار وتمحو التعاليم. أما الأمر الثاني فهو توفر الخطاب الإعلامي الذي يمتلك رؤية وطنية وافق تقني وفكري قابل لتفكيك الخطاب المعادي وإعادة إنتاج خطاب بديل متسامح تعددي. والعمل على إنجاز خطاب إصلاحي إسلامي يقوم على الانفتاح على قيم المعاصر ويعيد صهر الأفاق بين أصالة الماضي وتحولات المعاصرة وما تفترضه من ذهنية علمية منفتحة.

كاتب من العراق

هذا، نجد أن ذلك السلوك العنيف الذي يتجلى في خطاب داعش ومن ثم يترجم علاقته مع الآخر المختلف فإنه بالضرورة يمثل موقفاً نفسياً. من جانبه أكد إيان روبرتسون أن «هناك عدة عوامل يمكننا أن نتعرف من خلالها على التفسير النفسي لما يقوم به داعش، مشيراً إلى أن هذه العوامل تتركز في الوحشية، رأيهم في الجماعات المخالفة لفكرهم، والثأر، وقادة الجماعات. وأوضح في تفسيره لعامل الوحشية، أن الوحشية تستدعي الوحشية، فثلاثية القسوة والعدوانية وانعدام التعاطف تُعد ردود فعل مشتركة من قبل الناس الذي غوملوا بشكل قاس. وأضاف «كما أن الجماعات الدينية تؤيد وتدعم درجة من العدوان تجاه الجماعات المخالفة التي كانت غائبة في جماعات غير محددة دينياً، كما نشاهد بشكل مأساوي في الشرق الأوسط». نعم هي سياسة متجذرة في الشرق تقوم على المحو وتمارس نشاطها في ذاكرتنا الثقافية، وليس وفقاً لقوانين التطور الثقافي الطبيعية، حيث ينبثق الجديد من القديم ويتجاوزه تجاوزاً جذلياً، بل يتم ذلك بفعل تدخل سلطة ذات طابع أيديولوجي تحاول محو السابق بوصفه نقيضها، وإثبات ذاتها بوصفها بديلاً. وهذا ما يفعله داعش وتتم ترجمته إعلامياً فهي سياسة جوهرها المحو والإقصاء العنيف من أجل خلق بديل تحتكر تمثيله، وهي وليدة الخطاب التكفيري بامتياز. وقد تجلّى في القاعدة من قبل، مستثمرةً إمكانات الخطاب الرقمي المعولم ضمن أشكال جديدة من الحرب القائمة على إدارة التوحش المعتمدة أليتين: الاستنزاف والمناورة التي تعتمد على المباغطة والمعالجة مدعومة بحواضن إثنية وإعلام دعائي يعتمد الحرب النفسية. موقف وسائل الإعلام من سلوك داعش

العنيفة تصوّر وحشية من يقوم بالذبح التي تدل على فقدان أي درجة من الإنسانية. فإشاعة تلك المشاهد تُحدث آثار نفسية عالية، وبهذا نجد أن تلك الوسائل الإعلامية العالمية تفضل تحقيق زيادة في نسبة المشاهدة بدل العمل على مجابهة تلك الرسالة الإعلامية المعادية والعنيفة التي تُسهم بتسويق خطابها الإعلامي للآخر، فبدل أن تنتشر دعاية إعلامية مقابلة ومجابهة لدعاية داعش، أسهم الإعلام في نشر دعاية التنظيم. وتسهم باستهلاك تلك الرسائل المشبعة بالعنف والكراهية وتجعل من الجمهور يتلقى تلك الوسائل النفسية من الدعاية النفسية الزاحفة وتخلق اضطراباً نفسياً لدى الجمهور. وبهذا تحقق الهدف من زرع حالة توحش وآليات إدارته في صفوف الدول التي يتخذ منها داعش محوراً معادياً سوف نقف عندها بوصفها تجلياً من تجليات إدارة التوحش التي تتجلى من خلال المقاطع التي تحدث الصدمة والترويع من خلال الأساليب الانسانية في التخلص من الخصوم التي تحولت إلى وسائل في الحرب النفسية التي تظهر في وسائل تلك الجماعة أو وسائل الإعلام العالمية، حيث أنها تحقق من خلال تلك المقاطع متابعات واسعة. إن تلك الوسائل تبدو من خلال ما سبق مقصودة بوظائف مزدوجة بالإضافة إلى الوظيفة النفسية، فاتباع تلك الأفعال يسهم في تسويق الرسائل عبر وسائل الإعلام العالمية، لهذا نجد الحركة تتفنن في طريقة القتل، ما يجعل المادة مغربة. لكن أيضاً تلك الوسائل لها غايات أخرى منها التعويض عن غياب الإنجازات العسكرية مما يجعل التهويل وآليات الخداع النفسي والإعلامي من أجل الكسب الإعلامي للتنظيم الذي يعوض غياب الإنجازات العسكرية أو الاستراتيجية؛ لكن على الرغم من كل



## الدين من وجهة نظر براغماتية

سعيد عبيدي

لطالما شكل الدين أحد أهم المكونات التي تحكم الإنسان، وتؤثر في جوانب عديدة ومهمة من شخصيته وحياته ككل، وبالتالي تختلف أبعاد الظاهرة الدينية باختلاف الثقافات والمجتمعات، بل باختلاف الأفراد أنفسهم، لذلك انبرى للبحث في الظاهرة الدينية ثلة من المفكرين كل من منطلقه وفلسفته، فتشعبت بذلك الآراء والمواقف، لكن ما يهفنا في هذا المقال هو كيف تنظر البراغمتية كفلسفة إلى الدين؟ وهل فعلاً التدين أو الاعتقاد أو الإيمان ما هو إلا تجربة أو تعبير عن إرادة شخصية لإنسان عاجز يبحث عن حُسن يقيه من الشرور التي يشهدها العالم؟

### البراغماتية

كما عزفها المعجم الفلسفي هي مذهب يرى أنَّ معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملاً، وأنَّ المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأنَّ صدق قضية ما هو كونها مفيدة، والبراغماتي بوجه عام وصف لكل من يهدف إلى النجاح، أو إلى منفعة خاصة. كما عزفها قاموس ويبستر العالمي بأنها تيار فلسفي أنشأه تشارلز بيرس ووليام جيمس يدعو إلى حقيقة أنَّ كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية.

فالبراغماتية إذن تيار فلسفي لم يكن تشارلز بيرس يتوقع أن يحقق كل هذا النجاح الذي حققه، وللإشارة فقد ظلَّ هذا المذهب زهاء عشرين عاماً «مهملاً»، حتى بعته الفيلسوف الأميركي وليام جيمس من مرقده، وأخرجه إلى حيز الوجود، وأضاف عليه، ونشره على الناس في مؤلفاته، حتى أصبحت البراغمتية لفظة تتردد في الأوساط الثقافية في كل مكان في العالم وأصبح مذهب تشارلز بيرس، وما أدخله عليه وليام جيمس، وما أضافه عليه جون ديوي من أشهر الحركات الفلسفية في هذا العصر. فهؤلاء الأعلام الثلاثة الذين

قاموا بحمل الفلسفة البراغمتية على كواهلهم، كان لكل واحد منهم لون يميزه عن الآخر، وإن اتفقوا في أصلها الذي يقوم على أنَّ معيار صدق الفكرة إنما يكون من خلال ما ينتج عنها من نتائج ملموسة، فلكي ننشئ فكرة معيّنة، فكل ما نحتاج إليه إنما هو تحديد أي سلوك وأي فعل تصلح لإنتاجه، وأتينا لكي نتأكد من وضوح أي فكرة، علينا أن ننظر في الآثار والنتائج العملية التي تحققها في الواقع، سواء كانت هذه النتائج مباشرة أو غير مباشرة.

### 1- تشارلز بيرس: الدين افتراض ينتظر الإثبات

يعتبر تشارلز بيرس (1839-1914) المؤسس الأول للفلسفة البراغمتية، وأكثر مفكر من مفكرها عمقاً في مفهومها، إلا أنه أقل واحد فيهم شهرة، حتى أنَّ مؤلفاته لم تنشر إلا بعد وفاته بأعوام طويلة؛ فهو إذن الذي أنشأ الفلسفة البراغمتية وذلك عندما نشر مقالة أولى بعنوان «تثبيت الاعتقاد» سنة 1877 ومقالة ثانية عام 1878 تحت عنوان «كيف نوضح أفكارنا»، وفيهما أشار إلى أنه عندما كان يدرس المدارس

ذلك، فكل منهم كان يحبها حباً جفاً، ويجعلها رفيقته ليلاً ونهاراً، ويعطيها كل قوته وحياته؛ فهو كان يعيش معها ومن أجلها حتى أصبحت جزءاً من كيانه، وإذا به يجدها ذات صباح مشرق قد ذهبت أو اختفت تماماً، فتطوي حياته معها أو بذهابها. وهكذا قد يتعصب الناس لمعتقداتهم ويصعب عليهم أن يتخلَّوا عنها حتى لو اكتشفوا أنها لم تكن صحيحة أو حين تصبح موضع شكهم. (حبيب الشاروني، محاضرات في الفلسفة المعاصرة، ص: 82).

وفي مقاله عن «تثبيت الاعتقاد» يزيد بيرس هذا الأمر أكثر توضيحاً؛ فهو يؤكد على أنَّ خير الوسائل لهذا التثبيت هي المنهج العلمي الذي من شأنه أن يجعل صواب ما نعتقده أمراً يشاهده كل الناس، فتخرج الفكرة من مجرد كونها اعتقاداً ذاتياً عند أحد الأفراد لنجعلها حقاً عامّاً للناس جميعاً، وبحيث يأتي تطبيقها في كل حالة على صورة واحدة، وبذا يكون لها معنى واحد عند الناس

جميعاً، ولا يتغير معناها بتغير الأفراد أو الشعوب أو المكان أو الزمان، وهذه هي الطريقة التي يتفاهم بها العلماء. (فؤاد كامل، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، ص: 101).

ولقد أوجز بيرس قوله في الدين بقوله: إن فلسفتي في الدين يمكن وصفها بأنها محاولة فيزيائي يصوّر بنية الكون تصويراً لا يتعدى ما تسمح به مناهج البحث العلمي، مستعيناً في ذلك بكل ما قد سبقني إليه السالفون، لكنني لن أصطنع في هذا طرائق الميتافيزيقيين في الاستنباط الذي يقيمونه على فروض من عندهم، ويصلون به إلى براهين يصفونها بالضوابط القطعي الذي لا يتعرّض للتعديل على ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلمية فيما بعد. كلا، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها، وهي أن أقدم صورة للكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الإثبات على أساس ما قد يتكشف لنا من حقائق، ولذلك فهو يتميز أول ما يتميز بقابليته للضوابط وللخطأ،

وفق ما تقدّمه المشاهدة لنا بعدئذ من شواهد. (زكي نجيب محمود، من زاوية فلسفية، ص: 204).

هكذا إذن نخلص إلى أنَّ خير الوسائل لإثبات الدين أو الاعتقاد حسب تشارلز بيرس هي الوسيلة العلمية التي تجعل صواب ما نعتقد أمراً يشاهده كل من أراد أن يشاهد، فليس الأمر هنا حجاجاً عقلياً أو لفظياً بين جماعة من الناس فيما بينهم، كما هي الحال حين يناقش الفلاسفة الميتافيزيقيون بعضهم بعضاً، بل الأمر هنا مرجعه التجارب العملية التي تجعل الفكر عملاً كما ينبغي له أن يكون، الطريقة العلمية وحدها هي التي تخرج بالفكرة من مجرد كونها اعتقاداً ذاتياً عند أحد الأفراد، لتجعلها حقاً عامّاً للناس أجمعين.

### 2- وليام جيمس: الدين تعبير عن إرادة شخصية

إذا كان تأسيس البراغمتية أمراً يرجع فيه الفضل إلى تشارلز بيرس فإنَّ

هيدا جباري





الفضل في انتشارها وازدهارها يرجع إلى وليام جيمس (1842-1910)، ذلك الفيلسوف الأميركي الذي ربط بين هذا المذهب الجديد وبين الحياة الأميركية ربطاً محكماً، بحيث أصبح كل منهما علامة على الآخر، ودليلاً إلى معرفته، بيد أن هذا القول لا يحول دون أن نلمس في حياة وليام جيمس وتربيته الأولى ونظراته إلى الفلسفة نزعة كونية واضحة.

وقد عرف هذا الفيلسوف بتدنيّه، ممّا جعله مختلّفاً عن بقية زملائه البراغماتيين، حتّى إنّه قال «عندما أقول لكم إنني كتبت كتاباً عن خبرة الناس الدينية، اعثر إجمالاً بمثابة تأكيد لحقيقة وجود الله، فربما تبرّئون براغماتيّتي من تهمة كونها نظاماً إلحادياً». (وليام جيمس، البراغماتية، ص: 348).

فوليام جيمس أكّد من خلال قوله السابق على أنّ فلسفته البراغماتية بعيدة كلّ البعد عن تهم الإلحاد التي طالما ألصقت بها، بل أكثر من ذلك أكّد على حقّ الإنسان في أن يؤمن بوجود الإله رغم انتفاء الأدلّة العقلية والبراهين المنطقية على ذلك، وحسبه فقط رغبته ووجدانه وعاطفته، أي أنّ المؤمن يؤمن بالإرادة فقط، فتكون إرادة الاعتقاد في وجود الإله هي المبرّر الكافي، والدليل على صحة هذا الوجود. ونستنتج من ذلك أنّ وليام جيمس يرفض وجود حدّ وسط بين الاعتقاد واللاعتماد، فهو ضدّ الحياذ في الدّين، ويّضح ذلك من قوله «إنّ أيّ شخص يتظاهر بأنّه محايد إنّما يدمغ نفسه هنا بالحقق والثّمويه الكاذب والتّدليس». (وليام جيمس، البراغماتية، ص: 332).

وفي إطار حرّية الاعتقاد التي نادى بها وليام جيمس نجده يؤكّد على أنّه في حياتنا اليومية لكلّ ممّا أن يعتبر عقيدته ومذهبه وفكرته عن الله صحيحة

بالنسبة إليه إذا ما مكّنته من حلّ مشكلاته اليومية حلّاً شريفاً، وهو بذلك يربط الاعتقاد أو الدّين بالنفع، ويزيد هذا الأمر تأكيداً بقوله «افترض أنّنا سنجنّي من وراء اتّباعه -أي الدّين- خيراً كثيراً نحتاج إليه في حياتنا، وسنخسر بالإعراض عنه ذلك الخير الحيوي. فالذين يقدّم لنا نفسه على أنّه تخيير ملزم ضروري، لأنّ ذلك الخير الحيوي مرتبط به ومتوقف عليه. فلا يمكننا أن نتخلّص من المشكلة ببقائنا في حالة شك وتردّد مرتقبين اليوم الذي تأتي فيه أدلّة أكثر وضوحاً وأقوى إلزاماً». (وليام جيمس، العقل والدين، ص: 30).

وفي حديثه أيضاً عن علاقة الذين بالمنفعة أعطى وليام جيمس مثالا لذلك من خلال إثبات وجود الله، إذ ذكر أنّه يستحيل إثبات ذلك عن طريق الخبرة العملية، وإنّما يثبت هذا الأمر عن طريق التّناجج الحسّية الملموسة؛ فوجود الله حسبه يستحيل إثباته إذا احتكنا إلى خبراتنا العملية لأنّنا لا نراه ولا نسمعه ولا نمسه، وإنّ فلا يجوز أن يكون ذلك طريق إثباته، ومع ذلك فهناك طريق غير مباشر إلى أثبات ذلك إذا رجعنا في ذلك لا إلى التّناجج الحسّية المباشرة بل إلى التّناجج العامّة التي تحدث في وجهة نظر المؤمن بصدقها، فالذي يؤمن بأنّ الله موجود يختلف شعوره في حياته كمن لا يؤمن بذلك؛ فتراه مثلاً متفانلاً قوي الزّجاء، وبالتالي هو مستبشر بحياته فرح مطمئن، على خلاف زميله المنكر إذ يغلب أن يكون هذا متشائماً مقبض النفس معدوم الزّجاء والأمل، وهذا الاختلاف في وجهة النّظر كاف وحده أن يجعل الجملة معنى لما لها من نتائج.

فوليام جيمس في مقاربته للدّين يشدّد على الإرادة وحرّية الاعتقاد وهو الأمر الذي دفعه إلى إصدار مقالاته الشهيرة المعنونة «إرادة الاعتقاد»، وهو يقصد من العنوان نفسه أنّ الاعتقاد إنّما يتوقّف

على إرادة الإنسان المعتقد، فاعتقد إن شئت وسيكون لعقيدتك أثرها في حياتك، وبالتالي ستكون عقيدة ذات معنى ومغزى ودلالة، فالقضية إذن شخصية تهّم الفرد وحده دون غيره، وبالتالي فلا حاجة لإنسان أن يبرّر اعتقاده لغيره، فالمسألة ترتبط بالإرادة أكثر ممّا تتعلّق بصحّة المعتقدات.

**3- جون ديوي: الدّين مجرّد فكرة**  
ولد جون ديوي في العشرين من أكتوبر سنة 1859، وهي السّنة نفسها التي أصدر فيها داروين كتابه «أصل الأنواع» والذي يمكن أن يعدّ فاصلاً بين عصرين ثقافيين، عصر قبله يتصوّر العالم سكّونياً ثابتاً، وعصر ثقافي بعده يجعل حقيقة العالم متغيّرة ومتطوّرة ومتحرّكة، ولقد انفرد جون ديوي وحده دون سائر البراغماتيين بما يسمّيه «المذهب الوسائلي» أو «المذهب الذرائعي»؛ وهو أنه ليس هناك حقيقة قائمة بذاتها أبداً، بل إنّ كل حقيقة إنّما هي وسيلة في طريق متسلسل طويل، يؤدّي في النّهاية إلى حلّ لمشكلة معيّنة، وهذا الحلّ الأخير نفسه يستحيل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها، بل إنّ سرعان ما يصبح حلقة في سلسلة فكرية جديدة، يراد بها حلّ إشكال جديد.

واللّون الذي يميّز جون ديوي أيضاً عن باقي البراغماتيين هو محاولته استخدام منهج العلوم عند التّفكير في القيم، فينبغي أن تكون الصّورة المثلى التي نصوّر بها فضيلة من الفضائل - مثلاً- بمثابة فرض عملي يخضع للتّجربة العملية، فإن ثبت صدقه على الواقع كان بها، وإلا وجب أن نصوغه صياغة أخرى، بحيث يحقّق للإنسان حياة يبتغيها، وليست العبرة هنا بكلّ فرد على حدة، بل بمجموع الأمّة أو الإنسانيّة كلّها، تماماً كالفروض التي لا تتحقّق لفرد بعينه وكفى، بل لا بدّ لها أن تتحقّق لمجموعة

العلماء المشتغلين بالفرع الذي جاءت تلك الفروض لتفسير ظواهر تقع في مجاله.

وقد عرفت الفترة التي عاش فيها جون ديوي بكثرة الأديان في المجتمع الأميركي وتصارعها من أجل الحقيقة، ووسط هذا الكمّ الهائل من المعتقدات الدّينية كان لا بدّ أن يتعرّض ديوي للدّين من خلال مذهبه الذي وصفه البعض بأنّه مذهب طبيعي، فلا غرابة أن يهاجمه غلاة المتديّنين الذين يرتبطون بالكنيسة أشدّ ارتباطاً، وخاصّة الكاثوليكيين الذين عرفوا بعدائهم للمذهب الطبيعي، فديوي فيلسوف طبيعي لم يتوان يوماً عن نقد واحتقار الميتافيزيقيا، لأنّ التّفكير الميتافيزيقي عنده لا يبدى في واقع الأمر أدنى اهتمام بما يتّصل بسيطرة الإنسان العاقلة على الطبيعة، ولأنّ التّفكير الميتافيزيقي يبدي اهتماما كبيراً ببعض الأمور دون أمور أخرى، فهو بذلك في رأي جون ديوي يعوق البحث ويصبغ الفلسفة بصبغة جامدة تحول بين النّاس وبين ما في العلم الطبيعي من إمكانيات كافية، لذلك هاجم ديوي الدّين، معتبراً مذهب وحده الكفيل بأنّ يؤدّي إلى إطلاق طاقات الإنسان الدّينية. (مارتن أي مارتن، الديانة في أميركا، ص: 329).

هذا وقد اعتبر جون ديوي الدّين مجرّد فكرة ننجز بواسطتها بعض التّناجج المرغوب فيها، فهي تساعدنا على أن نعمل شيئاً، أقرب إلى النّجاح أفضل ممّا لو كنّا نعتمد على الغريزة أو الاندفاع العاطفي وحدهما، فالأفكار لا تكون أفكار حقيقية إلا إذا كانت أدوات نستعين بها في حلّ المشكلات. والفكرة ليست إدراكاً شاحباً لشيء ما، وليست مركّباً من عدد من الإحساسات، فالزّجل المتوخش مثلاً قد يكون قادراً على تكوين صورة عن الأعمدة والأسلاك، ولكن إذا لم يعرف شيئاً عن التلّغراف أو الكهرباء، فلن تكون

لديه فكرة أو تصوّر أو على الأقل فكرة تصوّر بسيط، ذلك لأنّ الفكرة لا يمكن عقلياً أن تتفق بتركيبها وإنّما تتفق فقط بوظيفتها وفائدتها. في المواقف المحيرة أو غير المحدّدة ما يساعدنا على تكوين الحكم هو الاستنتاج بواسطة إيجاد حلّ ممكن، إنّها فكرة بفضل ما تفعله من إيضاح مشكل أو التّنسيق بين ما هو متناثر شذرات، لا بفضل تركيب طبيعي. فالذين إذن أو الفكرة كما يسمّيه جون ديوي «هو اقتراح قدّمه الإنسان لنفسه لحلّ مشكلة معينة من مشكلات حياته، حين يكون الاقتراح لا يزال معلّقاً ينتظر التنفيذ وبالتالي ينتظر الاختيار، وبديهي أن مثل هذه «الفكرة» لا توصف بأنّها «حقّ» إلا إذا كانت دليلاً هادياً يسدّد خطى صاحبها في مرحلة السلوك، أي في مرحلة التّنفيد، فصوابها هو في هدايتها لصاحبها، وليس صوابها صفة لاصقة بها بغضّ النّظر عن أثرها في مجرى السلوك والعمل، فالحقّ هو ما يهدينا هداية موفّقة على وجه الدّقة».

فالإيمان الحقيقي إنّما هو كشف عن الحقيقة التي تحلّ ما يعترض الإنسان من صعاب، الإيمان الحقّ إيمان بمنهج يسائر التّفكير ويساير الحياة العملية مسايرة تعمل على ازدهار تلك الحياة ورخائها، لا إيمان بحقيقة ثابتة كمل تكوينها وعرفانها بالوحي معرفة لا تقبل التّغيير ولا التّمو...، وعليه فإنّه ليس للدّين مثل عليا خاضة به ولا منهج للتّفكير خاض به، إنّما هو روح تسري في مواقف الإنسان كلّها إزاء خبراته، هو الزّوج التي يصطنعها الإنسان إذ هو فرد متعاون مع إخوان له في مجتمع واحد، يريد أن يبلغ وإياهم هدفاً واحداً، ليس الدّين في الكنيسة إنّما هو في مواجهة المشكلات وحلّها».

وعن علاقة الدّين بالعلوم الطبيعية وتفقّ هذه الأخيرة عليه في تطوير المثل العليا يقول جون ديوي «إذا كنت

قد قلت شيئاً، أي شيء عن الأديان كلّ على حدة وعن الدّين بصفه عامّة ممّا قد يقع في التّفوس وقعا عنيفاً، فقد قلت ما قلت لأنني اعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ ذلك الزعم الذي تدّعيه الأديان، وهو أنّ المثل العليا والوسائل الخارقة التي يمكن لها وحدها فيما يقال أن تتطوّر هي وقف عليها، أقول إنّ ذلك الزّعم يعوق تحقيق ما هو متضمّن في الخبرة الطّبيعية من قيم دينية متميّزة بطابعها الدّيني، ولهذا السّبب أكون أسفاً لو أنّ أحداً ضلّله كثرة استخدامي لصفة الدّيني بحيث يعتقد أنّ ما قلته ليس إلا دفاعاً مقنّعا عمّا يعدّ أدياناً. (John Dewey, A Common faith, P: 60)

لقد عالجت البراغماتية الدّين باعتباره تجربة روحية شخصية ذات أصول سيكولوجية، كما أنّها عالجت عن طريق إخضاعه لمحكّ نفعي عملي يتأسّس على الوظيفة التي يؤدّيها، إذ بغضّ النّظر عن صحّته أو عدمها فالهمّ هو المنفعة والفائدة التي يؤدّيها لصالح المؤمن، فالنّفع المادّي هو وحده المسيطر على الفلسفة البراغماتية، أي أنّ أيّ فكرة أو عمل عند البراغماتية إنّما يقاس صلاحه وفساده وخيره وشرّه بما يحقّقه من نفع. كما أنّ البراغماتية تقوم على التّجربة، وهي بذلك تنبذ الجمود والتأمّل، أو الحكم على الأشياء دون سابق تجربة لها، لأنّ التّجربة لأيّ فكرة هي المعيار الذي من خلاله يتمّ الحكم على تلك الفكرة بالصدق أو الكذب، وهي بهذا تتفق مع الفلسفة الوضعية التي تنكر وجود الحقائق أو القيم التي لم تستخدم التّجربة، فرفضت بذلك التّسليم بالحقائق المطلقة والقضايا الميتافيزيقية بينما نجد الفلسفة البراغماتية لا تردّد في قبول الأفكار واعتبارها صادقة متى ما كانت مفضية لنفع يتحقّق في حياة النّاس.

كاتب من المغرب



## سؤال الأيديولوجيا ونهاية التاريخ وصراع الحضارات

### جادالكريم الجباعي

طرح سؤال الأيديولوجيا بعد نهاية الحرب الباردة، وتأويل هذه النهاية بأنها انتصار أخير للرأسمالية على الاشتراكية، وانتصار أخير لليبرالية على الماركسية، وانتصار أخير لـ"العقلانية" على اللاعقلانية، أو بأنها «نهاية التاريخ»، حسب تنظير فوكوياما، ما يشي بأن الأيديولوجيا كانت قناع الحرب الباردة التي خيضت بجميع الوسائل، بما فيها الوسائل العسكرية، وإن كانت هذه الأخيرة لم تستعمل إلا في مناطق النفوذ المتنازع عليها بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، والدولتين الكبيرتين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي السابق، فكانت الثورات القومية والاشتراكية والانقلابات العسكرية والنزاعات المحلية والصراعات البينية الوجه الآخر للحرب الباردة في القسم المتأخر من العالم، ولم تكن حصيلتها النهائية أفضل من حصيلة الحرب الباردة نفسها.

القيم الأميركية، وواجب أخلاقي لنشر الديمقراطية، وانتصار لحقوق الإنسان، أي أنهم راحوا يلوكون أكاذيب رؤسهم وتخريصات حكومتهم، كما يفعل معظم «المثقفين» العرب، ولا سيما السوريين منهم اليوم. وهذه ذروة كلبية من ذرى الأيديولوجيا. نقول ذلك لأن أولئك المثقفين حوّلوا الديمقراطية وحقوق الإنسان إلى أدلوجيتين تبريريتين.

ما تقدّم كله يدل دلالة واضحة على ارتباط الأيديولوجيا بالحروب والنزاعات والغزوات والفتوحات. فحيثما يوجد نموّ مُحْتَجَز وتعارضات مستعصية على الحل توجد الأيديولوجيا، وحيثما توجد اللادعالة توجد الأيديولوجيا، وحيثما توجد غلبة ومغلوّبية وتسلط واستبداد واحتكار توجد الأيديولوجيا. الأيديولوجيا ماضويات ومستقبلات، موتها يعني موت الماضويات والمستقبلات معاً، وهذا مستبعد، منطقياً وواقعياً، إن لم يكن مستحيلاً؛ إذ لا مستقبل بلا ماض، والعكس صحيح، ولكن ليس بالمعنى المتداول وفقاً للرؤية

المقدسة والمخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام 1844، أو ما سماه كتابات الشباب؟ الرؤية الأميركية المزهوّة بانتصارها، (ولعلها تحتاج إلى انتصار آخر، من هذا النوع، لكي تكتمل هزيمتها)، أنتجت أدلوجة جديدة، هي أدلوجة «صراع الحضارات» التي عبر عنها صموئيل هنتنغتون ورصفاؤه من «الليبراليين الجدد»، الذين هدرّوا مبادئ الليبرالية وقيمها الإنسانية، وهي قوام الديمقراطية وعمادها وعوامل نموها، وخفّضوها إلى نفعية كلبية أو سينيكية، أو إلى عقلانية لاعقلانية، وقسموا العالم، وفق هذه الرؤية، عالمين: عالم الخير وعالم الشر، أو محورين: «محور الخير ومحور الشر»، حسب تعبير الرئيس الأميركي الأسبق جورج دبليو بوش، في أثناء التحضير لغزو العراق، وتأسيس ذلك الغزو على الكذب والتخريصات.

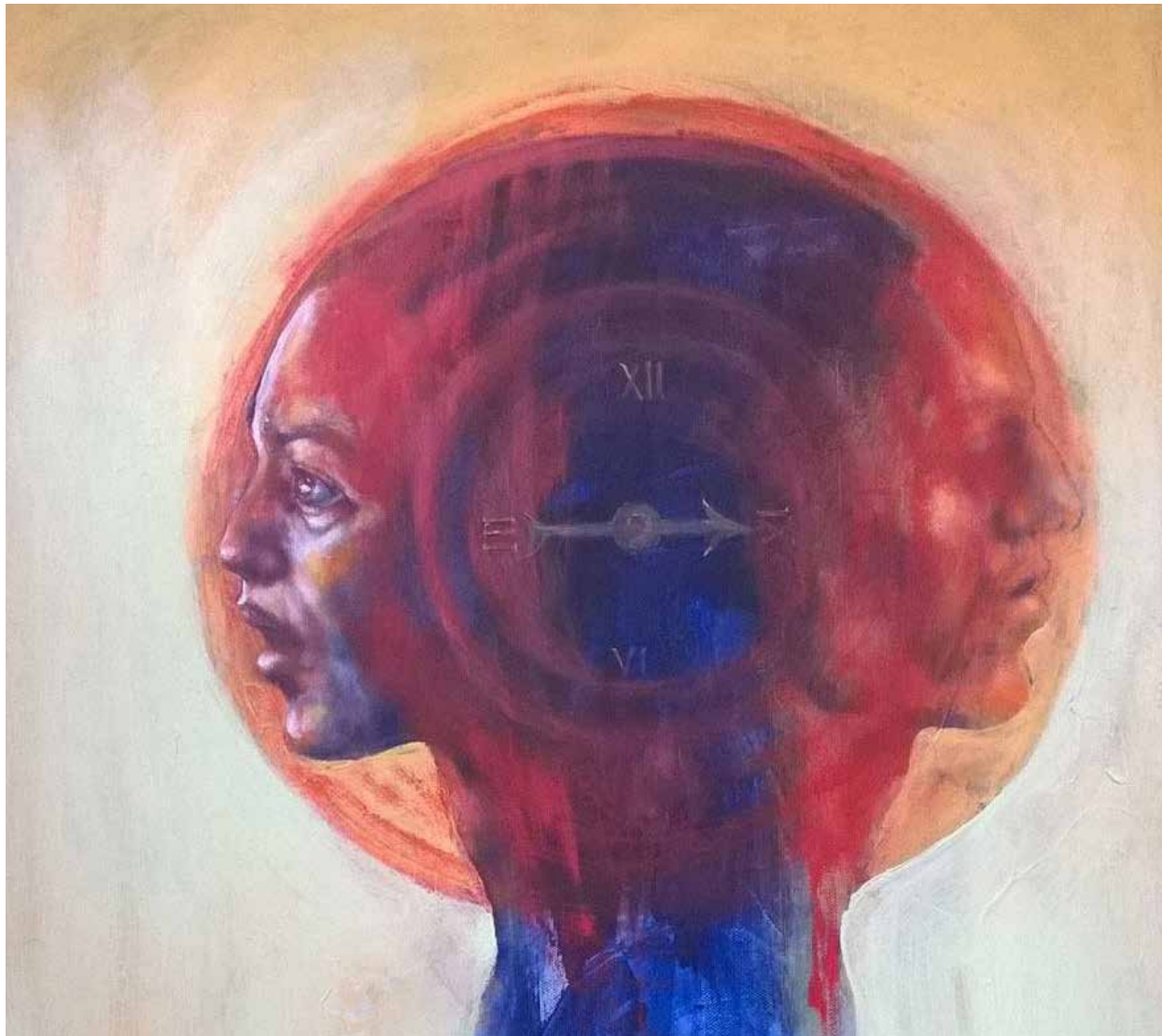
واللافت، في ذلك الحين، أن ستين مثقفاً أميركياً أصدروا بياناً جماعياً يبررون فيه غزو العراق، على أنه «دفاع عن

لذلك غدت الأيديولوجيا علامة فارقة أو سمة خاصة لوعي المغلوبين والمهزومين وثقافتهم وتاريخهم، في نظر الغالبين، بما في ذلك الصين المهزومة أيديولوجياً، على الرغم من تحولها إلى قوة اقتصادية كبرى تنافس الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

في مقابل هذه الرؤية الذاتية (أعني الأيديولوجية) للتاريخ، وهي رؤية أميركية بامتياز، ثمة رؤية نقدية للأيديولوجيا، عبر عنها أحسن تعبير وأدقه إدغار موران في كتابه «مقدمات للخروج من القرن العشرين»، وسائر نقاد الحداثة، كما عبر عنها عبدالله العروي في أعماله الرائدة «الأيديولوجيا العربية المعاصرة» و«العرب والفكر التاريخي» و«أزمة المثقفين العرب»، ثم في «مفهوم الأيديولوجيا»، وياسين الحافظ، في كتابه «الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة».

ولكن، أليس نقد الأيديولوجيا أو بعضه نقداً أيديولوجياً، كما رأى ألتوسير في نقد ماركس للأيديولوجيا الألمانية والعائلة

أسامة النصار



أو جمعية أو حزب أو سلطة سياسية، قائمة أو ممكنة.. لذلك لا يسوغ الحديث عن أيديولوجية مجتمع أو شعب أو أمة أو دولة، فمن طبيعة الأيديولوجيا أنها خاصة، وحصريّة، ومغلقة على ثوابتها وبقينياتها وإيماناتها، ومقتربة بإرادة السلطة، مطالبة أو مدافعة، وهذه جميعاً ممّا يجعلها علامة على عصبية بعينها، تحمل جرثومة العنف وإمكانات التطرف والإرهاب. لذلك لا نوافق من يقول بـ«التلازم بين الوجود الإنساني وبين الأيديولوجيا بما هي إفصاح عن التدفق اللامتناهي للأفكار والقيم الكبرى حتى في تعبيرها الطوبوي» ثم بما (هي)

سببياً، ولكنها تعمل إما على حجب وإما على تبريره. وبهذا يكون وصف شايفان للأيديولوجيا بأنها ليست ديناً وليست فلسفة وليست علماً مطابقاً تماماً. فإنّ من المستبعد أن تنتفي عملية/عمليات تأويل الدين أو الفلسفة أو العلم تأويلاً ما بقصد حجب الواقع أو تبريره، وهذا التأويل هو لب الأيديولوجيا، وهذه الحجب والتبرير أو التسويغ هما وظيفتها. الأيديولوجيا ليست حاجة، بل حجاب للحاجة وليست غاية بل تبرير للغاية.

لا يصبح تأويل الدين أو الفلسفة أو العلم أو مزيج منها جميعاً أيديولوجيا إلا إذا تبثّت هذا التأويل جماعة معينة

الخطية للزمن، ووفقاً لاستقلال الزمان عن المكان، بل وفقاً لمنظور مختلف، يفترض أن الماضي والمستقبل وجهان متلازمان للكائن والكون وسيرورة التكون، وهما سدى الحاضر ولحمته، حتى حينما نتحدث عن ماض قريب ومتوسط وبعيد أو عن حاضر يوصف بهذه الصفات. فلا سبيل إلى إلغاء الذاكرة الفردية أو الجمعية، ولا سبيل إلى إلغاء الخافية الفردية أو الجمعية، ولا سبيل إلى إلغاء الأهداف والغايات والتطلّعات والتوقعات. هذا يعني، في نظرنا، أن الأيديولوجيا مرتبطة بالحاضر، أو بالوضع القائم هنا والآن، ارتباطاً



ترجمةً لتنازع المصالح الذي لا يمكن أن يزول في أي مجتمع أو عالم، فكيف إذا كان المجتمع والعالم محكومين بالنظام الرأسمالي وعلاقة الاستغلال الوحشي التي تترك خلفها الملايين من المحرومين والمهمّشين» [1].

لا نتفق مع القول السابق، بسبب الكثافة الأيديولوجية في التعريف الذي لا يأبه بالتناقض بين شقيه: الوجودي والاجتماعي. ونرى أن الأيديولوجيا يوتوبيا خائبة، تنتهي إلى فولكلور، ومنظومة أفكار ميتة، متماسكة في الظاهر، ولكنها لا تمت بأي صلة إلى الواقع المعيش، ولا تزدهر إلا حينما وحيثما تنحسر الفلسفة ويذوي العقل ويتحول الدين إلى مجرد شعائر وطقوس، وينفصل العلم عن الأخلاق.

رأى داريوش شايفان أن «الثورة الدينية علامة خطيرة على فشل مزدوج، سواء من حيث عجز الحداثة عن إقناع الجماهير المحرومة الطريحة على هامش التاريخ، أم من حيث عجز التقاليد الدينية القديمة عن استيعاب ما عرفته العصور الحديثة من قطيعة مع الماضي. وهكذا نحن بإزاء انبجاس نزعة ظلامية جديدة هي.. أدلجة المأثور الديني. ويبدو الأمر كأن الأيديولوجيا أصبحت بصيغتها الأكثر بهتاناً والأكثر خرقاً نقطة التقاء مستويات مختلفة من الوعي [2].

وكتب برهان غليون «بعد سنوات الاغتراب الطويلة، يبدو كما لو أن النخبة المثقفة العربية التقت نفسها، في لهب الأحداث الإيرانية، وكان تبنيها السريع لها وسيلة بلا ريب للتعبير عن مشاغلها الذاتية، وعن رفضها للوضع العربي الراهن. وهكذا جاءت الثورة الإيرانية في الوقت المناسب، لتعيد إلى الوجدان العربي المثلوم فرخه الزائل، وإلى الشعور العميق بالخيبة أملاً متجدداً في القدرة على استملاك العالم من جديد. فالتقت في هذه المناسبة التاريخية العروبة

روحها الإسلامي الضائع، كما التقى الإسلام موطنه العربي الجافي.. الإسلام الذي عقد نفسه في أعظم ثورة شهداها النصف الثاني من القرن العشرين، مطالب اليوم أن يحقق الحلم الذي عجزت عن تحقيقه الأيديولوجيات الماضية، القومية والماركسية» [3].

أوردنا هذين النصين للتفريق بين رؤيتين وموقفين من الثورة الإسلامية في إيران وقناعها الأيديولوجي (المذهبي)، الذي يتضافر مع القومية الفارسية، ويوجه سياسات إيران الداخلية والخارجية، النص الأول لكاتب إيراني، والثاني لكاتب عربي من سوريا، نترك للقارئة أو القارئ



**الأيديولوجيا يوتوبيا خائبة، تنتهي إلى فولكلور، ومنظومة أفكار ميتة، متماسكة في الظاهر، ولكنها لا تمت بأي صلة إلى الواقع المعيش، ولا تزدهر إلا حينما وحيثما تنحسر الفلسفة ويذوي العقل ويتحول الدين إلى مجرد شعائر وطقوس، وينفصل العلم عن الأخلاق**



الحكم فيهما، مع أن غليون يتفق مع مقدمات شايفان في «الفشل المزدوج»، ولا يملّ من تكرار ذلك، لكنه لا يصل من هذه المقدمات إلى ما وصل إليه شايفان، بل ذهب بعيداً في التبشير بـ«الصحوّة الإسلامية»، ولا يزال يفعل ذلك تحت

قناع ديمقراطية الكم، (ديمقراطية صندوق الاقتراع) ومناهضة العلمانية مترسماً خطى محمد عابد الجابري. «قبل عقود، كتب دانيال بيل، وهو عالم سياسي أميركي، يتنبأ بأن الأيديولوجيا في طريقها إلى الفناء. كان بيل يتصور مثل كثيرين غيره من علماء السياسة والسياسيين في الغرب أن الأيديولوجيا هي الشيوعية، أما غير ذلك فهو خيارات للبشر نتيجة حسابات واقعية ومصالح حقيقية. ولكن الأيديولوجيات القومية تأججت في إيران وتركيا والعالم العربي وتحت السطح في دول أوروبا» [4]، كما تأججت أيديولوجيات دينية، بل مذهبية في غير مكان من العالم.

«رحلت الشيوعية وانتشى علماء السياسة الأميركية برحيلها، إلا أنهم تجاهلوا أنه بعد سنوات من الضياع والفساد والجريمة وسقوط مئات الألوف من أبناء الشعب الروسي موتى من الجوع وإدمان الكحول، وقع انقلاب أبيض في الكرملين وجاء إلى الحكم رجل أنعش القومية الروسية واستعاد للكنيسة الأرثوذكسية دورها في مجتمع ما قبل البلشفية، لأنه عرف أنه لن ينقذ روسيا من الغرق إلا وجود أيديولوجيا ما، وطالما أن الشيوعية لم تعد نافعة ولا تستعاد على كل حال، فإنه لجأ إلى الشعور الوطني وقومية الشعب الروسي وإلى المؤسسة التي ربطت تاريخها بتاريخ الأمة الروسية. وفي الصين وقع شيء مماثل مع اختلاف في التفاصيل الدقيقة، ومع ذلك يصّر علماء السياسة في الغرب على تأكيد أن الأيديولوجيا ماتت في الصين».

لا تكفي البرهنة على أن الأيديولوجيا لا تزال حية في العالمين المتقدم والمتأخر، مع الفرق، علاوة على وظيفتها الإنقاذية، كما يفهم من قول جميل مطر إذ تقتصر وظيفتها في العالم المتقدم أو تكاد تقتصر على التبرير، في حين تؤدي في العالم

المتقدم وظيفة الحجب إلى جانب التبرير والتسويق. بل يجب الذهاب إلى أبعد من ذلك، أي إلى أن انحسار أدلوجة معينة يفضي بها إلى أحد مصيرين، إما التحول إلى فولكلور وإما إلى استعادة كل من الفلسفة أو العلم أو الدين مكانته اللائقة. فحين انحسرت أدلوجة الماركسية اللينينية في الاتحاد السوفييتي السابق والدول التي كانت تدور في فلكه، وحلت محلها أيديولوجيات قومية ذات بطانة دينية (قل مذهبية) عادت الماركسية إلى حقيقتها الأصلية فلسفة وعلماً. وقد أشرنا غير مرة إلى أن أدلجة الفكر وتسييسه لا تقل خطراً عن أدلجة الدين وتسييسه.

«تؤدي الأيديولوجيا اليوم الدور نفسه الذي أدته المثيولوجيات في العالم القديم، فهي، من ناحية ترضي الروح الجماعية لمعتنقيها برؤيتها لمجتمع مغلق، وتزعم، من ناحية أخرى، أنها علمية، أي مطابقة للتجربة والواقع. فإذا كانت الأيديولوجيا تتوفر على شحنة انفعالية تقرب الشقة بينها وبين العاطفة الدينية وعلى جهاز منطقي عقلي يعطيها مظهراً علمياً وفلسفياً، فإنها ليست في الحقيقة علماً ولا فلسفة ولا ديناً [5].

المثيولوجيات التي تداولها الناس على مر العصور تحولت إلى فولكلور، هو جزء من الثقافة الشعبية، هنا وهناك، وذلك حين كُتت عن كونها استثناءً لعمل الآلهة في الخلق، أي حين كفت عن كونها إبداعاً فنياً ورؤى كوسمولوجية وشعراً ملحمياً.. إلخ. وكذلك مصير الأيديولوجيات كافة، بل إن هذه الأخيرة هي يوتوبيات ميتة ومتفسخة، تؤول إلى فولكلور.

إن ما تزعمه الأيديولوجيا لنفسها من دين وفلسفة وعلم هو ما يؤول بها إلى التفسخ، في أي مجتمع يهتم بالعلم ويحتفي بالدين والفلسفة (وما بينهما من اتصال، بتعبير ابن رشد). أي إن موت الأيديولوجيا ممكن فقط في حال ازدهار الروح الإنساني في الدين، وتحققه في

الواقع المعيش، هنا وهناك، بعيداً عن الطقوس والشعائر والعلامات والرموز والأزياء والتقاليد، وبعيداً عن سلطة الفقهاء ومن يسمّون «رجال الدين»، وفي حال ازدهار الفلسفة والفكر الحر، وازدهار العلم واقتترانه بالأخلاق، أي أن الأيديولوجيا تموت حين تنتفي الحاجة إليها، سواء حاجة الحكام أو المحكومين، حاجة المستغلّين (بكسر العين) أو المستغلّين (بفتح العين)، أو حين تصبح بلا وظيفة، وهو المعنى نفسه. فما دام التفاوت الاجتماعي قائماً، وبعض هذا التفاوت لا يمكن حذفه، وما دامت اللادعالة منتشرة في جميع أنحاء



**قبل عقود، كتب دانيال بيل، وهو عالم سياسي أميركي، يتنبأ بأن الأيديولوجيا في طريقها إلى الفناء. كان بيل يتصور مثل كثيرين غيره من علماء السياسة والسياسيين في الغرب أن الأيديولوجيا هي الشيوعية، أما غير ذلك فهو خيارات للبشر نتيجة حسابات واقعية ومصالح حقيقية**



العالم، وإن بنسب مختلفة ومقتربة بالتسلط والاستغلال والاستبعاد.. بل ما دامت الطبيعة ليست شفافة بعد، وما دامت المجتمعات كذلك، وما دامت السلطات والسياسات كذلك أيضاً، ستظل الأيديولوجيا حية، ويمكن أن تزدهر

بازدهار الجهل وتعمق اغتراب الإنسان عن عالمه وعن ذاته.

ينبثق الحكم على موت الأيديولوجيا أو حياتها من رؤية من يحكم فيها إلى العالم، وإلى المجتمع والإنسان، وإلى المرأة خاصة. فالذين لا يرون في المجتمع سوى «مجتمع الحاجات»، كما وصفه هيجل، ولا يرون في العلاقات الاجتماعية سوى علاقات نفعية، بالمعنى الضيق والرديء للكلمة، بوسعهم أن يزعموا أن لا مكان للأيديولوجيا في مثل هذا المجتمع، ولا حياة لها. والذين لا يرون في المجتمع سوى «مجتمع الغايات»، كما وصفه كانط، يتشبثون بأهداف الأيديولوجيا، ويدافعون عن أحقيتها في الحياة، ويجادلون من ينتقدها بله من يقول بموتها، وهذا ديدن غالبية المثقفين العرب. أما الذين يرون في المجتمع «المسرخ الواقعي للتاريخ»، كما وصفه ماركس، فيدركون عوامل انبثاق الأيديولوجيا وعوامل تفسخها وموتها، وهي عوامل تاريخية لا تقزّرها الإرادات الذاتية وحدها، ويدركون مدى التباسها بالدين أو بالفلسفة أو بالعلم، ويدركون، من ثم، الحدود الفاصلة/الواصلة بين هذه المجالات جميعاً، ويتصدون لنقد الأيديولوجيا وتفنيدها ودحض مزاعمها الدينية أو الفلسفية أو العلمية.

«إذا كنا نعني بالعلم العلم الدقيق والمحيد والمؤسس على التجربة، فإن الأيديولوجيا دوغمائية؛ فهي تسلّم بمقدماتها على أنها حقائق قبلية، من دون أن يخامرها شك في مدى صحتها تجريبياً. بعبارة أخرى، إنها لا تكلف نفسها عناء وضع ما تعلنه على محك الإثبات. وفي حين يهتم رجل العلم، كما يلاحظ لابيير، بالتجارب التي قد تلغي أو تلغي فعلاً فرضياته، تضرب الأيديولوجيا صفحاً عن كل ما من شأنه أن يكذب مبادئها» [6].

الأيديولوجيا ليست فلسفة كذلك لأن



الفلسفة الحقيقية تساؤل عن مشكلة الوجود الجوهرية، وعن وضعية الإنسان الوجودية، إذ تشكل الأسئلة التي يطرحها الفلاسفة على أنفسهم والإجابات التي يتوصلون إليها المسار الجدلي للحركة الفلسفية، سواء تمثل هذا المسار في تموضع الروح تدريجياً في العالم والتاريخ، أو في احتجابها، في حين تظل الأيديولوجيا نسقاً مغفلاً ومنغلقاً على نفسه، متمحوراً على بعض أشباه الحقائق ساعياً إلى إظهار قيمتها الكونية والمطلقة رغم كل ما يثبت العكس» [7]. والمزاعم الدينية للأيديولوجيا، ولا سيما الأيديولوجيا الدينية، لا تقل هشاشة. فإذا كان «الدين هو الفلسفة وقد صارت شعبية»، فإن الأيديولوجيا الدينية هي الدين وقد صار خرافياً، أو عديمياً (إرهابياً)، إذ لم يعد «الدين» بخلته الخرافية ونزوعه العدمي يهتم بخلص الأرواح بل بإزهاقها، ولم يعد يهتم بتهديب النفوس بل بتوحيشها، ولم يعد يدعو إلى المحبة والوئام بل إلى الكراهية والخصام، ولم يعد يعد نظمة إنسانية من «مكارم الأخلاق». هذا هو دين جماعات الدين السياسي كافة، ودين الجماعات الإسلامية، السنية منها والشيعة، عندنا. الأيديولوجيا، هنا، هي «تعقيل» فكرة ما، أي جعلها تبدو عقلانية، واعتبارها قانوناً ثابتاً له قوة القوانين الطبيعية، ومحوراً لعقيدة مذهبية دينية أو لادينية، كفكرة «البقاء للأصلح»، و«شعب الله المختار» و«خير أمة أخرجت للناس»، أو «حاكمية الله» أو «ولاية الفقيه» نائب «الإمام الغائب»، عقيدة ثنوية (مانوية) مؤسسة على وهم مركزية الذات في العالم ومركزية الإنسان في الكون، وهي عقيدة عدمية بطبيعتها مولدة للتطرف والعنف والإرهاب قوامها تقديس الذات وشيطنة الآخر.

أخيراً، لا بد من الإشارة إلى اقتران الأيديولوجيا بالسلطة وإرادة السيطرة،

ولا سيما السلطة التي تفتقر إلى شرعية دستورية وأخلاقية ولا تنال رضا محكوميهما وأثر هذا الاقتران في تشكيل الحقل السياسي للمجتمع المعني، وتشكيل ما يسمى النطاق الحيوي أو المجال الحيوي للدولة المعنية، وفق إحداثيات قومية أو «وطنية» أو دينية على نحو ما نرى اليوم في السياسات الروسية والإيرانية والتركية والأميركية والإسرائيلية وسائر الدول الضالعة في الكارثة السورية، وغيرها من الكوارث، التي تتجول في عالم اليوم. وإذا كان هذا مما يبدو جلياً على السطح السياسي فإن الأيديولوجيا بصفاتها



**تشكل الأسئلة التي يطرحها الفلاسفة على أنفسهم والإجابات التي يتوصلون إليها المسار الجدلي للحركة الفلسفية، سواء تمثل هذا المسار في تموضع الروح تدريجياً في العالم والتاريخ، أو في احتجابها، في حين تظل الأيديولوجيا نسقاً مغفلاً ومنغلقاً على نفسه، متمحوراً على بعض أشباه الحقائق**



أداة للهيمنة الرمزية أو الهيمنة الناعمة ضرورية للسلطة والنظم السلطوية أو التسلطية لتحقيق ما يسمى «الانضباط الاجتماعي» أو الهندسة الاجتماعية

وخفق الحرية. هنا يجب أن نلاحظ أن ازدهار الأيديولوجيا مرتبط ارتباطاً سببياً بتدهور شروط الحياة الإنسانية بوجه عام، وشروط الحياة الإنسانية للنساء والملونين والمهمشين بوجه خاص. ما يجعل الأيديولوجيا نقيضاً للعدالة، بما هي تركيب فريد من المساواة والحرية والقدرة على التمتع بهما. لهذه الأسباب كلها، لا نرى وجهة لا في آراء القائلين بموت الأيديولوجيا، ولا في آراء من يعارضونهم ممن يدافعون عن أيديولوجية سلطاتهم أو عن قوميتهم ودينهم أو عقيدتهم لأن الفريقين كلاهما غارق في الأيديولوجيا. الأيديولوجيا هي جلد الأفعى، تغيره الأفعى بين الحين والحين. والأفعى هي المصالح الخاصة العمياء وازدهارها وفورانها كما هي حالنا اليوم علامة على «احتضار الألهة» هناك، وجنونها هنا، علامة على جنون، يرصف الطريق إلى الجنة بالأشلاء والجماجم، سواء جنة المهووسين قومياً، أو جنة المهووسين دينياً ومذهباً.

كاتب من سوريا

- [1] - عبد الإله بلقزيز، أيديولوجيا نهاية الأيديولوجيا، على الرابط: [http://www.raii-akhar.com/ar/index.php?option=com\\_content&task=view&id=396&Itemid=115](http://www.raii-akhar.com/ar/index.php?option=com_content&task=view&id=396&Itemid=115)
- [2] - داريوش شايفان، ما الثورة الدينية، الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، ترجمة محمد الرحموني، دار الساقى، بيروت، 2004، ص 17.
- [3] - برهان غليون، الوعي الذاتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، 1992، ص 79.
- [4] - جميل مطر، نهاية الأيديولوجيا، على الرابط: [http://www.siironline.org/alabwab/maqalat&mohaderat\(12\)/384.htm](http://www.siironline.org/alabwab/maqalat&mohaderat(12)/384.htm)
- [5] - شايفان، ص 217.
- [6] - شايفان، ص 217.
- [7] - شايفان، ص 218.



## تفاحة التعب

## قصائد

## علي جعفر العلاق

## بقية السقف

بقية السقف أنا  
بقية القبائل الرُّحَلِ  
بل بقية من عرق الأيدي  
على الأبواب..  
\*

شرقتُ

بل غربتُ..

حتى مطلع الوحشة

حتى آخر المعنى

وحتى ابتلع الحوت أناشيدي..

سيان

فلا سعادة الوهم

ولا تلفتُ المرتاب..

وها أنا أهوي

على قصيدي بالفأس..

يا أيتها الناقة كم أنهكنا الحنين

كم أضاعنا الترحال..

لا ذهابنا من ذهب كان

ولا الإياب..

وفجأة

أفيق من سكرتي الكبرى..

أذككم أنا؟ أم ذلكم  
صوت ارتطام الليل  
بالأكواب؟

## ما زال في الليل ما نشتهيه

لا تقومي إلى النوم. ما زال في الليل  
ما نشتهيه، وما زال في القلب  
ما لم نقله. لنا قمر  
يترقب جلستنا كلما مر  
حتى يتم نيمته للرعاة الوحيدين..  
وفي الليل ينمو حنان يديك  
وينضج يئمي الذي  
لا ارتواء له..  
\*

يتنامي حيني إلى ما مضى..

يتكسر في لغتي قوس لهفتها

وينفجر فيها النقيض

النقيض:

الرذاذ وجمر الغضا..  
\*

كم وددت لو أنني

داود حسن داود



بُحْتُ بما لم يقله أحد..

غير أنك عودتني أن تقولي الذي لم أقله

وكنت البليغة، فميت إلى ليلنا الوثني

وقطرته في أباريق من فضة

والوسائد مشغولة بالشذى عارياً

وحفيف القصب..

ثم أحضرت

ما لذ من زمن الوصل..

ما طاب من شهوات مخيلة

لا تخوم لها..

ثم ما يشتهي

من سلال التعب..  
\*

لنقم دافئين إلى ليلنا..

سوف نلقي على عريه برودة

ونغير بعض شمائله:

مثلاً لم يعد قمراً بارداً

أو طريقاً إلى النوم، بل أفقاً



غامضاً، ومواهبَ مهلكةً، وهباتٌ  
سنعودُ إلى ليلنا الحرِّ ثانيةً  
تلك جلستنا والقبائلُ من حولنا  
زمنٌ من عقودٍ جميلٍ ومن  
صلواتٍ..

### سيدة هذا الزمان

إنَّ بيَ حاجةً لقليلٍ من المكرِ  
كي أتصدّي لهذا البياض الذي  
يملاً النفسَ..  
أشبعُهُ كدراً ورضوضاً..  
لكي لا أرى كلَّ سنبلةٍ فكرةً  
لرغيفٍ..  
وكلَّ كلامٍ قصيدةٍ نثرٍ  
مطهّمةٍ صافيةً..  
إنَّ بيَ حاجةً  
للكثيرٍ من اليأسِ  
حتى أصدّق أنّ العراقَ بعيد..  
وأنَّ الروايةَ سيدةُ هذا الزمانِ  
وطفلتُهُ الحافيةً..

### نعاس

أتجوّلُ  
في ليلٍ ذاكِرةٍ  
ليس فيها أحدٌ..  
ليس إلّا نعاسي الشحيحُ  
وهذا الصديقُ الجسدُ..

ليس لي من جوادٍ سوى قلقٍ  
أبيضٍ يُشبهُ الريحَ..  
لا مهرجانُ القصيدةِ..  
لا بعضٌ ما زرعَ اللهُ  
من مطرٍ..  
\*

يتساقطُ في كلِّ زاويةٍ صاحبٌ  
يتساقطُ عن كتفيّ الندى والندامي النديونَ..  
والليلُ لمّا يعدُّ كافياً لنعاسٍ قطاةٍ  
فأسألُ أين الذي كنتُ أمحو وأكتبُ  
منذ ثلاثينَ قرناً مضى..  
فجأةً..  
مطرٌ يطرقُ البابَ  
محتضناً باقةً من نعاسٍ  
خفيفٍ..  
\*  
أتألمني:  
ليس إلّا مسوّدَةً  
ليس إلّا منتظراً ضوءَها  
ليس إلّا صديقي الخريفُ  
يتعثّرُ مبتعداً..

### غواية آدم

إلى أيّما جنةٍ تذهبانِ  
ومن أيّما جنةٍ جئتما؟  
أنتما..  
آه يا أنتما..  
هبةُ اللهِ رِيّانةً لعبادهِ..  
أم غوايةُ آدمَ  
تشرقُ في كلِّ ثانيةٍ  
من رمادهِ..؟

لا تزيدني  
على وحشتي وحشةً  
إن صمتك يربكُ لي لغتي..  
وحديثك غيمٌ تساقطُ من جنةٍ  
كسماءٍ يحيرُني بعدها..  
\*

كلّما اشتد في الحنينُ، تجيئني  
دافئةً، تمسحينَ على خطبي..  
أتوهّج فيك وأورقُ  
ثانيةً كالبراكينِ..  
ها أنتِ  
سيدةً للنساءِ اللواتي  
تذوّقُ أيامهنَّ..  
وسيدةً للواتي تذوّقنَ بدئي  
وما طقنَ صبراً على مُنتهاي..  
وها أنذا..  
كلما عصفتُ بيننا محنةً  
هدأتُ بعدها الريحُ صافيةً  
وأعادتُ إلى لغتي طرفاً  
من صباي..

### أنانية بيضاء

بالكاد أنجو  
من أنانيتي البيضاء..  
من حُلُمٍ جديدٍ مضى..  
من بلدٍ يعلو إلى موتهِ المحتومِ..  
من بئرٍ يغني بها  
الموتى..  
ويفنى بها الناجون..  
أحتو فوق حُلُمي الحصى..  
أصيحُ في الأسواقِ:

من يشتري هذا الأنينَ الفظّ؟  
من يكسرُ الأقفالَ كي  
تتسعَ الدائرةُ؟  
\*

يا لك من قصيدةٍ مرّةٍ  
يشقى بها المفترسانِ  
الحُلُمُ..  
والذاكرةُ..

### حصاد عراقيّ

أوي إلى لغةٍ طينيةٍ  
عبرتُ منها الخيولُ  
وفاضَ الليلُ  
من يدها..  
لم يتركِ السيلُ منها  
غيرَ كارثةٍ  
نُمتسي وتُصبحُ  
بعضاً من تجدّدِها..  
\*

أرضُ  
يعمرّها الحمقى  
فما حصدتُ عبر القرونِ  
سوى أخطاءٍ سيّدها..  
\*

عايشْتُ موتيَ مرّاتٍ، وها أنذا  
أرضُ يشبُّ الندى والنارُ  
في غدها..

شاعر من العراق مقيم في لندن



## المثقف العربي ورهاب الغنائم

علي حسن الفواز



وسط الخراب والعطب قد يذهب الكثيرون للنفي بقصد الإثبات، وقد يستعير البعض منهم ما يشبه الذاكرة الآمنة للتوهم بفكرة الخلاص، أو حتى النأي بالنفس عن أيّ تورّط بـ«الهزيمة» أو الخيبة، فما يحدث على «الجهة الثقافية» يمكن أن يحدث بذات الطريقة التي تحدّث بها ريك ماريا ريمارك عن «جهته الغربية» حيث أخذت الحرب كلّ شيء، وما عاد هناك سوى ذاكرة مشكوك بها. ما بين العطب، والذاكرة المثقوبة والمشكوك بها، هل يمكن اتهام المثقف العربي بالفرجة أو بالعطالة؟

المثقف العربي -خارج الثورات وحتى داخلها- ظل هو الكائن المتروك للعزلة وللعطالة، وكلّ الأحاديث عن تسليحه الرمزي والإجرائي لا تعدو سوى دعوة للانخراط في مطبخ السلطة الذي تملكه الجماعة المسؤولة عن امتلاك وتوزيع الغنائم.. وأحياناً توريطه بغواية اللعبة القديمة، لعبة العصاب بوصفها التطهيري والمتعالي، حيث صورة المثقف الفحل أو بوق القبيلة أو قارئ الصحف لأُمّيتها أو رمزا لفقيها الأعمى أو صاحب الطربوش والأفندي في سياقها المدني. ما يجري الآن هو ترسيم آخر لحدود توزيع تلك الغنائم، إذ يُعاد تغيبُ المعنى وإحضار الصوت وتصعيد الظاهر مقابل إخفاء الباطن في أنساقه المضمرّة.. وبما يتسع لصناعة المزيد من النقائض الضاغطة التي تفرض وجودها على الحضور وعلى عطالة الاجتهاد والتأويل وعلى تأثيم الخروج على سلطة الغنيمة، وربما الإعلان الفاضح عن طبيعة هذه الغنائم الثقافية لكي تتبدى بوصفها نصوصاً ومؤسسات وحقوقاً زاحفة، وبالتالي وضع حدود «شرعية» أو دعوية للعمل، مقابل تحريم أيّ فائض للمعنى، وبما لا يسمح للتجاوز في صناعة الرسالة والفكرة وما هو ظاهر في المعنى، إذ لا مجال لأيّ نقريّ أو حلاج أو صوفي أو هرطوق مارق يمكنه العبور خارج حدود هذا الترسيم القهري ولا حتى لأيّ «صلوك» يمكنه التفكير أو النظ خارج السور العصابي للأمة أو

**سؤال** قد يبدو مثيراً وفاجعاً وقد يحمل معه كثيراً من الجروح، إذ تستدعي هذه الفسائلة كشفاً لما يحوط هذا المثقف، وتعريّة اغتراباته واستلاباته، ليس لتبريرها بل لكشف أقصى له تعالقاته مع السلطة والتاريخ والأيدولوجيا والجماعة، وكل تلك القوى «النسقية» التي تصرّ على «تشبيّه» المثقف، وإخضاعه أو حتى توريطه بلعبة الغنائم. فهذا المثقف سيكون هو الأكثر تضرراً في سياسات توزيع الغنائم الثقافية، ليس لأنه من «العامة» من أصحاب الهامش فقط، بل لأنه الأقل توصيفاً لسلطة «الخاصة» ولأعطياتها وسردياتها وأوهامها، فهذا المثقف المستلب والواقف عند الحافات لا يملك أيّ شرعةً لصناعة السلطة الضد أو حتى الذاكرة الضد، وهو يرى أحلامه الثقافية وقد تبددت أو تحوّلت إلى بعض من الأضحيان وسط طقوس توزيع الغنائم الثقافية، تلك الغنائم التي يحظى بها الأقوياء من دكتاتوريين وعزابيين وحزبيين وثوار قدامى وجدد، أولئك الذين يتوهمون دائماً بأنهم المالكون الوحيدون للحق الشرعي باستئثار حقّ الغنيمة واستخدامها، بوصفها جزءاً من «لزوميات» الحق السياسي والأيدولوجي والحق المالي طبعاً! وربما فرض شروط ومقاييس للحصص والامتيازات لكي لا يتوهم أحد من الرعية بأنّ حقوقه الشرعية قد انتهكت!

الجماعة.

وسط هذا «المايجري» نلوذ بأحلامنا، وربما نلوذ بوعي قديم -تنويري أو إصلاحي- كنا قد اختزنناه لسنوات عجاف بوصفه إرثاً لقوة افتراضية تدعو لحماية الوعي المنتهك ولصيانة الأرواح المباحة لخرابات دائمة الوقوع.

هذا «الالتياذ» لا يُشبع من جوعٍ أو يُغني عن فقر، إذ يكتفي -فقط- بأن يكون قناعاً للبقاء أو لوهم الحماية أو لممارسة بعض طقوس الاحتجاج أو لصناعة ما هو مضاد، أو ربما لمواجهة التاريخ القهري القائم على فتوى تكديس الغنائم ومواجهة ثقافة الأقوياء والمحاربين والفقهاء والحزبيين، أولئك الذين اشتروا المعارك قبل أن تقع والقوافل قبل أن ترحل، لأنّ الشرط المرجعي والتجاري والتسويقي للغنيمة يفترض تأمين الفرصة والبضاعة والسوق والمستهلك.

مستهلكو ثقافة الغنائم يتسعون بطريقة عجيبة ويتكاثرون مثل الأميبيا، يمارسون طقوسهم في المحو والتكفير والتجهير والغلو، وربما يضعون هذه الثقافة بوصفها تعبيراً عن فكرة السطو والغلو والانتصار، وإماتة العدو الافتراضي، العدو الكافر والزنديق والمارق والخارج عن الأمة والملة.

إزاء هذه الصورة العدمية، هل يعني أننا سنظل نعيش لعبة الخضوع القهري لمهيمنات سلطة توزيع الغنائم؟ وهل يعني أنّ المثقف المعزول والخارج عن معارك السوق والشرف والمقدس سيظلّ يلعب جراحه دائماً؟ وهل سيكتفي باستمنائه الداخلي والتلذذ بوظيفة المتفرج الترسيسي على موته في المرأة أو في البئر؟

لا أريد أن أكون ناصحاً إزاء هذه الأسئلة، لأنّ النصيحة ستبدو نوعاً من السخرية، لكنني أدعو للمواجهة ولتحويل وظيفة الوعي من الفرجة إلى الاستعمال، ومن الاكتفاء بلذّة الصورة في المرأة إلى تهشيم تلك المرأة والى فضح سياسية الغنائم، والدعوة إلى هيكلة السوق والتكية والزاوية برمتها، وإعادة إنتاج «سرديات» الشارع والمقهى والمؤسسة والمعنى بطريقة أخرى، طريقة تقوم على تجريف الصمت، وعلى الإبانة عن المقاصد كما يقول علماء البلاغة، أي المقاصد الموجودة في الوعي، وعلى اعتماد ثقافة التحويل، أي تحويلها في سياق تأهيل الوظائف والممارسة، وإلى تخليص الثقافة من وهم مجاورة العطب إلى استكناه أسبابها وإلى الشروع بصناعة حشد آخر لا يصعد في مركب رامبو السكران، بل في سيارة السيد «رومونيغه»، إذ هو الرهان على السرعة والوضوح عند الرحلة القادمة، رحلة مواجهة أصحاب الغنائم وعصابها، وأنّ يلبس المثقف ثياب العدائين لكي يعرف أنّ الطرق ليست متاهة دائماً.

كاتب من العراق

دعوة

الجدید

تدعو الكتاب والمفكرين العرب إلى المشاركة في محاورها وملفاتها القادمة

تيارات التفكير العربي  
ظهوراً ومداً وجزراً

حال الكتاب العربي  
كيف تنشر الكتب

في العلاقة بين الكاتب والناشر والقارئ

الاستبداد الشرقي  
دور الحاكم المستبد  
في صناعة الاستبداد الديني

الشعر والتجريب  
هل وصل التجريب الشعري العربي  
إلى حائط مسدود

الكتابة والأنوثة  
هل تكتب النساء العربيات بلغة الرجل  
أم أن اللغة بلا جنس

الصحافة الثقافية العربية  
أحوالها، توجهاتها، علاقتها بالكتاب والقراء



فكر حر وإبداع جديد



# سلامة كيلة مآزق الأيديولوجيا

## الإسلاميون والماركسيون خارج التاريخ

إشكاليات عدة يواجهها الفكر العربي منذ عصر النهضة لا تزال تطل برأسها وتعمق أبعادها حتى بات الحديث عن أزمة الفكر العربي حديثاً معتاداً مكرراً اعتاد المثقفون أن يلوكوه بألسنتهم، فيما يظل الحديث عن تغيير فعلي محض أحلام، لم تنجح حتى ثورات ما أطلق عليه «الربيع العربي» في أن تدفع بالاتجاه نحوها.. أزمتات تعمق وأحلام تتهاوى وأيديولوجيات تتراجع لتحل محلها أخرى ربما تدفع بالأوضاع في المنطقة العربية نحو الأسوأ.

في هذا الحديث مع المفكر الفلسطيني سلامة كيلة، الذي قدّم العديد من الأبحاث والمؤلفات فيما يتعلق بالفكر العربي واليسار على وجه الخصوص، نحاول الولوج إلى الأسباب الكامنة وراء تراجع أيديولوجيات كانت لها الصدارة لتحل محلها أخرى لم تكن مطلباً ثورياً أو فكرياً بأي حال، لكنها شكلت نكوصاً نحو الماضي بعدما صار الواقع بأسئلته الملحة عصياً على التفسير أو الفهم.. نبحت في جذور الأزمات التي تتبدى لنا الآن أوراقها الذابلة لنرى أي سبيل يجب على الأنتلجنسيا العربية ومن ثم الجموع أن تسلكه كي تنجو من أزمتات حاضرها المستعصية.

في كتابه «مشكلات الماركسية في الوطن العربي» يقول كيلة «بعد التاريخ الطويل لانتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ثم اكتساحها ما يقرب من نصف سكان المعمورة تهتز صورتها فلا تعود ذلك المثال النموذج، فيتقهقر الاندفاع العفوي بل إنه يتجه إلى اللاهوت ذاته، إلى الدين حيث أصبح يبدو المثال الممكن الوحيد، بعدما تهاوت الأمثلة وفرغت الجعبة من متاعها الحديث، لتبدو كسرة الخبز القديمة، المتلونة بعفونة القرون، هي الحل، لأنها تشبع معدة فارغة بغض النظر عما ستفعله بعد لحظات».. وها نحن الآن نعيش تلك اللحظات التي تلت تناولنا لذلك «الخبز العفن» ونبحت عن سبل التعافي من ذلك المرض الذي بات ينهش الجسد العربي.

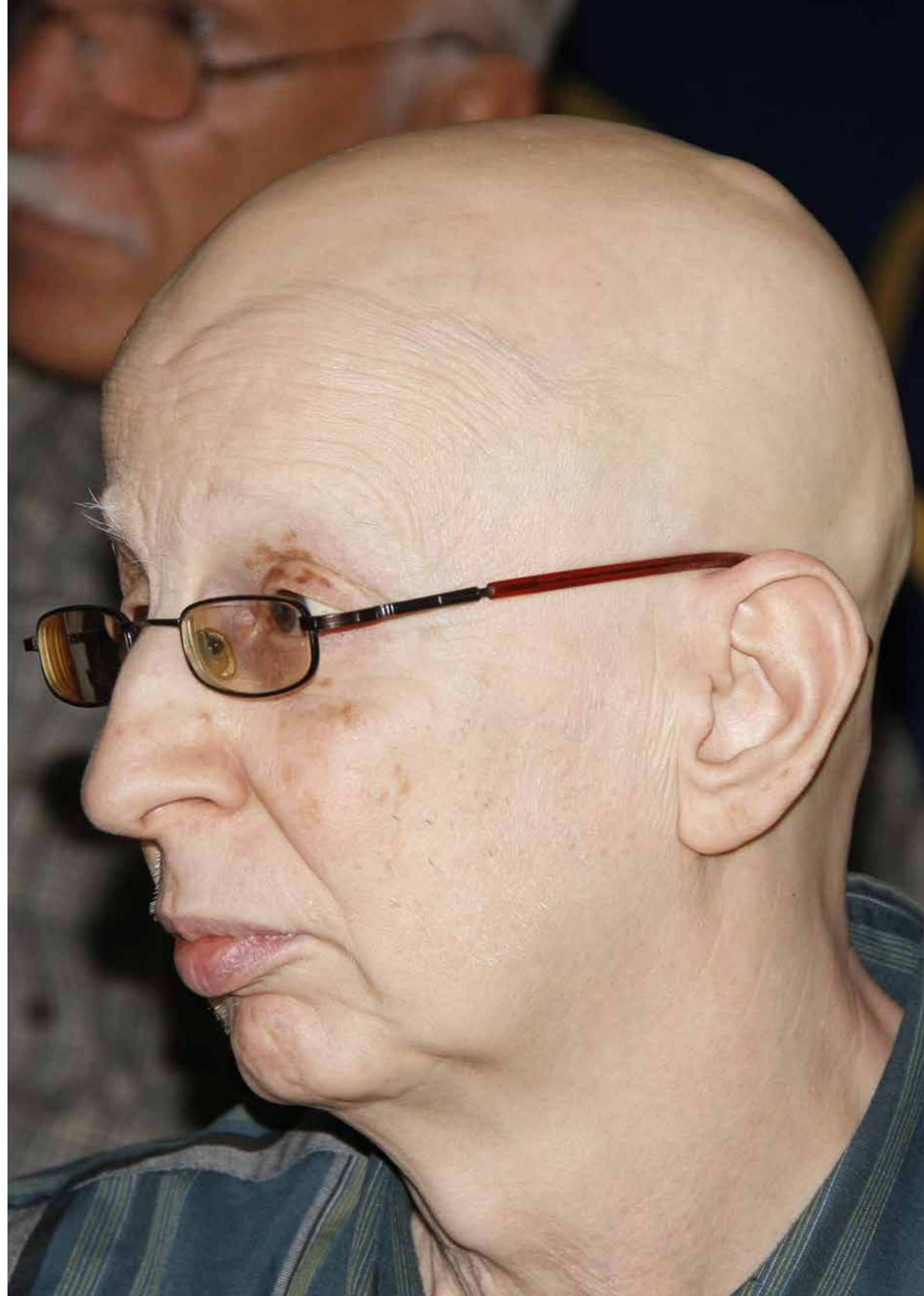
في حوار مع «الجديد» يوضح سلامة كيلة الأسباب التي دفعته للقول بموت اليسار والعوّار الذي أصاب الماركسية «الرائجة» وكيفية تحقيق التقدم انطلاقاً من الحل الماركسي، ثم يقيم شطر التيارات الفكرية الأخرى كالقومية والعلمانية والتجديد الديني للبحث عن أوجه العلل بها، مقدّماً رؤيته للواقع الراهن انطلاقاً من فهم تاريخ الفكر وراهنه.

### قلم التحرير

**كيلة:** كل الأفكار المسبقة التي لم تنتج عن دراسة ظروف ومشكلات الواقع وبالتالي تقديم الحلول التي تخصه هذه هي الأيديولوجيا التي أرفضها. الماركسية تقدم لنا منهجاً يسمح بدراسة الواقع وفهم مشاكله وبالتالي البحث في طرق التطوير، وهنا نحن علينا أن نبني رؤيتنا لهذا الواقع والتي تسمح بنقله لمرحلة مختلفة، أن يحقق التطور الضروري في هذا العصر. المنهج أولاً ولا إمكانية لتحقيق التقدم عبر تطور رأسمالي، ومن ثم على الماركسية أن تبحث في حلول عن كيفية تطوير المجتمع انطلاقاً من فهم مشاكله ودفعه نحو أن يكون مجتمعاً حداًثياً يسير نحو الاشتراكية.

### النهضة المجهضة

**الجديد:** في كتابك «النهضة المجهضة» تؤكد على ضرورة نفي كل الاتجاهات التي تطالب بتبني أيديولوجيا معينة لأنها ستسعى لمطابقة الواقع مع الأيديولوجيا المتبناة مسبقاً وليس دراسة الواقع من أجل فهمه.. ألا يتعارض ذلك مع الدعوة السابقة بضرورة التفكير من خلال الحل الماركسي؟ وكيف يمكن التأسيس للمنهج الذي تدعو إليه من أجل تجاوز أزمت العرب الفكرية؟







## العقل والدين

**الجديد:** تكرر دعواتك لضرورة أن تكون ثقافتنا العربية الجديدة نتاجاً للتفاعل مع الغرب من خلال الاستيعاب وليس النقل، هل من إشكاليات ما قد تترتب على استيراد العلمانية بصورتها في الغرب للمجتمعات العربية دون تغيير؟

**كيلة:** الفكر لا يرتبط بثقافة ما، حينما أخذ الأوروبيون ثقافة ابن رشد لم يقولوا هي خاصة بثقافة عربية لكنهم انطلقوا منها لتأسيس فلسفتهم. لا نستطيع أن نقول إن العلمانية هي اختراع أوروبي، على العكس من ذلك، حين ندرس تطور الفكر نرى أنه في نهاية الدولة العباسية دار صراع أساسي بين الإيمان والإلحاد، ورد الفكر الأصولي الإسلامي بالحرب ضد الفلسفة، وهذا ما قام به الإمام أبو حامد الغزالي حينما حزم الفلسفة وصارت العلوم هي علوم الدين. بعد قرن من الزمان رد على ذلك ابن رشد معتبراً أنه لا تعارض أو تناقض بين العقل والنقل، بين الفلسفة والدين، على العكس من ذلك هما شكلان لحقيقة واحدة. هنا ابن رشد وضع العقل في مواجهة الدين، هذه الفكرة هي التي تطوّرت في أوروبا وأسست العقلانية، لأن المدرسة الرشدية هي التي أسست هذا الفاصل والتي فرضت بالضرورة الوصول إلى العلمانية. من هذا المنظور ليس هناك علمانية يمكن أن نخترعها من تراثنا، وبالتالي علينا أن ننتقل من هذا التراكم الفكري الذي تحقق في أوروبا.

طبعا هناك تشدد في العلمانية في بعض البلدان مثل تركيا وفرنسا، سبب التشدد هو أن الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا بالأساس كانت شرسة في مواجهة الحداثة فأصبح رد فعل الحداثة هو كيف نحجم ذبوع الدين، وأصبح هناك اقتحام حتى المجال الشخصي للناس، هنا إشكالية تخط بين الإلحاد والعلمانية، في الواقع فصل الدين عن الدولة هو أساس ضروري في أي دولة حديثة.

ملحدون وعلمانيون

**الجديد:** ولكن هل تعتقد بأن هناك فهماً صحيحاً للعلمانية لدى مثقفي العالم العربي؟ أليست العلمانية كما يطرحها كثير من المثقفين متصادمة مع الثقافات المحلية للشعوب العربية خصوصاً ما يتعلق بالهوية والدين؟

كبيرة بيد الدولة، وبدأت فئات تنهب الثروة وهذا ما سُمّي بالفساد، الأمر الذي أدى لنشوء رأسماليات جديدة من هذه الفئات، لهذا أشرت إلى أن أزمة ذلك التيار هي أزمة الفئات الاجتماعية التي حكمت أكثر منها أزمة فكر. على العكس من ذلك، كان الفكر يعبر عن أزمة هذه الأحزاب التي طرحت القومية لكنها أرادت التملك الخاص، لهذا تحولت الأفكار الكبيرة إلى شعارات لأن الأولوية لديها كيف ترتقي طبقياً وتحصل على الأموال من الدولة التي تحكمها وتغطي نفسها بشعارات ونظام سياسي، هذا هو جوهر إشكالية الفكرة القومية التي كانت مرتبطة بنفي الإقطاع وتحولت إلى شعار يغطي ميلها لتكون فئات مالكة وليست معنية بالحرية.

أما بخصوص فكرة الإحياء في الوقت الراهن، فالمسألة القومية مسألة واقعية بالمنطقة العربية، الوطن العربي وطن مفكك ومجزأ له تاريخ، هناك لغة واحدة، وثقافة تكونت عبر التاريخ، كل هذه العناصر جزء من تكوين الشعب العربي. لهذا عندما كان أي شخص يريد تقديم مشروع تقدّمي كان ذلك من خلال المشروع القومي، وهذا ما فعله محمد علي باشا في محاولة تحقيق سوق عربية. المسألة القومية هي جزء من وضع الناس وبالتالي عندما نتحدث عن التقدم والتطوير الاقتصادي بالضرورة لا بد أن تطرح المسألة القومية لأنه لا إمكانية لبناء صناعة في أي دولة عربية دون سوق كبيرة، يرتبط الشعور القومي بالمشروع المستقبلي المتعلق بأن تطورنا وتحقيق استقلالنا متعلق بأن تصبح هذه المنطقة مرتبطة.

في جانب آخر، وفي سياق تطور الهويات بالمنطقة بالتأكيد كانت في مرحلة الهوية الدينية هي الطاغية لأن الأيديولوجيا التي تعقمت هي الإسلام وبالتالي أصبحت الهوية إسلامية،

وكان يجب إخضاع القوميات الأخرى ليس فقط بالدين ولكن بالأيديولوجيا.

أصبح الإسلام هو الإطار الموحد كبديل عن القوميات، رغم أن شعور القومية ظل ينخر حتى المنظورات الدينية. مع الميل للنشوء الحديث أصبح واضحاً أن المنظور الديني كهوية انتهى وبالتالي أصبح المنظور القومي كهوية هو الأساس، وهذا ما حدث في أوروبا بالأساس، وقام النظام العالمي على أساس الأمة، تصبح مسألة تحديد الهوية من منظور قومي هي الأساس والدين يكون شأنًا شخصيًا ومن هنا تطرح مسألة العلمانية.

من جماعة الإخوان المسلمين، بالتالي هي فكرة جاءت في لحظة أمام هزيمة 67 وهزيمة المقاومة الفلسطينية في الأردن، كان فيها تراجع ليسار وميل من بعض اليساريين الذين شعروا أنهم لم يفهموا التاريخ أو وعي الشعب فعادوا للتراث العربي الإسلامي كي يفهموا التاريخ وواقع الشعب مثل حسن حنفي وطيب تيزيني ومحمود إسماعيل وحسين مروة وغيرهم.

## تجارب ريفية

**الجديد:** في حديثك عن التيارات القومية العربية، قلت إن الأهداف القومية تحولت إلى شعارات وغدت المفاهيم القومية جزءاً من مركب ذهني غير واقعي.. إلأم ترجع إخفاق التيار القومي العربي؟ هل هناك قصور في منطلقاته الفكرية أم أن البيئة العربية ليست مناسبة له؟ وهل تعتقد بضرورة إحياء التيار القومي لمواجهة فكر الإسلام السياسي والمآلات المأساوية التي ترتبت عليه؟

**كيلة:** المسألة لا تتعلق فقط بالأفكار، تتعلق بمصالح الفئات الاجتماعية التي أسست هذا التيار. التيار القومي العربي كان له شقان: البعث وجمال عبدالناصر، البعث حزب تأسس في أربعينات القرن العشرين ومؤسسه كانوا شيوعيين واختلفوا مع الحزب الشيوعي اللبناني في نقطتين؛ الوحدة العربية والعلاقة مع الاستعمار. من هذا المنظور تأسس تيار فكري خليط من جهة هو اشتراكي لكنه اعتبر القومية هي الأساس، هذا الفكر تغلغل لدى فئات وسطى مدنية وبالأخص ريفية وبالتالي تغلغل في الجيش عبر هذه الطبقات الريفية، وهنا مجال التشابه مع التجربة الناصرية فكان عبدالناصر ليس عضواً بالحزب لكنه يعبر عن طابع الضباط الريفي، يعبر عن أزمة الريف نفسها.

المشكلة في هذه التجارب أنها عبرت عن تجارب ريفية تريد نفي الماضي الإقطاعي أو شبه الإقطاعي الذي كان يتحكم بها، لكنها كانت تريد الحصول على الأرض والارتقاء الطبقي حينما وصلت إلى السلطة وبالتالي الوصول السريع إلى الثورة والتحول إلى فئات رأسمالية جديدة، من هذا المنظور حققت إصلاحاً زراعياً وقطاعاً عاماً واسعاً وتعليماً واسعاً ومركز ثروة

**الجديد:** هل ثمة أفكار من اليسار تعتقد بضرورة التخلي عنها في الوقت الراهن انطلاقاً من رؤيتك لمشاكل الواقع وطبيعة تغيره؟

**كيلة:** كل الماركسية الرائجة أعتبرها خارج التاريخ، وبالتالي لم تقدم ما هو مهم وركزت على الجانب السياسي في الصراعات، وراهنّت على تطور الرأسمالية وأن يتحقق التطور في ظل رأسمالية وهذا مشروع وهمي. الآن يعاد نفس الكلام الذي كان يقال منذ سنوات ويعتبر أن الديمقراطية هي التي تجلب التطور رغم أنه لا إمكانية لديمقراطية في مجتمع ريعي يهيمن عليه بنى مجتمعية لم تتطور بما يسمح بأن تمتلك مصيرها في الإطار الديمقراطي فتنتخب دوماً من يعبر عن مصالحها رغم أنها الآن تمتلك طريقها في الإطار الثوري.

لا إمكانية للأحزاب اليسارية القديمة أن تعيد بناء ذاتها لأن عقلها دوغمائي، وهي أحزاب هرمة ويهرب منها الشباب، لكننا نلمس أن الثورات فتحت أفقاً للشباب وجد أنه صنع حدثاً تاريخياً، فبدأ يشعر أن عليه أن يلعب الدور. هذا المناخ هو الذي سينتج يساراً أكثر عمقاً ومعرفة.

## اليسار الإسلامي

**الجديد:** في السبعينات من القرن الماضي برز تيار أطلق على نفسه «اليسار الإسلامي» حاول الجمع بين مبادئ الإسلام وأفكار اليسار.. ما هي إشكاليات ذلك التيار برأيك؟ وإلى أي مدى تعتقد بنجاحه فيما سبق أو إمكانية نجاحه مستقبلاً؟



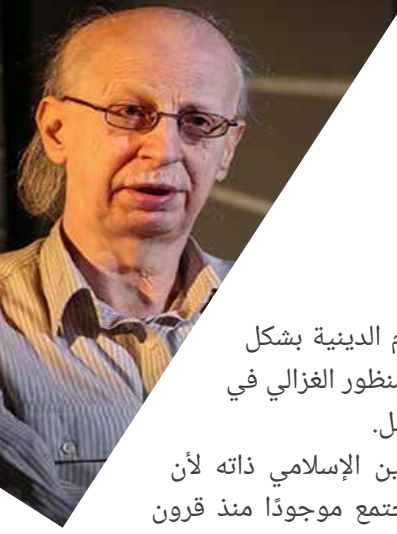
**الماركسية الرائجة أعتبرها خارج التاريخ، وبالتالي لم تقدم ما هو مهم وركزت على الجانب السياسي في الصراعات**

**لا إمكانية للأحزاب اليسارية القديمة أن تعيد بناء ذاتها لأن عقلها دوغمائي**



**كيلة:** كان هذا التيار ظاهرة محدودة، بعضها من منظور براغماتي أكثر منه عميقاً. وعملياً انتهت كل هذه الأفكار، لأن الإسلام منظور ليس عقائدياً فقط لكنه مشروع مجتمعي محدد بنص قرآني مجرد أن يتحول إلى السياسة سيلتزم بالنص القرآني لأنه لا اجتهاد لما فيه نص، وبالتالي أي تفسير سيسقط بالضرورة أمام فقهاء الإسلام المكرسين عملياً للدفاع عن النص والأسس القديمة، مثلاً راشد الغنوشي انتهى أصولياً عندما وصل إلى السلطة مثل غيره





**كيلة:** في العالم العربي هناك ملحدون وليس علمانيين، للأسف عدد من يطرحون الفكرة العلمانية بشكلها الصحيح محدود، لهذا نلاحظ الفكر الإلحادي وهو ردة فعل معاكسة للدين. الميل المتشدد للأصولية والتيارات الإرهابية والإسلام السياسي ينتج عنهم رد فعل طبيعي لدى الشباب معاد للدين، وبالتالي هذا التيار يخدم التيار الديني المتشدد وليس العكس، لأن الإلحاد هو الانطلاق من فكرة الله، الدين يقول هناك إله بينما يقول الملحد ليس هناك إله، وبالتالي المعركة في هذا الجانب هي معركة وهمية لأن الإشكال في المجتمع ليس في الدين.

من هذا المنظور يحصر النقاش في فكر الدين ويجري تجاهل كل الإشكاليات، هو تيار يخدم استمرار هذا الشكل من الصراع حول فكرة الدين. المشكلة الأساسية لدينا في العالم العربي في الظروف المجتمعية الصعبة، ولم يكن الدين هو السبب الأساسي الذي تسبب في ذبوع انتشار الإسلام السياسي كما شرحت آنفاً. نحن لازلنا في منطقة ردود الأفعال ولازلنا نفكر بمنطق القرون الوسطى، منطق أرسطو: الخير والشر، مع أو ضد، وبالتالي هناك دائماً هويتان متصارعتان، هذه إشكالية العقل العربي إلى الآن فهو لا زال يعيش كما السلفيين، وكان الفكر الماركسي القديم واقعا في نفس الإشكالية في التعامل من منطق ردود الأفعال. العقل العربي محكوم بمنطق القياس، لديه فكرة يريد أن يخضع الواقع لها، إما بالدين لدى التيارات الإسلامية أو بأفكار لدى التيارات الأخرى، نحن نعيش بالفكر الذي تبلور مع نهاية الدولة العباسية، حتى الدين الذي نعرفه هو الذي تبلور في تلك الفترة وأسس لفكرة خذوا الحقائق من الألفاظ، هذا أسس لتحول الدولة إلى دين شكلي، وجاء إلينا ابن تيمية وخير الدين التونسي بفتاوى هائلة تحزم كل شيء، هذا الدين الذي وصلنا هو دين الانهيار ولا زلنا نعيش في هذه المرحلة.

#### إشكاليات التجديد

**الجديد:** كيف ننظر لمشاريع التحديث الداعية لتأسيس حداثة إنسانية إنطلاقاً من مبادئ الدين الذي يقدم له قراءة جديدة معاصرة؟ هل يمكن أن تساهم تيارات الإصلاح الديني التوفيقية في الخروج من مأزق الفكر العربي؟

**كيلة:** المشكلة بهذا الموضوع هل يجب أن نبقي داخل إطار الفكر الإسلامي أم نعتبر أن هناك تطوُّراً

حدث ويجب أن نتجاوز هذا الفكر؟ هذه إشكالية كل التيارات التجديدية، وهي أنها تبقى الفكر والمنظور المنهجي الذي حكم هذا الفكر بالأساس وتحاول أن تناور عبر التأويل، ولكن كل هذا خارج الفكر الحديث، وبالتالي نظل ندور داخل نفس الدائرة، وفي هذه الدائرة يكون أي أصولي هو أكثر قوة من أي تجديدي من هؤلاء لأنه يعود إلى النص وضرورة التقيد به.

الفكر الإسلامي أصبح متجاوزاً بالضرورة، التجديد يعني أن نعود إلى الماضي ونبحث في الماضي وهذا أمر سيقينا في إطار الماضي ولن يسمح لنا بأن ننطو، لا أستطيع مثلاً أن ألغي منظور الدين الإسلامي للمرأة لأنه واضح في النص، ما فعله شخص مثل محمد شحرور عندما أعطى تصوراً مختلفاً وفهماً جديداً للدين لن يقتنع به أحد خصوصاً عندما يأتي أحدهم ويثبت عكسه بنص. لقد ضاع وقت طويل في الحديث عن التجديد باعتقادي دون فائدة.

#### موضة بلا مستقبل

**الجديد:** لكن أليس لهذه التيارات التجديدية أهمية ما فيما يتعلق بإعادة بناء وعي المجتمعات وفهمها للدين في إطار حدائي بعيداً عن المنظور السائد الذي بات غير مناسب للواقع؟

**كيلة:** ممكن جزئياً في بعض المسائل أن تلعب هذه التيارات دوراً في محاولة خلخلة الوعي التقليدي، وبالتالي تفتح أفقاً عند الناس أن تفكر بمنطق مختلف سواء في إطار الدين أو غير الدين، لكن هل ذلك يستدعي أن نحصر المناقشات لأكثر من عقود في هذه النقطة وكأنها هي الحل لكل شيء فيما كانت ولا تزال تتفاقم المشاكل المجتمعية والسياسية وغيرها. المشكلة هنا أن هذا الأمر أصبح «موضة» وكل شخص يتحدث في هذا الأمر لأن الإعلام يهتم به ومن هنا نحن ندفع الناس للاهتمام بشيء ليس هو الأساس أو الأهم بالنسبة إليهم.

#### حلول وسط

**الجديد:** لماذا ظل الفكر العربي عاجزاً عن تأسيس وعي مطابق «جماهيري» على مدار تاريخه؟ وما السبيل نحو تحقيق ذلك برأيك؟

**كيلة:** في المنطقة العربية مع الأسف

كل ما طرح مع نهاية القرن التاسع عشر لم يحمل على مصالح طبقة برجوازية هو أصلاً يعبر عنها، هذا إشكال السيطرة الاستعمارية التي فرضت أن يتحوّل تراكم الرأسمال الموجود لدى كبار ملاك الأرض، فبدل أن يذهب إلى الصناعة ذهب إلى التجارة والخدمات، وبالتالي لم يؤسس مجتمعاً بديلاً لأن ما يؤسس ذلك المجتمع البديل هو تغيير النمط الاقتصادي كله إلى نمط صناعي حديث، ما جعل هذه البرجوازية التي حاولت الاستقلال عن الاستعمار لا تحمل هذا المشروع وتريد السلطة لتعزز مصالحها ولا تريد أن تؤسس صناعة حقيقية أو مجتمعاً حقيقياً. على العكس من ذلك كانت تدعم الميول الأصولية وتريد أن يبقى المجتمع بشكله التقليدي وأن يتقدم جزئياً في بعض الزوايا التي تحقق مصالحها. من هذا المنظور هذا الفكر تهمش، أتت الأحزاب القومية بحل وسط، وشكّلت دولة مختلطة من العنصرين فيها شيء من الحداثة وفيها كثير من التقليد، أرادت تغيير الواقع لكن إلى حسابها. ومن ثم دمرت التجربة نفسها.

#### الميل الأصولي

**الجديد:** في الوقت الراهن يشكل الإرهاب الخطر الأكبر على العالم فيما يتم تعزيز أطروحات تؤكد أن التنظيمات الإرهابية هي نتاج ثقافة العنف الموجودة في الفكر العربي. هل تتفق مع تلك الأطروحات؟ أم أن هناك أبعاداً أخرى ترى أنها تسببت في تغول تلك الظاهرة؟ وما السبيل لمواجهتها فكرياً وثقافياً؟

**كيلة:** حينما نتحدث عن الإرهاب يجب أن نرى الظاهرة كشيء مركّب، وهذه مسألة جوهرية. هل في الإسلام عناصر تشير لما يمارس من قبل هذه التيارات؟ في كل التاريخ القديم كانت هناك ميول للعنف من قبل النظم، لم يكن هناك مفهوم اسمه ديمقراطية أو حقوق إنسان أو قيم المجتمع التي تبلورت في عصر النهضة وبالتالي فبالضرورة في أي قانون سنلمس وجود جملة هذه العناصر في العقاب والأحكام، وبالتالي في ذلك الوقت كانت هذه هي القوانين السائدة وكان هذا الوعي المجتمعي هو المستوى الذي يصله.

حينما نبحث في الوضع الآن، يجب أن نلمس الظواهر بدقة شديدة، هناك تيارات تميل للعنف؛ تيارات فكرية مثل الوهابية التي هي أساس مجمل التيارات

الإرهابية، هناك ميل لتطبيق الأحكام الدينية بشكل ميكانيكي فظ، وعودة لابن تيمية ومنظور الغزالي في تبسيط مبادئ الدين كما أشرت من قبل.

الظاهرة القائمة الآن لا تتعلق بالدين الإسلامي ذاته لأن الدين الإسلامي أيضاً كان في المجتمع موجوداً منذ قرون طويلة وكان هناك تعايش مجتمعي ولم تكن هذه الظاهرة موجودة، حتى حينما كان يشار لصراع طائفي كان البحث في الظاهرة يشير إلى أنه خلف هذا الصراع بعض المصالح التطبيقية والصراعات العشائرية وبالتالي الدين كان يؤخذ كشكل ما، غطاء ما لحالة واقعية.

مع الأسف هناك العديد من الدول التي عملت على تعميم الميل الأصولي المتخلف في الدين منذ سبعينات القرن الماضي، كان تعميم الوهابية عنصراً أساسياً في فكر بعض الدول التي كانت تريد أن تدمر كل الفكر القديم وكانت تريد أن تهيمن أيديولوجيا على المجتمع العربي عبر هيمنة الوهابية التي كانت تدفع باتجاه الميل العنيف للهيمنة على المجتمع.

هذا الشكل من الدين أداة لعب بأيدي أجهزة مخابرات، والجماعات الإرهابية من القاعدة إلى داعش وغيرها هي اختراع أجهزة مخابرات لكن مع انهيار الوضع الاقتصادي المعيشي والتعليمي والتهميش في مناطق اجتماعية معينة كان من السهل أن يستقطب العديد من الشباب في حالة صنعها أجهزة أمنية ولم تصنع من هؤلاء الناس، لم تكن الظاهرة نتاجاً واقعياً مجتمعياً بالأساس، إنما كانت فعلاً خارجياً استقطب قطاعات شبابية.

الآن يجب أن نبحث في هذه الظاهرة من منظور سوسيولوجي وليس من منظور ديني، لأن الشباب البسيط المهمش الذي يريد أن ينتحر من أجل الجنة، حينما نحلل الأمر نفسياً نجد أن هذا الأمر هوس جنسي لأن البيئة التي يعيش فيها هي بيئة قهر وكبت في مجتمع عالمي مفتوح، الحل لدى هذا الشخص أن يوهم نفسه أن هناك جنة يفجر نفسه من أجل الوصول إليها.

هناك أيضاً فئات مهمشة تريد أن تظهر في الصورة، في الخمسينات والستينات من القرن الماضي كانت الفئات المهمشة تذهب نحو اليسار الذي كان الظاهرة البارزة الموجودة بالصورة، لهذا نجد أن الإعلام الغربي والإعلام العربي بشكل واسع ركز

هناك العديد من الدول التي عملت على تعميم الميل الأصولي المتخلف في الدين منذ سبعينات القرن الماضي

نحن ندفع الناس للاهتمام بشيء ليس هو الأساس أو الأهم بالنسبة إليهم





على هذه التنظيمات، هذا الجوّ يسمح لبعض الفئات المهمشة أن تعتقد بأن وجودها هنا يحقق لها ذاتها. من ثم المشكلة لا تتعلق بمحاربة التطرف. ينبغي عدم دعم الأصولية المتخلفة في الدين وأن يصبح هناك فعل لدمج الفئات المهمشة في الصراع الواقعي المجتمعي وهنا يأتي دور اليسار بالأساس.

## صراع مجتمعي

**الجديد:** ماذا عن القول بأن الثقافة العربية تحمل جذور العنف بداخلها؟

**كيلة:** هذه إشكالية مطلوب أن نقنع بها نحن بينما هي غير موجودة في الواقع، لو كانت هناك بنية عنيفة لكان المجتمع العربي تدمر منذ مئات السنين. في مصر نشأت ظاهرة الصراع الطائفي والأصولي في الفترة من العشرينات إلى الخمسينات من القرن الماضي عن طريق الإخوان المسلمين بدعم من القصر والإنكليز، ورغم ذلك كان اليسار يهيمن أكثر. منذ السبعينات القرن العشرين بدأ الحشد في هذا الاتجاه، بالتالي بدأ الصراع الحقيقي في تلك الفترة، إذا كان الوعي المجتمعي في عشرينات القرن الماضي أبسط كثيرا منه في سبعيناته ولم يحدث صراع طائفي، لماذا حدث بعد ذلك؟ لأن هناك فعلاً مقصوداً، المجتمعات العربية الريفية علاقتها بالدين ليست متعصبة، هناك تسامح كبير بالدين والمجتمع العربي كان في الغالب ريفياً، كان هناك ميل للتشدد الديني في الفئات التجارية المدنية لكنها كانت محصورة في دائرة المدن لذا كانت هي قاعدة الإسلام السياسي. أيضاً في الإسلام توجد آيات بها تشدد وهناك آيات بها مرونة وبالتالي كيفية استخدام الآيات يتعلق بمنظور مسبق لدى الفئات التي توظف هذه الآيات، من هذا المنظور يجب أن ننظر للمسألة من زاوية الصراع المجتمعي القائم وليس من منظور الإسلام كدين أو ثقافة.

**الجديد:** في ظل التحولات العاصفة التي تمر بها المنطقة العربية وتساهم في تحريكها قوى غربية، هل يمكن الحديث عن دور ما يمكن للمثقف أن يضطلع به في تلك الفترة؟ وكيف يمكن التأسيس لجهود ثقافي جمعي في ظل حالة الشتات والخلاف بين أفراد النخب العربية؟

**كيلة:** السؤال هو أي مثقف نقصد؟ كلمة مثقف عامة وفوق التيارات الفكرية أيضاً لأن هناك مثقفا يدافع عن مافيا الفئات الحاكمة، ومثقفا يعتبر أن الليبرالية هي الحل الأساسي بينما هي التي دمرت مجتمعاتنا، وهناك مثقف يحاول أن يطرح مشروعا وهمياً، فأَي مثقف يجب أن نتحدث عنه؟ أولاً: تطوير الثقافة والوعي الفكري من المسائل الضرورية المهمة وهي ناقصة في مجتمعاتنا العربية، ثانياً المثقف الذي يستطيع أن يلعب دوراً هو الذي يرتبط بواقع الناس ويستطيع أن يفهم مشكلاتهم ويطرح تصورات حقيقية لمشكلات المجتمع في مستوياته المتعددة، كل هذا من دور المثقف الذي يجب أن يعبر عن فئات المجتمع. للأسف هذا التيار ضعيف لأن اليسار القديم لم يستطع أن يلعب دوراً لكن نأمل أن تكون الثورات العربية قد حركت فئات من الشباب لتؤسس لثقافة مختلفة ووعي مختلف، وأعتقد بأن الفترة القادمة ستشهد ذلك من خلال طرح مشروع بديل حقيقي وإقناع الناس بهذا المشروع لتحقيق تغيير حقيقي في المجتمع، ومن المفترض أن يصير هناك توحيد لتلك الجهود لأنه لا بديل عن ذلك.

## قضية المعرفة

**الجديد:** تلك الثورات التي نعول عليها في خلق تيار ثقافي بديل لم تكن سبباً لتوحيد جهود الأنتلجنسيا العربية بل أثبتت فشلها في أن تقوم بدور حقيقي في عملية التغيير. كيف تنظر إلى المسألة؟

**كيلة:** لم تكن هناك نخب ثقافية حقيقية موجودة، النمط الثقافي الذي كان سائداً عند المثقفين لم يكن يفهم الواقع جيداً، كان هناك استعلاء ما على الناس، هناك عيش في برج عاجي يجعل المثقف يفكر فيما هو بعيد عن المجتمع، قلة من بقيت تحاول أن تدافع عن الناس، لكن ما أعتقد بأنه أساسي المثقف الذي يمكن أن يتبلور في المرحلة القادمة لأن هناك الآن أجيالا من الشباب بدأت في تشكيل وعيها انطلاقاً من أسئلة الواقع ليس فقط من الكتب، الآن من يقرأ كتاباً من الشباب يريد أن يجيب على أسئلته لا أن يعرف فقط، والفرق بين المعرفة وإنتاج الفكر مسافة كبيرة، هذه المرحلة هي التي يمكن أن تنتج

لو كانت هناك بنية عنيفة لكان المجتمع العربي تدمر منذ مئات السنين

النمط الثقافي الذي كان سائداً عند المثقفين لم يكن يفهم الواقع جيداً

فكراً مختلفاً وتنتج نخباً من المثقفين على كافة الأصعدة، أهم ما حققته الثورات أنها أطلقت ميلاً شديداً لدى الشباب للمعرفة والبحث عن إجابات لأسئلة الواقع وهذه أهم مسألة لأي إنتاج فكري.

## أسلمة التحولات

**الجديد:** انفجارات «الربيع العربي» بدت فرصة سانحة أمام اليسار كي ينهض من كبوته. فلماذا فشل اليسار العربي في أن يتصدر المشهد فيما نجح تيار الإسلام السياسي؟

**كيلة:** لأمر يتعلق بالظروف التي سبقت الانتفاضات العربية، من يشاهد الوضع العربي منذ سبعينات القرن الماضي؛ التحولات التي جرت في الأنظمة التي كانت تعتبر ذاتها يسارية أو اشتراكية نحو تعميم الليبرالية، والتصالح مع العدو الصهيوني ثم بعد ذلك انهيار الاتحاد السوفييتي. كل ذلك كان يشير إلى أن الموجة التي بدأت منذ أربعينات القرن الماضي وتوسعت في الخمسينات منه والتي أظهرت أن اليسار قوة أساسية سيطرت، تلك الموجة انكسرت. والأنظمة التي ادعت اليسارية انهارت وأصبحت ليبرالية بالأساس، والأحزاب التي اعتبرت نفسها يسارية كانت قد انهارت أو ضعفت إلى حد كبير مع هذه الأنظمة. لهذا كان واضحاً منذ سبعينات القرن العشرين أن اليسار يتراجع، ثم جاء انهيار الاتحاد السوفييتي كي يضع أساساً أكبر لتوضيح انهيار هذا اليسار وتلاشيه تقريبا وتحوله إلى أحزاب صغيرة.

في المقابل بدأت موجة الأصولية في سبعينات القرن الماضي أيضاً عبر دعم الأنظمة، وعبر أيضاً ميل لتعميم الليبرالية قام على أساس تدمير التعليم، وبالتالي تسطيح ثقافة الأجيال الجديدة إلى حد أن الأجيال التي ظهرت في تسعينات القرن الماضي وبداية القرن الجديد كانت ضعيفة الثقافة للغاية، وأصبح هناك هروب من التعليم أصلاً، وعادت الأمية لدى قطاع كبير في المجتمعات، ارتبط ذلك بميل بعض المجموعات الإسلامية لأن تلعب دوراً سياسياً في فلسطين بالأساس؛ حركة حماس التي ظهرت كأنها البديل عن المقاومة السياسي بعد أن كان قد تلاشى في

السنوات السابقة، ثم أتت أحداث 11 سبتمبر 2001 لتظهر كأن الإسلام السياسي مناهض لأميركا، في نفس الوقت الذي بدأت تنظيمات الإسلام السياسي تلعب على وتر الديمقراطية.

في هذا الوضع كان واضحاً أن هناك قطاعاً مجتمعياً قد تأسلم مع انهيار التعليم وانهيار الوضع الاقتصادي، وأن الإسلام السياسي بدأ يتخذ شكل اليسار القديم حيث بدأ يظهر كمعاد للإمبريالية، معاد للدولة الصهيونية ومعاد للأنظمة وأنه ديمقراطي، وأصبحت هناك صورة حول الإسلام السياسي هي بالأساس صورة للياسر، من هذا المنظور كان يتوقع أن يتصدر الإسلام السياسي المشهد مع قيام الثورات العربية.

ومع الأسف لعبت قطاعات من اليسار دوراً أساسياً للترويج لهذا الإسلام السياسي والتحالف معه، من هنا جاء انتصار الإسلام السياسي خصوصاً أن الثورات أوضحت أن اليسار قد مات لأنه لم يتوقع الثورات أصلاً، بعضه شارك لكن بشكل شكلي جدا وبعضه وقف ضد الثورات، ومن ثم كان أمام الناس التي شاركت في الانتخابات أن الإسلام السياسي برمزيته وبشكله الذي تبلور في العقود السابقة يمكن أن يحمل لها بعض الحلول، لذلك نجح الإسلام السياسي في أحد عناصره نتيجة هذه الرمزية، رغم أن الأمور كانت أبعد من ذلك، فالنظم القديمة أيضاً دعمت نجاح الإسلام السياسي لأنها كانت تريد أن تقيم صفقة بين وجودها وبين الإسلام السياسي من أجل تجديد النظام السياسي وليس من أجل تغييره.

## يسار بلا رؤية

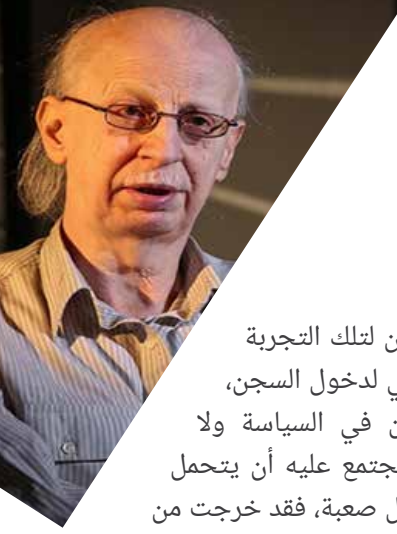
**الجديد:** لكن ألم يكن المناخ الذي وفّرت الانتفاضات العربية من حرية ورغبة في التغيير فرصة للمّ شتات اليسار ولو بالقدر اليسير؟

**كيلة:** للأسف حينما قلت إن اليسار قد مات كنت أقصد هذه الكلمة، اليسار أصبح لا يمتلك رؤية حقيقية للواقع، أصبح يعيش بأوهام ثقافية أو سياسية تجعله بعيداً عن حركة الشارع والصراع الواقعي، لهذا عندما ندرس وضع اليسار بعد الثورات نجد أنه كان يحكمه مساران أو خياران: خيار أول يتعلق بالتحول إلى الليبرالية أو التركيز على الديمقراطية

أصبح هناك هروب من التعليم أصلاً، وعادت الأمية لدى قطاع كبير في المجتمعات

كان واضحاً أن هناك قطاعاً مجتمعياً قد تأسلم مع انهيار التعليم وانهيار الوضع الاقتصادي





وبالتالي اعتبار الديمقراطية هي أساس نشاطه، وهنا كان يبتعد عن الناس لأنهم كانوا يعيشون وضغاً انهيارياً على المستوى الثقافي والتعليمي ويعيشون أزمة مجتمعية بكل معنى الكلمة، بينما اليسار كان يركز على الديمقراطية والحرية وهي مبادئ تتعلق بمصالح فئة وسطى تريد أن تلعب دوراً ما في الشأن العام والسياسي، هذا الشق كان بعيداً عن واقع الصراع. الخيار الآخر كان التركيز على شعارات كبيرة كالصراع ضد الإمبريالية، وبالتالي تحوّل نشاطه إلى شعارات بعيدة عن الواقع ذاته، فركز على ما هو خارجي وبعيد دون أن يلمس المشكلات المجتمعية. من هذا المنظور كان اليسار بشقيّه لا يعي الواقع أو مشكلات الناس ولا يعتقد بأن الناس من الممكن أن تقوم بثورة، وهذا ما كنت قد ناقشته مع تيارات اليسار في ذلك الوقت، حاول البعض أن يللم ذاته ولكن بقي محكوماً بأحد الخيارين، وظل مقطوع الصلة مع الأزمة المجتمعية العميقة التي تتمثل بالأساس في النمط الاقتصادي المهيمن في المجتمع.

#### رأسمالية بلا صناعة

**الجديد:** في كتابك «مشكلات الماركسية في الوطن العربي» قلت إن «كل الحلول التي تبحث في الاستقلال والتقدم خارج إطار الحل الماركسي غير ممكنة ولا تعدو أن تكون وهماً، والحل الماركسي هو الحل الوحيد الممكن، ولا يمكن تحقيق التقدم إلا في إطار البحث في طريق الوصول إلى الاشتراكية..» ما الذي يجعلك تقصر عملية التغيير والتقدم في الوطن العربي على الرؤية الماركسية في ظل الأزمات التي عانتها ولا تزال تعانيها في سيرورتها التاريخية؟

**كيلة:** حين نبحث في مشكلات الواقع الاقتصادية، نجد أن النمط الاقتصادي العالمي فرض تشابهاً كبيراً في أوضاع المجتمعات، كيف يمكن أن نحل مشكلة مثل البطالة؟ يجب أن تنتج وسائل اقتصادية تستوعب البطالة، وبما أن الصناعة تستوعب الحجم الأكبر من العمالة ينبغي أن تكون السياسة المثبتة توسيع بناء الصناعة، هنا يطرح السؤال: هل الرأسمالية الحاكمة معنية بتطوير الصناعة؟ ما ظهر في السنوات الماضية أن تلك الرأسمالية هي التي دمّرت الصناعة، ولا توجد

فئات رأسمالية أخرى يمكن أن تحمل مشروغاً صناعياً، وحينما فكّر بعضهم مثل طلعت حرب انتهت التجربة وهزمت، يجب أن يكون بناء الصناعة خارج إطار الاقتصاد المفتوح. مع قيام الصناعة لا بد من حلّ مشكلة الفقر وإعادة بناء المجتمع على أساس يعطي للناس حقوقهم.

**الجديد:** تقصد أن الجانب الاقتصادي الذي تطرحه الماركسية هو الخطوة الأولى نحو التقدم؟

**كيلة:** بناء الصناعة حجر أساس، لكن القصة ليست أولاً وثانياً في التطور التاريخي إلا في إطار محاولات التطور العام، إذا أصبح هناك نظام معني بتطوير الصناعة وبنائها وتغيير مجتمعي لا بد أن يعمل على إعادة بناء نظام التعليم، أيضاً سيكون مطلوباً البحث في سبل تطوير الزراعة لأننا نحتاج أن نعيش في زراعات لا أن نستورد حتى الخبز، المسألة شاملة لكن النقطة الأساسية تتمركز حول كيفية بناء قوى إنتاج تسمح بتحسّن أوضاع الناس.

#### مرحلة النهوض

**الجديد:** أنت صاحب تجربة فكرية ثرية. ولدت في فلسطين وتنقلت بين عواصم عربية عدة. ما الذي منحك إياه النشأة في فلسطين ثم التنقل ما بين بغداد وعمان ودمشق والقاهرة؟ أيّ عوالم جديدة اكتسبتها ثقافتك مع كل ترحال إلى بلد عربي؟

**كيلة:** ولدت في مدينة بير زيت في فلسطين، عشت في مرحلة نهوض تحرري عربي، والذي كان يعتبر نفسه ناصرياً رغم أنه لم ينتم للحزب، اللحظة التي شعرت فيها أنني تحولت من طفل إلى رجل هي لحظة هزيمة 5 يونيو/ حزيران، كان عمري آنذاك 12 عامًا، عشت بداية الحرب وبداية دخول الاحتلال الصهيوني، منحتني تلك اللحظة فهماً لمعنى مواجهة إسرائيل وتحرير فلسطين والعمل بالمقاومة، وكانت بيئة بيتي تجعلني أفهم الأمور من منظور عربي.

منذ تلك اللحظة أنهيت نفسي كطفل وبدأت الاهتمام بالسياسة، بعد ذلك ذهبت إلى بغداد لدراسة

العلوم السياسية بعدما صارت هفي الأساس وكنت معنيا بهذا المشروع: أن أشتغل بالفكر السياسي وتغيير هذا المجتمع، أعطتني بغداد هذه الحالة من التركيز على الثقافة، كانت مكتباتها زاخرة بكل أنواع الكتب، وكنت معنيا بالقراءة في مختلف مجالات التاريخ والسياسة والفكر، كنت معنيا بلورة بديل مختلف عن الأحزاب القائمة.

بعد ذلك جاء استقرار في دمشق وصرت جزءاً من حركة التحرير الشعبية العربية، دمشق تعطي حياة أخرى، فقد كانت جزءاً أساسياً من حياتي، عشت مرحلة انهيار المعارضة السورية والأحزاب العربية، كان تركيزي على المستوى الفكري في القراءة والكتابة والبحث، وبدأت أصدر أول كتيبي من دمشق في العام 1983 كان كتاب «نقد الحزب» لمناقشة بنية الأحزاب الاستبدادية وكيف تكون غير استبدادية، ومن هناك بدأت حركة النشر وعشت تقريبا عشر سنوات في دمشق ثم فترة الاعتقال ثماني سنوات، ثم بعد ذلك عشت ربيع دمشق بعد عام 2000 بعد موت حافظ الأسد، ومرحلة تمرير بشار كوريث، وبدأت حالة حراك كنت جزءاً منها وعضواً أساسياً بمنندى جمال الأتاسي.

منذ العام 2007 بدأت أشعر أن المنطقة العربية متجهة نحو الثورة، وبدأ عملي من دمشق على هذا الأساس؛ مدى إمكانية بلورة أفكار جديدة، وأصدرت سلسلة «كراسات ماركسية» لأنني كنت معنياً بالشباب في الأساس. توقعت أن تنطلق الثورات العربية من مصر، وعندما قامت ثورة يناير في مصر كنت مشاركاً فيها، أيضاً شاركت فيما بعد في الثورة السورية ونشطنا في دعم لجان التنسيق بعيداً عن الأحزاب التي دخلت في متاهات، وأصدرنا جريدة «اليساري» وبعد العدد الثاني اعتقلني النظام على هذا الأساس. بعد ذلك كانت القاهرة خياراً لي بعد عودتي من المنفى في الأردن لأنها توفر لي فرصة البقاء ضمن دائرة الصراع والتواصل مع الكتل السورية والمصرية.

#### تجربة السجن

**الجديد:** تم اعتقالك مرتين من قبل السلطات السورية، الأولى في عهد حافظ الأسد والثانية بعد الثورة السورية.. ما تأثير تلك التجربة عليك؟

**كيلة:** على المستوى النفسي لم يكن لتلك التجربة تأثير كبير عليّ لأنني دوماً أعدّ نفسي لدخول السجن، لست من الأشخاص الذين يعملون في السياسة ولا يعرفون عواقب ذلك، فمن يغيّر المجتمع عليه أن يتحمل نتائج ذلك. طبعاً تظل تجربة الاعتقال صعبة، فقد خرجت من سجن تدمر مريضاً بالسرطان فضلاً عن التعذيب والضرب الذي لقيته في المرتين، لكن كل شخص يمكن أن يستفيد من تلك التجربة بشكل أو بآخر، خلال فترة الاعتقال قرأت كمية كبيرة من الكتب لم يكن ممكناً قراءتها خارج السجن كما كتبت العديد من الكتب.

#### كنت شاعراً

**الجديد:** ما هي أبرز الكتب التي ساهمت في تشكيل وعيك الثقافي باكراً في شبابك؟ وهل من أدباء بعينهم تفضل القراءة لهم سواء من العرب أو غيرهم؟

**كيلة:** في مرحلة الشباب كنت أقرأ الشعر، وكدت أصدر ديوان شعر لكنني تراجعت عن هذا المسار، قلت إن هناك شعراء كثر في العالم العربي لكنني أميل لشيء آخر أهم، قرأت لمعظم شعراء سبعينات القرن العشرين وكبار الروائيين المصريين. في الثمانينات من القرن الماضي قرأت روايات أكثر وشعرا أقل. في السبعينات من القرن العشرين قرأت ثلاثة كتب مثلت أهم التيارات الفكرية: كتاب «البيان الشيوعي» لماركس وأنجلز، و«الميثاق» لجمال عبدالناصر، و«معالم الحياة العربية الجديدة» لمنيف الرزاز. وبدأت أقرأ في التاريخ، وقرأت الماركسية أكثر في العراق فضلاً عن التاريخ الفلسطيني والعربي، وكنت أربط مفهوم النظري بالواقع والتاريخ، وهو ما أوصلني لكون الماركسية منهج تفكير يتجاوز منطق الشكل لمصلحة فهم كلية البنية من السياسة والاقتصاد والتاريخ.

أجرت الحوار في القاهرة: حنان عقيل

عشت تقريبا عشر سنوات في دمشق ثم فترة الاعتقال ثماني سنوات، ثم بعد ذلك عشت ربيع دمشق

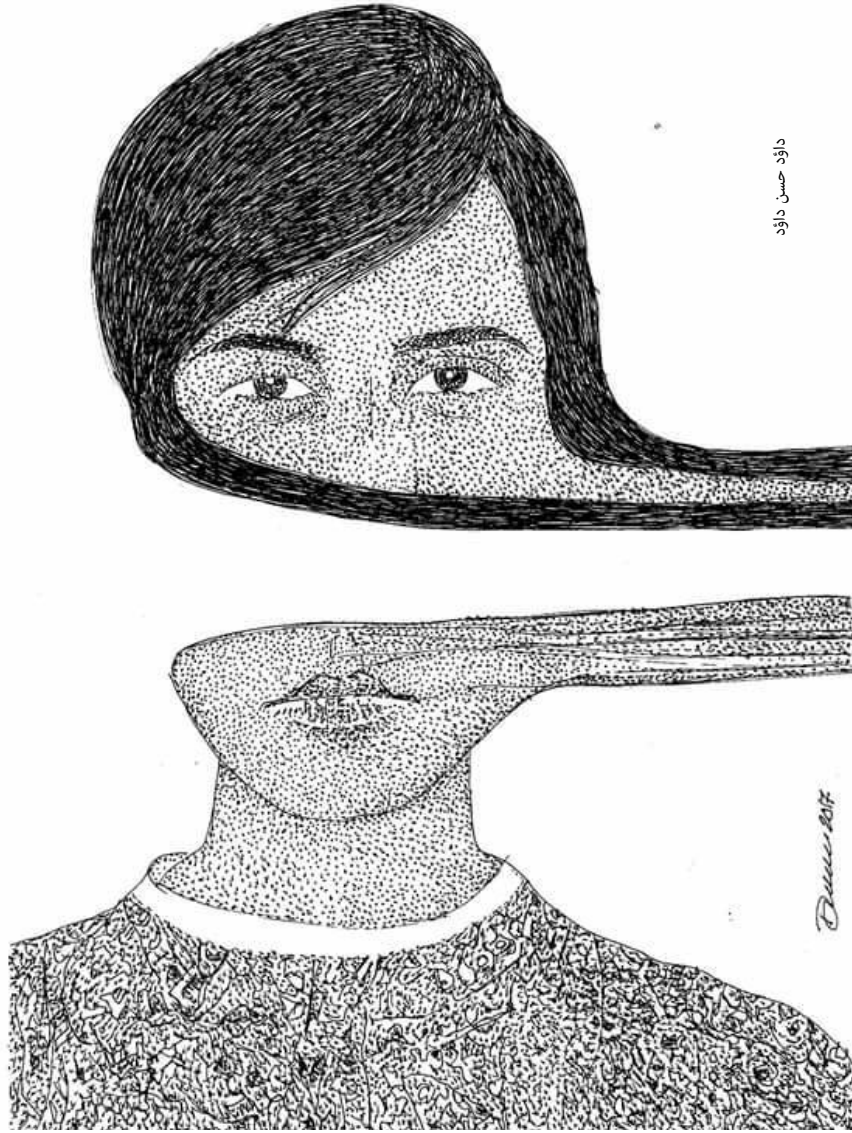
تظل تجربة الاعتقال صعبة، فقد خرجت من سجن تدمر مريضاً بالسرطان فضلاً عن التعذيب والضرب



# أنا قتيلة الوقت وأنت سيف النهار

## 21 قصيدة

### آلاء أبو الشملات



#### ضوء بعيد

أذهبُ مع الدقائق وأعودُ مع الأيام  
أتمشّي في رماد جنّتي  
دليلي ذاكرة محطمة  
هل كنتُ في وادي الغضا؟  
شيء صغير  
ها هنا  
ما زال  
يلمع ويناديني.

#### رجل صحراء

هل أنتَ شجرة  
مقتلعة من أرض ومزروعة في أرض  
حتى ترفض أن تزهر لأجلي  
أن تمنحني غصناً  
أخضر  
وندى على غصن.  
ألتفّ بالضباب وأطأً بقدمي أزقة مهجورة  
آلاف حبات المطر  
تكسرت  
وأنا أمشي وأسمع خطواتك تمشي  
في شوارع روعي المتصدعة.  
أمشي على شرخ،

#### ظلي يتناول في فراغ

لا شيء  
ولا أحد  
انطفاء لا ينتهي..  
أيها الفارغ كأيامي.

#### اكتشاف

صحراؤك تتسع لتنهب خطواتي التائهة  
لكن عشبتي تغرق  
أعبرك  
وأتواري  
فلأهزأ من سقطتي  
رمادي الضاحك كل ما تبقى لي.

#### صمت اللؤلؤة

في أعماقي قواقع خائفة  
أصداف ملأى برمل الزمن  
ساعاتي تتسرب  
لكن شغفي ما زال يبحث عني في لؤلؤتي الضائعة.  
أمشي في مرافئ غريبة،  
وأسمع الأمواج تتكسر  
أمشي  
ولا أجد أحداً

#### وعمود الملح ينهار.

#### جليد

أخرجتك من جليد  
وتحققت من جثمانك الباهت  
فلتبق حيث أنت  
لن أسمح للنار أن تمسك  
ولا للرماد أن يسميك العنقاء.

#### أدخل أقبية صراخي

لا صوت  
ولا صدى  
الأمواج تتدافع وتمحو العلامات  
الأمواج تتعالى  
لأتواري  
وأراك  
ومن عينيك الخريقتين أطل على قاعٍ  
أنظر  
وأرى النوارس تزرق



## ضوء

نامت الشمس في خيمة البدو ونسيت أن تشرق  
خيولي تطلع من رمل وصحراء  
والفرسان على صهوات الضوء يعبرون الزمان.

## العابرة

أمشي ويعبرني الطريق  
تظللني أوراق صفراء  
أنا غبار  
خيط ضوء يتيم  
أم أنني لهب الحريق.

## لأجلك

أكسر زجاج روحي  
وأخرج  
أشعل شتائي  
لأجلك  
وأترك وجهي للريح.

## مزمور

كيف أحمي الإله النائم في غرفتي  
من رعشة نحيبهم؟

## في حضرة المرأة

ينقصني  
الغياب  
لأأكمل.

## أزهار

اغتسلت بماء طفولتي  
ووقفت طويلا تحت غيمة الكلمات  
في يدي  
أزهار حمراء.

## غياب

احتضنتني بقوة  
وهزرتني  
حتى  
نسيت اسمي.

## سقوط

العثماتُ تعود إلى منابع الضوء  
ونحن نعبر الصراط  
بين وهمين  
حذرة، سأظل، لئلا أقع  
لكن الهاوية  
أبدًا  
تغريني بالسقوط.

## هنا وهناك

كنت أسمع أصواتهم تهب من الضفة الأخرى  
وأحلم بالعبور  
والآن  
أنا هناك  
ولا أحد معي.

## تلك الدمعة

راقبُ الخيط الذهبي  
المتسرّب  
عبر شق صغير  
في الجدار  
روحك هناك في منبع الخيط.  
في عينك دمعة  
هي الحرية.

## مدينة

ما من مدينة تستيقظ  
إلا وتفتح نافذة  
على وقع خطى لغريب يمرّ  
المدن تطرب لأقدام الغرباء  
وينعشها  
هواء الحزن  
لكن المدن تحب الضجة أكثر.

## مرآة

يا بحر  
أنا لا أخشى الغرق  
أستسلم لانكساري  
وسقوطني  
ولا أخشى هاويتك السحيقة  
في قاعك المضيء سماء تنتظرنني.

## حب

أحبُّ حبي الشتائي  
لك  
كلما هاجت عاصفة

ينتفض كعصفور مبلل  
مثله

قلبي  
كلما فاجأني لفح الصقيع.

## حب

لم أكن أنتظر يوما أن أحبس نسمة  
كما حبستني أنت  
في قلبك  
ها أنت تفرش دروبي بالنجوم  
وتحتضر معي كلما احتضرت.

## إله

لأنك  
خيّبت آمالهم  
إلهي  
أحبك.  
شيء  
ما  
ينقص  
العالم.  
الزمن  
يتناثر  
من حولي  
كآنية محطمة.

## تميمة

أنت سيف النهار  
وأنا قتيلة الوقت.

شاعرة من سوريا مقيمة في لندن



## كوابيس بغداد ودمشق

الكاتب البريطاني هنري نايلور يحاول اكتشاف عوالم الرعب والموت

في ثلاث مسرحيات

عمّار المأمون



تشكل الصراعات في الشرق الأوسط الآن مصدر إلهام للعديد من الكتاب والفنانين، سواء كانوا من المنطقة أو لا، فالأنظمة القمعية و التوحش الإرهابي الذي يجابهه سكان المنطقة يومياً يشكل وصمة عار في ضمير الإنسانية لا يمكن أن تمحى، فالتراجيديا التي تعيشها تلك الجغرافيات بمعانيها الفنية والإنسانية تكشف أمامنا وضعيات جديدة للكائن البشري بمواجهة الآخر، سواء كان فكرة أو بشراً أو مؤسسة، لتتجلى التراجيديا لحظتها بوصفها خلافاً في نظام العالم، هي الانعطاف التي تكشف وحشية الأنظمة التي نخضع لها والتي تتعارك تاركة إيانا ضحايا لحسابات تنم تصفيتها.

غرف الممثل والكاتب المسرحي البريطاني هنري نايلور كونه كاتب كوميديا وساتير ونال شهرة واسعة إثر ذلك، وخصوصاً بأدائه إلى جانب الممثل البريطاني الشهير روين أتكينسون، عام 2014 انتقل نايلور إلى كتابة التراجيديا، حيث قدم منذ عام 2014 ثلاثة نصوص مسرحية عمّا يحدث في سوريا والعراق، ونالت هذه النصوص حين عرضت على خشبة شهرة جماهيرية واسعة في بريطانيا، الثلاثية المسرحية صدرت هذا العام بعنوان «كوابيس عربية» (Arabian nightmares)، لنقرأ ثلاثة نصوص وهي «الجامع، أصدقاء، ملاك» وكل منها من فصل واحد وتدور أحداثها بين سوريا والعراق على فترات متباعدة منذ الغزو الأميركي للعراق حتى الآن، وفيها يحاول نايلور اكتشاف معالم الوحشية التي تدور في المنطقة سواء على الصعيد الفكري أو الجسدي.

النصوص الثلاثة تشترك بأنها قائمة على السرد الشفوي، شخصيات تقف على خشبة وتحكي لنا ما مرّ معها وما شهدته، وصيغة السرد هذه تنضح من العنوان، فهو يقارب الاسم الإنكليزي

لألف ليلة وليلة (Arabian nights)، كما أن «المرأة» التي «تروي» هي محور النصوص الثلاثة، إذ يشير الكاتب صراحة في النص الأول أن البطلة كشرزاد تحدثنا عمّا شهدته، هذا التبني للصيغة الشهرزادية وصيغة الضحية يعتبر مقدمة للقراءة الاستشراقية التي تقدمها النصوص لما يمز في المنطقة، ضمن صيغة تراجيدية تجعل عناصر الصراع والعنف أصلاً جوهرياً في المنطقة، مكرّسة

أشكال التعميمات الاستشراقية المتعلقة بالمرأة والجنس والعنف، ورأسمة علاقات التمايز بين الشرق السحري الذي يختزن العنف والغرب الأبيض الفاتح الديمقراطي، وبالرغم من توجيه الانتقادات للطرفين إلا أن النصوص تعكس عدم التوازن بين العالمين والوحشية الحاضر في الشرق بوصفها نتاجاً عن عيب تراجيدي في الشرق الأوسط، حالها كحال أي خطاب ليبرالي يحاول تفسير ما يحدث، و القراءة الثقافية لهذه النصوص تتيح لنا التعرف على علاقات القوة التي تفترضها النصوص لمقاربة الرؤية الاستشراقية التي تختزنها.

### دماء على إيقاع موسيقى الراب

النص الأول بعنوان «الجامع» (The collector) عرض لأول مرة عام 2014، وفيه حكاية ترويها ثلاث شخصيات مباشرة للجمهور في علاقة مواجهة معهم، إذ نستمع لزويا الفتاة العراقية الشابة وكاسبر الضابط الأميركي وفورستر المحققة الأميركية الشابة، تدور أحداث المسرحية إبان الغزو الأميركي للعراق، وفيها تروي لنا الشخصيات حكاية ناصر الشاب الذي يحب موسيقى الراب ويعمل مترجماً مع الأميركيين والتحويلات والتهديدات التي خضع لها لينتهي به الأمر كخائن بعيون مواطنيه، ليقوم بعدها بالتعاون مع أحد رجال النظام السابق بقتل بعض الجنود في القاعدة الأميركية من ضمنهم فوستر، وذلك قبل أن يقتله كاسبر. تصرف ناصر هذا يأتي بعدما شهد عمليات التعذيب والتحرش الجنسي ضد العراقيين في السجون الأميركية والتي لم يحاسب عليها أحد، إلى جانب فشله بالحصول على اللجوء في أميركا.

ترسم المسرحية من وجهة نظر استشراقية ملامح العنف في المنطقة، بوصفه أصيلاً وقديماً قدم تاريخها، أما أميركا المحررة فهي التي ستجلب الديمقراطية للمكان، فهي موجودة قبل الغزو عبر الموسيقى والمنتجات الثقافية، وحتى حين قام ناصر بالقتل، فهو لم يقتل «أميركا» بل قتل أناساً سيئين، فأمركا ليست مجرد أشخاص هي فكرة لا تموت عن الحرية والعدالة، بل و

يرى نفسه أميركياً أكثر من الجنود أنفسهم. تحضر في النص أيضاً بنى الهيمنة على المرأة وتقنيات التأنيث التي تطبق على أي «أنثى» سواء عراقية أم غيرها، فزويا تتحول لخدمة لتنجو بحياتها، أما فوستر فتتورط بعلاقة جنسية مع الضابط كاسبر وتبقى محط الإهانات والسخرية كونها أنثى، هذا التأنيث يتجلى كدور اجتماعي يمارس عبر فعل جسدي أيضاً سواء على الذكور أو الإناث، عبر تقنيات التعذيب التي يستخدمها الجنود الأميركيين ضد العراقيين، فهذه الاستفادة من وضعية المرأة الدونية في المنطقة تبرز بصورتها القمعية التي يمارسها الاحتلال الأميركي

لكسر شوكة العربي وإهنته على حد تعبيرهم.

### رجال الشرق السحري

النص الثاني بعنوان «أصدقاء» (Echos) عرض للمرة الأولى عام 2015، وفيه تروي فتاتان في السابعة عشرة من العمر حكايتهما، فسميرة فتاة بريطانية مسلمة وتيلي التي تنتمي للحقبة الفيكتورية، وكلاهما تعيشان في بلدة إيسويتش النائية مع اختلاف زمني بين الحكايتين، فكلاهما تبحثان عن وسيلة لإتمام واجب أخلاقي في حياتهما وتسعيان لتحقيقه، فسميرة تقرر الذهاب إلى الرقة



مقاتلات الـ"واي بي جي" لتقتل كل من تراه من دواعش، وتبقى على الرصاصة الأخيرة لتقتل نفسها كي لا تكون غنيمة، إلا أنها تختار أن تكون أيضاً فدائية وتنتقم من أولئك الجهاديين، فلديهم اعتقاد أن من تقتله امرأة لن يدخل الجنة، إذ تقتل بآخر رصاصة لديها من يريد سبيها.

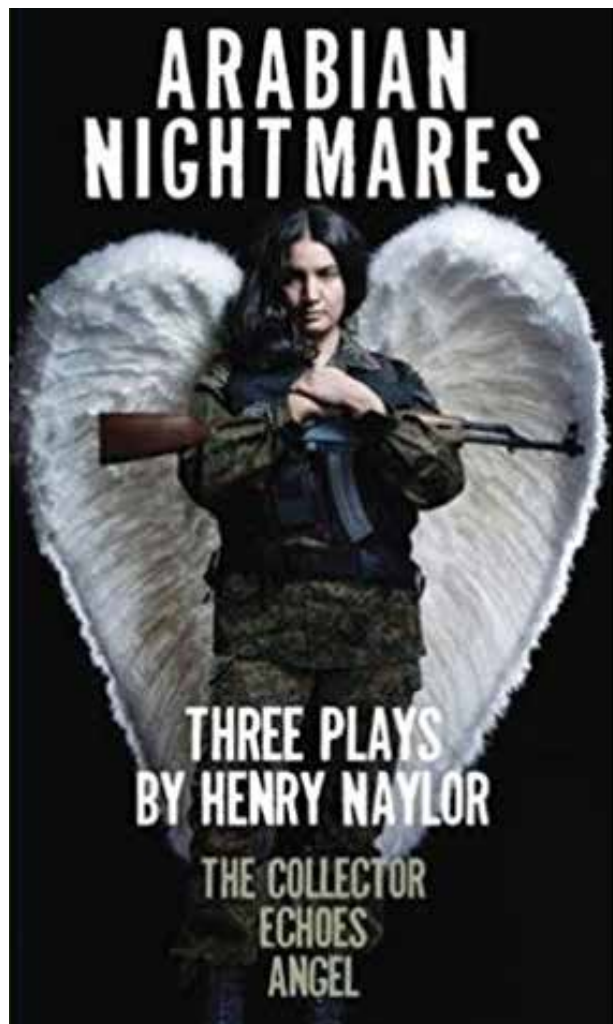
### عناصر التراجيديا

تحضر في النصوص الثلاثة عناصر تدفع الحدث التراجيدي، هذه العناصر مرتبطة بالنظرة الاستشراقية للمنطقة من جهة، وللخطابات الإعلامية المتعلقة بها، سواء كانت من البروباغندا العربية أو الغربية أو تلك التي تبثها التنظيمات الأصولية، هذه العناصر التراجيدية تتمثل في ثلاثة محاور، الأول نراه يتمثل بالمركزية القضائية وتقنيات التأنيث المتبعة ضد الأجساد والتي يبررها الدين ومكانة المرأة ضمنه، والعامل الثاني مرتبط بالعنف الذي يتضح في النصوص الثلاثة بوصفه عاملاً جوهرياً في تكوين المنطقة وهوياتها ولا يمكن الفكك منه كونه أنزً أصلاً لا يمكن محوه، وأخيراً الغرائبية المرتبطة بهذا العالم الشرقي والدهشة حيال ما يحصل فيه.

صحيح أن المسرحيات في الكثير من الأحيان توجه الانتقاد للأطراف المتصارعة سواء كانت من المنطقة أو خارجها كالمستعمرين الإنكليز والأميركيين، لكن نلاحظ أن لدى كل الشخصيات معرفة ضليعة بالثقافة الأميركية، بل واهتمام بها حدّ الهوس كحالة ناصر في النص الأول الذي يحلم بأن يصبح مغني راب، قد تكون في هذه مفارقة ساتيرية يقدمها الكاتب للجمهور الأجنبي، لكنها لا تبدو متماسكة بالنسبة إلى القارئ العربي ما يفتح باب التساؤلات على طبيعة هذا الآخر الأجنبي ورؤية الشرق له.

يتداخل في النصوص كل من الوثائقي والمخيّل، والاختلاف أن المرجعيات الوثائقية عن الأحداث التي نقرأ عنها مرتبطة بالإعلام وتقنيات السرد المرتبطة بالاستهلاكي والجماهيري، وما تقوم به النصوص هو إعادة إنتاج لهذه المعلومات الخام وفق سرد مسرحي، مفقولة عناصر التراجيدية ليطلق فيها الصراع البشري من جهة والعقائدي من جهة أخرى في سبيل التطهير لا الاستهلاك كما في الإعلام، هذه المقارنة على صعيد التقنية تدفعنا للتساؤل عن الحكايات التي ترسم عن المنطقة الآن، عن طبيعة الصراع والأطراف الفاعلة فيها وعلى أيّ منها تقع اللائمة، وخصوصاً أنه في المسرحيتين الثانية والثالثة التي تدور أحداثهما في سوريا لا ذكر للنظام السوري ولا حتى بإشارة لبيدو خارج المعادلة والصراع بأكمله.

كاتب من سوريا مقيم في باريس



إذ ترى في نفسها شهيدة الأنوثة التي تنتصر لجسدها ضد الهيمنة الذكورية والمقدسة.

### رحلة حماية الأشجار

يتناقص عدد الرواة إلى واحد في النص الثالث بعنوان «ملاك» (Angel)، فالعرض الذي أنتج للمرة الأولى عام 2016 بطلته ريانا، الفتاة الكردية التي تعيش في كوباني، والتي تريد أن تصبح محامية، إلا أنها كردية، وكأي منطق استشراقي يرسخ النص صورة الكرديات بوصفهن مقاتلات يحملن السلاح ويدافعن عن الأرض ولا يمكن لهنّ الفكك من هذا الدور، فلا مكان لهنّ سوى القتال، السلطة الأبوية الممارسة عليها تجبرها أن تترك المدرسة وتندرب على القتال، وما إن تقترب داعش حتى تترك قافلة اللجوء وتعود لنجدة والدها، لتأسر وتنقل إلى الرقة حيث تزفّ إلى جهاديّ تهرب منه لاحقاً بعد محاولته اغتصابها.

ريانا ترفض القتل والتورط به، إلا أنّ ماكينة التراجيديا لا بد لها من أن تدفعها نهاية نحو الدور المصمم لها، تقف وراء رشاش مع



لحماً صالحاً فقط للتكاثر والمتعة المقننة، أما دورها الاجتماعي فمستلب لصالح الوظيفة التكاثرية بصيغتها السياسية، والنص يقدم ذلك بوصفه مرتبطاً بالصيغة الذكورية المهيمنة من جهة وسياسات الشرق القضيبية من جهة أخرى.

يحضر الجنس في النص بصورته الوحشية بوصفه وسيلة قمعية، فالنساء يتم التعامل معهن بصيغة أداتية، لا يهتم من أين أتين، فبمجرد دخولهن في نطاق «الشرق» ومؤسساته حتى يدخلن ضمن الدور الاجتماعي المفروض عليهن، وأي محاولات للتغيير أو حتى العودة ستنتهي بالموت، وكأن صيغة الحريم هي ليست ثقافية فقط، بل مؤسسية ومقنونة بحيث لا يمكن الفكك منها.

إثر العنف الذي تعرضت لهم كل من الفتاتين تلجأ نهاية إلى صيغة فدائية للخلاص، فتيلي تقتل زوجها وتنتصر لسكان المكان «الغريب»/كابول، في حين أن سميرة وإثر فشلها بالهروب، تتعرى وتترك جسدها «العورة» أمام أعين رجال داعش في تحدٍ لمبادئهم،

للزواج من مجاهد لقتال «الكفار»، في حين أن تيلي تتزوج من قائد عسكري وتذهب معه إلى أفغانستان لأداء واجبها كزوجة. الفتاتان مسحورتان بذاك الذكر البعيد في أرض العنف ولمشرق العجائبية، وترحلان لتأدية الواجب كـ«إناث»، لكن «هناك»، تكتشف الاثنان أن النساء لسن إلا متاعاً وأشبه بعبيد وإكسسوار للذكر يمكن استبدالهما بأي لحظة، كأنهما دخلتا مساحات الحريم الجغرافية لينطبق عليهما ما ينطبق على الأخريات، إذ تتحول كل منهما إلى جارية لزوجها بصورة ما. هناك أيضاً تلتقي كل منهما النساء المعذبات والمقهورات، سواء الأسرى الإيزيديين لدى داعش أو النساء المحليات اللائي يتعرضن للاغتصاب بصورة دورية على يد المستعمر البريطاني، فالنص يحيل إلى السياسات الحيوية والجنسية الممارسة في المنطقة التي ترى في المرأة وسيلة للتكاثر والمتعة للمقاتلين/الذكور، إذ يقع عليها واجب بيولوجي تقننه الأنظمة الاستعمارية والقمعية والإرهابية يجعل من المرأة

## تأملات بين رحلتين

مريم حيدري



شادي وجوخ

الأربعاء؛ نهايات مايو؛ خروجي الأول من البيت، منذ عودتي من تونس إلى طهران، متشبثة بظهر صديقي على دراجته النارية ذاهبين إلى مقهى قريب ستفتتحه صديقتي بعد بضعة أيام، وهو مضطر لزيارته اليوم لأنه مسافر غدا إلى أميركا، حيث يقيم.

### زارتني

أختي في اليوم الأول، ثم دخلت في نوم عميق وطويل، بعد سهر وانتظار مديد في مطار إسطنبول، وحكايات التأخر على الطائرة الذاهبة إلى طهران، وضياح حقائبي التي مازلنا لم نعرف مصيرها بعد؛ علقت أختي: «تعودنا!» وفي اليوم التالي، أتى صديقي الروائي المقرب. اعتدنا أن تكون زيارتنا قصيرة مثل هذه، كلما جاء إلى طهران، يتصل بي حين يكون قريبا من بيتي إن كنت في البيت لنشرب قهوة معا، نتحدث عن حياتنا، عما نريد أن نفعل، عن الكتابة والعمل، نستهنئ من أمور تدور حولنا، يشجعني على كل فكرة أطرحها ويقول لي في كل مرة «إني أرى مستقبلك زاهرا»، يحدثني عن تقدمه الطفيف في تعلم اللغة العربية وحبه لها وللعرب الذين يلتقيهم أو يعرفهم، فمن أجل كتابة نص أو رواية جديدة، وحبه للمغامرات التي تصنع الحياة كما يعتقد، صار يزور العراق كثيرا ويقتررب من جبهات القتال أمام داعش. ثم يذهب سريعا بدراجته ويدخل حياة طهران. هكذا كأنه خارج من رواية، يدخل رواية حياتي اليومية، ويغادرها، دون أن نحدد موعدا مقبلا.

على دراجته نتحدث بصوت عال كي نسمع أصواتنا في ضجيج الشارع الذي أسكن فيه، أحدثه عن تونس (كأن الحياة منتشية فيها في كل وقت)، يقول لي صديقي «جميل أن يكون الشخص بلا شخص آخر! جميل أنك امرأة حرة».

بعد تونس وأيامها ولياليها السعيدة، المليئة بالشمس والأصدقاء، والموسيقى والحياة، أعود إلى طهران. لم أكتف هذه المرة في تونس بأماكن قليلة، فقد بقي الجنوب التونسي فقط، لم أره خلال هذه الرحلة. فقد أوصاني الكل أن أزوره في موسم بارد.

أجمل اكتشاف لي خلال هذه الزيارة كان الغرب التونسي الأخضر، طبرقة، وذلك الشاطئ الساحر المحاذي للجزائر، الذي سمعت من أعالیه صوت موسيقى «الراي». قال أصدقائي «كثير من الجزائريين يأتون هنا لقضاء العطلة، والتنزه». كنت عرفت ذلك من قبل، من أصدقائي الجزائريين. ثم كانت «بنزرت». حين دخلنا المدينة، وعبرنا الجسر، لتكون على شارعها البحري بالخیل، والبحر، لم أتمالك نفسي من تسجيل فيديو، لأرسله إلى الصديقات والأصدقاء في طهران، مرفقا بصوت «بوب مارلي» وهو يغني في السيارة، ليعرفوا كم أنا سعيدة، وليشاركوني السعادة. رغم أنهم منذ الأيام الأولى، لا سيما وأنا أرسل الصور من أمكتنا اليومية التي نجتمع فيها أنا وأصدقائي الرائعين في «الحمامات»، أمام البحر، ومع الموسيقى، واللون الزهري للنبيذ على الطاولات، ومع السماء الوضاعة بألوانها وغيومها، تخيم فوق البحر وتلك الأبنية البيضاء والشبابيك الزرقاء، كانوا يكتبون لي «لا تكفينا الصور، خذينا معك حيث أنت». وأنا أكتب «سأكتري أو أشتري بيتا هنا، وستأتون كلكم لتزوروني، وتقيموا عندي». ثم كانت «القيروان»؛ والهندسة المعمارية التي كنت أقرأ عنها، وأراها في الصور فقط؛ السوق القديمة، والأواني النحاسية والخزفية التي تأخذ عقلي معها. «نابل»، و«المنستير»، و«تونس العاصمة». كنت غارقة في جنة من الموسيقى، والأصدقاء، والسهرات، والرحلات من مكان إلى مكان، ومن مدينة إلى أخرى، حين وصلت رسالة صديقتي في الهاتف الجوال، ذات مساء، فجأة «مريم، عيد ميلاد سعيد!» علما أن عيد ميلادي في نهايات تموز. في مثل ذلك اليوم بالتحديد، في العام الماضي، كنت أخرج من غيبوبة، ومن برزخ ما بين الموت، والحياة. وعاما قبل ذلك، كان صديقي المقرب، وشاعرنا الكبير، «محمد علي سبائلو» رحل، وتركني في فراغ. ثم وبينما كنت أخضع لعملية جراحية، دون أن أعرف أين أنا، وماذا حدث، ويحدث. حين كانت حياتي تنتشل من هاوية العتمة، وتعود إلى الضوء، وبينما أنا في لحظات العودة إلى الحياة، والكل ينتظرني خارج الغرفة. كنت أفكر أنني في باحة مظلمة، تضئها بعض المصابيح الملونة، وأسمع صوته يغني تلك الأغنية الفارسية القديمة التي كان يغنيها في كل مرة أزوره «إنها ليلة الأنس، يا مريم، تعالي تعالي». كل تلك الأشياء تعود، وأنا جالسة في شرفة المطعم، أمام البحر، في الحمامات. أحدثت عن ذلك لصديقي الشاعر التونسي. أتصل بصديق مشترك عاش معه ثلاثين عاما في البيت نفسه، واسمعه يقول «إننا جالسون في البيت، نحیی ذكراه، فهذه ليلة رحيله». نتحدث معه،

وأقول «أشعلوا شمعتي له».

رغم شعاراتي وتشجيع من حولي لي على نسيان الماضي لو كان حزينا، إلا أن المرء يبقى تحت سلطة أمور وأحداث ماضية، كانت علامة أو منعطفاً في حياته. كأن الأزمنة تتداخل في بعضها، وهذا ليس أمرا سيئا أو جيدا. إنها الحياة.

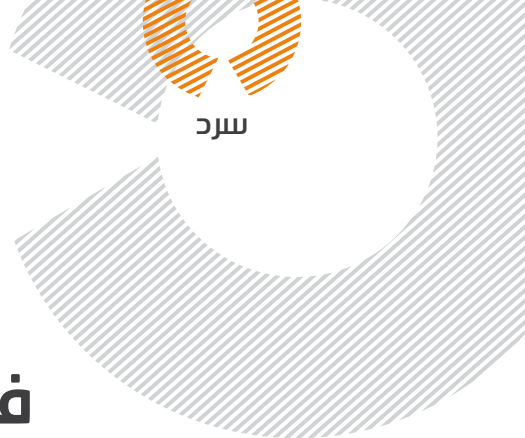
تمزّ اليوم أربعة أسابيع على عودتي. في مثل هذا اليوم في تونس، وقبل شهر، كنت أودع أصدقائي، عائدة إلى طهران. يوم واحد قبل عودتي ذهبنا إلى مصنع النبيذ، واشتروا حصة لا بأس بها. المطاعم لا تقدم النبيذ خلال شهر رمضان. واليوم، وعلى عتبات العيد، ذاهبة إلى روسيا. موسكو وسان بطرسبورغ. أذهب الليلة، وما زال هواء تونس في رأسي. لا تمرّ جلسة لنا دون أن أحدث أصدقائي عن تونس، ومسراتي هناك؛ وأنا واضعة في الحقيقة كتباً ترافقني في الرحلة التي علي أن أخوض غمارها بحمولة خفيفة جداً، يعود لي ذلك الشعور، وأنا وحيدة في مقهى، أمام البحر، في «ياسمين الحمامات». شعور بكوني سعيدة، بكل ما أملك من أمكنة أحبها، بالعالم حولي، كائناته ومكوناته، بالشعر، والموسيقى،

والطبخ، والرقص، والحياة التي عرفت حتى الآن كيف أسير فيها لتروق لي. كنت وحيدة في المقهى. أنتظر صديقي، وأتواصل مع صديق آخر. أقول له «لي رغبة أن أقرأ شعرا لبازوليني». أشرب القهوة، وأبحث في الإنترنت عن قصائد مترجمة له. يرسل لي صديقي أيضا قصيدة للشاعر سبق أن ترجمها هو إلى العربية. أقرأها وأشعر بالسعادة. هناك لحظات سعادة، ألوانها زاهية أكثر من غيرها. إحداها كانت تلك.

اليوم وأنا أتهيأ للسفر إلى روسيا، في خضم كل ما قمت به منذ الصباح، من قهوة، وأنواع مختلفة من الموسيقى العربية، والفارسية، والأجنبية، والطبخ، والمشي، والاستعداد للسفر، والمكالمات الهاتفية، أشعر بمثل تلك الأحاسيس. وحدة (بمعناها الخاص بي) وسعادة (بمعناها الخاص بي)، ورغبة في قراءة شعر جيد (جيد وفق معايير الخاصة). ورغم أنني ذاهبة إلى عالم قد لا يرتبط به كثيراً، لكن بازوليني من نوع ما سيستقبلني شعره هناك.

شاعرة ومترجمة من إيران





# في تلك البلاد في متاهة الذكريات

هيثم حسين

لي على تجزئي برفع الصوت ضدّ امتهان الإنسان واسترخا صه، ذكرت حينها أننا نعيش في بلاد تكاد تنعدم فيها الفرص؛ فرص الحياة وتفاصيلها، من أي نوع كانت. أصّر المحقق على النيل منّي وتسخي في وتحقير الكتابة والفكر والأدب، وكان مسدّسه المكون على الطاولة رمز قوّته وتفوّقه عليّ. وكان يكرّر على مسامعي بضرورة ألا أتفلسف في إفاداتي عن أسئلته التي يطلب فيها منّي تفسير الكلام الذي صرّحت به في حوار، كان يتوقّف عند كلّ كلمة ليسألني عن مقاصدي من ورائها، وإشاراتي وسهامي إلى السلطة فيها.

كان يكرّر لي أنّ كلامي ملغم ويحتمل التأويلات لكنّه يعلم مقاصدي الحقيقية من ورائه، وأنني أحاول استعراض جرأتي في نقد السلطة، وأبحث عن حظوة معنوية وبطولة متخيلة، وهذا ما لن تسمح لي السلطة بالحصول عليه، ولن تكرّمني بجعلي بطلاً وهمياً في عيون الناس الذين قد يعجبون بقولي أو فعلي لكنّهم ينكفون على ذواتهم، وينأون بأنفسهم عني، وعن وجع الرأس الذي قد يطالهم جزاء تعاطيهم معي.

كان هناك سؤال عمّا ينقص الثقافة العربية، فأجبت بأنّه ينقصها النقد، الاستشفاء من الشلليّات، الابتعاد عن المحسوبيّات، بتر الذراع المتنفّذة للسياسة في توجيه دقّة الثقافة، التحرّر من وساوس الغزو الثقافي، أي ثورة ثقافيّة بالمعاني كلّها.

فتحت هذه الجمل القصيرة أبواب الجحيم عليّ، بدأ المحقّق بكيل الشتائم لي، كان يهدّد ويتوعّد ويقول إنّه سيبتل لساني من حلقي، وإنني جبان أختبئ خلف التوريات والاستعارات، وإنّ الدولة وحدها -وكان يقصد النظام وأجهزته الأمنية بقوله الدولة- لها الحقّ في البتر والقطع والوصل، وما عليّ إلّا الرضوخ لسياساتها وهي أدري. وكان يشدّد على أنّي متآمر على الدولة ومتواطئ مع العدو لإضعاف نفسيّة الشعب وبثّ الإشاعات بينهم.

وصفني بأنني من أنصار التطبيع مع العدو الصهيوني، وأنني أرى إسرائيل حليفة لي وسنداً ولا أراها عدوّاً، وبأنني حين أدعو للتحرّر ممّا أصفه بأوهام الغزو الثقافي فإنني أفتح الباب أمام إلغاء شخصيّة العربي، وأدعو لفتح قنوات للتطبيع مع العدو الذي سيغزو البلد بما ومن فيه، ويدمره.

تلك البلاد التي باتت بعيدة الآن بالنسبة إليّ جغرافياً، لكنّها ما تزال تسكنني وتسيرني بطريقة ما وتقودني في دهاليز الذاكرة ومتاهة الذكريات، تبقيني في بحر المآسي المتفاقمة التي أتابع وقائعها يوماً يوماً، أصرخ صراحاً يدوّي في أحشائي فقط، يتحوّل إلى دمعة صامتة تنحدر على الخدّ أحرص على ألا يلمحها أحد.

في تلك البلاد قد تفقد حياتك لأبسط سبب، أو من دون أيّ سبب، لا قيمة للحياة الإنسانيّة هناك، ولا قيمة للإنسان نفسه. أذكر أنّ أحد أبناء عامودا كان يكرّر أنّ أرخص ما في المدينة هو الإنسان. كان يتمّ استرخا ص جميع وكلّ شيء بحجّة الدفاع عمّا هو أهمّ وأسمى. ولا أدري ماذا أهمّ وأسمى من الإنسان والإنسانيّة..!

الموت متربّص بك في كلّ الزوايا والأزقة والشوارع، لا شيء يحميك، قد تموت بقذيفة طائشة، وقد تقضي على يد مجهولين ملثمين خطأ، وقد ينتقم منك بعضهم من دون أن تدري أسباب انتقامهم، تتعدّد سلسلة احتمالات القتل والموت، وحدها الميتات الطبيعيّة هي الأقلّ في زمن الموت المجانيّ المعقم.

في تلك البلاد، قبيل الحرب، كان الإنسان رخيصاً جدّاً، لا قيمة له في نظر النظام، أي امرئ يحاول التناول يكون عرضة للانتقام والإيذاء به في وضح النهار. جاءت الحرب لتسرق أرواح الناس بالجملة، ليتحوّلوا إلى أرقام يعلو عذاها يوماً بيوم، ولا يحاول أحد في العالم المتحضّر إيقاف هذه المجزرة الماضية المستمرة. الحرب غدت السبب المباشر لفقدان أعداد كبيرة من الناس لأرواحها، قبل ذلك كان يتمّ اغتيال إنسانيّة الإنسان على جرعات، كأنّ يتمّ استلابه مصدر رزقه، ومحاربته في لقمة عيشه، ومنعه من الشعور بذاته كإنسان له ما له من حقوق وعليه ما عليه من واجبات. كان المطلوب إبقاء شعور الهزيمة مستقرّاً ومتنامياً في أرواح الناس الذين لم يعرفوا معنى حقيقياً للمواطنة في بلدهم.

تعرّضت أكثر من مرّة لحوادث كدت أفقد فيها حياتي، وكان يتمّ دفعي إلى تلك الحوادث بطريقة ما، أو تهيئة الظروف بنوع من التدبير والمكيدة، ليتّم إبراز الأمر فيما بعد وكأنّه قضاء وقدر، ويتمّ تجاهل الأسباب الحقيقيّة والتعمية عليها بحجج بائسة.

تسبّب حوار قصير أجرته معي إحدى الصحف العربيّة بنقلي من مدينتي عامودا إلى تلك القرية البائسة، كان ذلك النقل نفيّاً، عقوبة

لم يكن يترك لي أيّ مجال لأقدّم إفاداتي، وما إن كنت أعني ضرورة التحلّي بالثقة بالنفس والتاريخ والثقافة والحاضر، وأن تكون قوة المعرفة هي القائدة والداعمة والحامية، لا الخواء الذي يتمّ تضخيمه عبر شعارات جوفاء لا تجدي ولا تحمي.

- «ثورة ثقافيّة يا ابن الكلب..؟! من أنت أيّها القزم لتنادي بالثورة؟! اللعنة عليك وعلى شكلك التافه الحقير يا من تنوّهم أنّك كاتب وروائي. الثورة مستمرة منذ أن قادها الأب الخالد ونحن ماضون في تحرير البلاد من جواسيس العدو وأذرعه الثقافيّة من أمثالك يا مُتصهين.. تدعو لبتز ذراع القيادة السياسيّة وتوجيهاتها المقدّسة، وتدعو لثورة كذلك».

كان المحقّق يحتقن غضباً، يرغي ويزيد، وهو يرتّب مسبّاته ويبالغ في وعيده. لم يستعمل الضرب معي، كان يتعمّد إيذائي بالكلمات والسياب. علمت فيما بعد أنّ هناك من توسط لدى ضابط في الفرع ودفع له مبلغاً من المال كي لا يتمّ إيذائي جسديّاً لأنّ جسدي لا يحتمل التعذيب والضرب. ولا أدري إن كان ذلك سبباً في عدم ضربني حينها أم لا.

كنت قد أجبت عن سؤال: ما الذي ينقصك في بلدك على الصعيد الثقافي؟ بأنّه ليست هناك مؤسسات تهتمّ بالكاتب بعيداً عن تأطيره وتقزيمه وتحديد السقف له، وضرورة أن تكون هناك منابر تبتعد عن التفكير بذهنية العصابة.

حين أستعيد ما عشته في تلك الأيام من أوقات عصيبة بائسة، أعجب كيف كنت أتحمّل ذاك الإيذاء كلّ من دون أن أفكر بأن أصبح قاتلاً منتقماً من كلّ من تربطه بالمخابرات صلة ما. لا أقول بأنني أترفع عن الانتقام بقدر ما أجد نفسي منشغلاً بهموم وهواجس أخرى أكبر، لم تكن غايتي في أي يوم أن أنتقم من ضحية. كنت أعتبر أولئك المحقّقين ضحايا ظروفهم وواقعهم بدورهم. كنت أرثي لحالهم وأوھامهم عن أنفسهم وعالمهم.

ابتسم فجأة وهو يقول «أخيراً ها أنت تقول شيئاً مفيداً وصحيحاً. أقسم أنّ معك حقاً مئة بالمئة». كان قد قرأ سؤال الصحيفة لي «نصيحة قدّمت لك ولم تأخذ بها؟»، وكنت قد أجبت حينها «لا تتزوّج».

سعد بذاك الجواب، فشره بأنني نادم على زواجي، وأنني مثله أيضاً، هو الذي يمجّد عظمة مرحلة العزوبيّة ومتعتها ويتغنّى بالحرية التي يمتلكها الأعزب، لا امرأة تنقّ عليه وتصدّع رأسه وتعكّر صفو أيّامه. ولم يفسح لي أيّ مجال لأخبره برأيي عن فكرة النصيحة ولعبة الاستنصاح، وكيف أنّ كلّ امرئ في النهاية يعيش تجربته ويكتسب عبرته وحكمته وخبرته منها بعيداً عن أي نصائح أو اقتراحات.

عقّبت على كلامه بقولي «بالفعل الحرية هي أعظم شيء ينبغي تمجيده». انتبه إلى أنّ جمлتي ربّما تكون ملغمة، فسارع إلى ضبط ملامحه، وعاد إلى دأبه في إهانتني وتسخيف أقوالي، وعاودت

رثائي له ولأمثاله، قلت له «أنت تؤدّي عملك، وأنا أيضاً أدويّ عملي»..

يفضّل بعض الناس العيش في ذلّ العبوديّة، متخيلاً أنّه يحيا في فردوس تاريخي، لا يستطيع التفكير بأنّه قد يكون سيّد نفسه وقراره ذات يوم، يجد في التبعيّة ذاته، يتبلور وجوده بانقياده لسلطة الآخر وأوامره. تكون الذات في محنة مركّبة، تكون صورة الآخر الشوهاء في مرآة الآن، حيث الآنأ تائهة في ضباب الهوية نفسها.

لا يمكن لمن أدمن العبوديّة أن يستمتع بالحرية، وتراه يستقيح أفعال أولئك الذين يقدمون على تحديّ أجهزة النظام القمعيّة، ويفسّهم بالمجانين والأغبياء الذين يتوهّمون أنّهم بممارساتهم البائسة سينالون من قوّة تلك الأجهزة التي تنسّق معها أهمّ وأقوى أجهزة المخابرات في العالم.

ذاك الحوار الذي تسبّب بنفيي ونقلي وإهانتني وإيذائي كان قد مرّ في الصحيفة كغيره من الحوارات اليوميّة التي يتمّ نشرها، ولم ينتبه أحد إلى أنّه قد غيّر مسار حياتي برمّته، وأخرجني من هدوء وأمان إلى قلق وتوتّر وتعذيب. وتسبّب بإصابة زوجتي بقلق مزمن عليّ، ناهيك عن تسرّع القلب الذي أصيبت به أكثر من مرّة.

الطريف أنّني حين التقيت في معرض القاهرة الدولي للكتاب بمعدّ ذاك الحوار مصادفة في أروقة المعرض، وكان قد مرّ على نشره بضع سنوات، أخبرته أنّ الحوار القصير الذي نشره في صفحته الثقافية قد غيّر مسار حياتي وتسبّب لي بكثير من المشاكل. ابتسم وهو يقول لي إنّه لم يتذكّر الحوار ولا تفاصيله. ابتسمت بدوري له وتركته من فوري، قلت له: أراك لاحقاً.

لم أنتظر منه أن يعوّضني عمّا أصابني، لكن ذاك الاستخفاف لم يقلّ إيذاء في نفسي عن إيذاء المحقّق. شعرت بإهانة تسحق روحي، فهذا الذي يفترض به أنّه يقدر الكلمة حقّ قدرها، ويعرف قيمتها ومسؤوليتها، يتنكّر لها بطريقة ما. تذكرت مثلاً كردياً يقول «بعض الناس يتحدّثون من أفواههم، وبعضهم من مؤخراتهم».

اكتفيت بالبسمة وأدرت له ظهري، كنت أدير ظهري لذاك الواقع الذي ينهض فيه المحقّق بدور المؤوّل لما بين السطور، وما في الصدور، ويتخلّى الشاعر عن تقديره لقيمة الكلمة وقيمتها وسموّها، وينساق وراء تمييع القيم فيكون أكثر خطراً على الفنّ والأدب والفكر من القتل والجاهلين.

فصل من كتاب بيوغرافي قيد النشر.

روائي من سوريا مقيم في مدينة إدنبرة ببريطانيا





ملف

20

## قصة من العراق

القصة القصيرة فن أدبي محبوب، له كتابه وعشاقه في الثقافة العربية كما في بقية ثقافات العالم. وقد سبق لمجلة «الجديد» أن نشرت العديد من القصص في إطار ملفاتها المفتوحة للقصة العربية. هنا نفرد ملفاً خاصاً بالقصة العراقية لا نعتبره شاملاً، ولكن قصصه بمثابة أضواء أولى من عشرين زهرة من أزهار المخيلة العراقية الحديثة لعشرين كاتبة وكاتباً يشكلون بأعمالهم جزءاً أساسياً من التجارب التي تحتل اليوم المشهد القصصي العراقي وتلقى قبولا على رقعة أوسع تشمل جغرافية الأدب القصصي العربي.

في هذه القصص نقع على موضوعات وأساليب كتابية وطرائق في التخيل والسرد تكشف عن طبيعة التطور الذي طرأ على القصة العراقية، والتنوع في الميول الأدبية والتصورات الجمالية، وكذا الهموم الاجتماعية التي تشغل الكاتبات والكتاب.

تشكل هذه القصص مجتمعة تجارب مشوقة في السرد، وهي يمكن أن تعكس، بالضرورة، جانباً من المستوى الذي بلغته القصة العراقية الحديثة ■

قلم التحرير

ضياء العزاوي



## لا طفل يُهمل بعد الآن

أحمد خلف

شباب العراق



قالت الفتاة ذات الصوت الرخيم:

- مام سوف أذهب مع صديقاتي إلى المول. هل توافقين؟  
- انذهبي يا روح مام، احذري من الطريق، فهو ليس آمناً.

\*\*\*

حين أطلقت عائلة جون كنيدي شعارها المعروف «لا طفل يُهمل بعد الآن»، على لسان تيد كنيدي، شقيق جون كنيدي الرئيس الأميركي المنتخب في ستينات القرن العشرين، كان آل بوش يرفعون عام 2001 شعار الحرب على الإرهاب، وقد بدأوا بغزو أفغانستان، ثم يليه احتلال العراق.

وقد باء الشعار الأول بنكسات ملحوظة، ولم ينل من تحقيق الأمنيات إلا النزر اليسير. في أيام ستينات القرن الماضي اتهم الرئيس جون كنيدي، شقيق تيد كنيدي، بعلاقة غير مسموح لها أن تدوم طويلاً بالممثلة الشهيرة مارلين مونرو، ولم تكن تعلم من أمر مارلين مونرو شيئاً صريحاً، أعني نحن عشاقها آنذاك من الطلبة المفلسين.

كنا عادة نتجمع في ساحة المدرسة أو في زواياها ومنعطقاتها، ونتبادل صور أشهر الممثلات، بل أكثرهن جمالاً وإثارةً. وكانت مارلين في تلك السنوات الستينية في قمة فتوتها وحسن جمالها الأخاذ. وكان هناك من يتجرأ من الطلبة على أخذها معه إلى مخدعه ليقوم بما يمليه عليه عقله وخياله، وليس الأمر مقتصرًا على مارلين وحدها في حياتها من قبل الطلبة، بل كانت كوكبة من الفاتنات الجميلات: كيم نوفاك وبرجيت باردو وأفا كاردنر وأدري هاببيرون وصوفيا لورين وغيرهن. والحق يقال عادة لم تكن نسمح للواحدة منهن أن تعقد صداقة حب أو علاقة جنسية مع أي رجل حتى لو كان رئيس الولايات المتحدة الأميركية. وكانت مارلين مونرو قد أسقطها عشرة طلبة من الصفوف المنتهية في غرامهم، وكنت واحدا منهم. أوقعناها في علاقات غرامية صاخبة معنا، وكان منا من هو مولع بغرامه للفاتنات الجميلات كمجبل ابن الحمرة، الذي ابتعت منه ثلاث صور لممثلات مصرية وفرنسية وأخرى أميركية، فكيف لها أن تنتقي جون كنيدي بدلا منا؟ وكان الولد المجنون مجبل ابن الحمرة (هذا هو لقبه وليس اسمه

الحقيقي) يجمع عشرات الصور لممثلات ومغنيات وراقصات شرقيات وغربيات، وقد جعل من جمع الصور مهنة خاصة به يبيع الصورة الواحدة بعشرة فلوس، وكنا نشترى منه نحن الطلبة المهاليس أبناء الفقراء. والغريب أن مجبل ظل يحتفظ بصورة مدهشة لمارلين مونرو في أحد كتبه معزولة عن بقية الصور التي ينتقيها للبيع. وكان يصرّ على عدم بيع تلك الصورة المدهشة لمارلين مونرو. أما جورج بوش الابن فقد كتب كتابا عن سنوات رئاسته والحرب على أفغانستان واحتلال العراق «قرارات مصيرية». وفيه حديث مسهب عن لورا زوجته التي لا يكف عن حشرها في الصغيرة والكبيرة. وحين سأل الرئيس بوش الجنرال تومي فرانكس، قائد القوات الأميركية في أفغانستان والعراق، إنه كان زميلاً لزوجته لورا في المرحلة الإعدادية، أجابه الجنرال «لكن لا تقلق سيدي الرئيس لم أكن رفيقها أبداً»، ما فجر الضحك بينهما بوجود لورا طبعاً.

تلك الأثناء، فوجئت بالهاتف الصغير يرن في غرفتي، ولما فتحت الخط جاءني الصوت متهمكاً:

- ما الذي يفعله السيد كاتب القصص الآن؟

- لا شيء سوى القراءة.

لم تكن نبذة الصوت غريبة عليّ، فقد تواردت إلى سمعي من قبل نبذة كهذه، ولكن متى وأين؟ ينبغي شحذ الذاكرة لكي أستعيدها. بدت نبذة لعوبا ولها مقدرة التلون وتبديل المسار من وإلى. بذلت جهداً كبيراً في أن أستعيد ولو نأمة مما عرفته عن صاحبة الصوت، لكن دون جدوى!

مرة أخرى:

- ما اسم الكتاب الذي بين يدي كاتبنا؟

- مذكرات جورج بوش الابن.

- آه، قرارات مصيرية؟ أليس كذلك؟

- نعم، هو الكتاب عينه.

- لا تصدق كل ما جاء في صفحاته، ستراه يغص بالذرائع والتلفيق.

كثيرة المرات التي يصادفني فيها عارض غير متوقع خلال العمل على كتابة قصة أو مقال، كأن يدس أحدهم أنفه

بالمصادفة المزعجة لينهي مشروع كتابة القصة أو المقال.

تري ما الذي ترمي إليه صاحبة الصوت الماكر؟

- لم أنته من قراءة الكتاب بعد، لذا من الصعب أن أصدر أحكاماً قطعية بشأنه.

- لكنك تستطيع التأكد من ذلك بنفسك.

- لا أستطيع ما لم أنته من قراءته.

- يمكنك أن تعرف أنها كلها خصومة شخصية.

كنت أتصفح كتاب بوش الابن بنوع من الاهتمام. مضت فترة ليست بالقصيرة لم أقرأ خلالها كتاباً على غرار، فقد وجدته في بعض الصفحات جاداً جداً وتغلب عليه صفة الإصرار على إنجاز الأعمال المصيرية (الحرب مثلاً). أما البعض الآخر من صفحاته فقد كان فيها بوش الابن مجرد رجل مهموم

# الجدید

تدعو الكتاب والمفكرين العرب  
إلى المشاركة في محاورها وملفاتها القادمة

تيارات التفكير العربي  
ظهورا ومدا وجزراً

حال الكتاب العربي  
كيف تنشر الكتب

في العلاقة بين الكاتب والناشر والقارئ

الاستبداد الشرقي  
دور الحاكم المستبد  
في صناعة الاستبداد الديني

الشعر والتجريب  
هل وصل التجريب الشعري العربي  
إلى حائط مسدود

الكتابة والأنوثة  
هل تكتب النساء العربيات بلغة الرجل  
أم أن اللغة بلا جنس

الصحافة الثقافية العربية  
أحوالها، توجهاتها، علاقتها بالكتاب والقراء

فكر حر وإبداع جديد

شابت الشوائب سمعتهم بلا رحمة. كان عليه أن يحسم أمر جزيرة الخنازير وألا يعرض كرامة البلاد إلى الإساءة أمام العالم الذي بدأ يحسب لبلاده حساباً، ومع هذا لم يستطع التخلص من حضور جمال مارلين مونرو المهيمن على قلبه الرقيق «..... بعد بضع دقائق بدأ المزاج بالتحول، قال لي إطفائي: إن مركزه فقد عدداً من الرجال حاولت أن أهدئ باله، ولكن هذا لم يكن ما يريد، نظر في عيني مباشرة وقال: يا جورج ابحث عن هؤلاء الأوغاد الذين فعلوا هذا واقتلهم. نادراً ما ينادي الناس الرئيس باسمه الصغير، ولكن لم يكن عندي مشكلة في هذه القضية، كانت المسألة شخصية». كان اللقاء الثاني بطلب منها في أبعد بيت سري وفي جزيرة منعزلة، لكن لا شيء يستمر بالتستر أو الاختباء عن العين الساهرة. يا لبؤس الرؤساء حين يظنون أنهم يرتدون طاقية الإخفاء، مع أن كنيدي لم يكن مهتماً بمسألة الفضائح بسبب ما تركه حب مارلين في قلبه من وجد ومحبة. مارلين اغتيلت في عام 1962، وطبعاً خضع موتها إلى تكهنات الصحافة والشخصيات القريبة من القرار والتي يهمها سمعة الطبقة الحاكمة في أميركا، وقيل إنها دفعت نفسها إلى الموت، أي هي التي انتحرت. ومهما يكن من نتيجة الموت أو الانتحار فإن غيابها الأبدي سبب صدمة مروعة لعشاقها ومجبل ابن الحمره أحدهم، ولقد عاقبه معلم الرياضيات عندما شاهد صورتها بين دفتي الكتاب. انبهر أول الأمر ثم قُطِب حاجبيه وقال يخاطبه:

- صورة من هذه يا ولد؟
- إنها مارلين مونرو يا أستاذ.
- وماذا تفعل لديك في كتاب الرياضيات؟
- ثم أردف:
- هل أنت مجنون؟
- كلا، بل عاقل، إنها صديقتي أستاذ.
- عندئذ ضج الصف بالضحك المدوي. التفت المعلم إلى ابن الحمره، وقال بصوت غاضب تماماً:
- هيا اترك الفصل يا معتوه، هيا غادر مكانك.
- ماتت مارلين مونرو ليبقى المتيّم وحيداً يجر أذيال الخيبة حتى 1963، حيث ألحق بها بعد عام من موتها، رحل كنيدي اغتيالاً وليس موتاً عادياً.
- ترى ماذا يقال عادة عن أحداث من هذا النوع؟ مع أن السؤال الذي يفرض نفسه علينا: هل تصلح هذه الأفعال لتصبح جزءاً من قصة قصيرة تحت عنوان:
- لا طفل يُهمَل بعد الآن؟
- ولكن كم من الأطفال أهملوا من قبل؟

التي استطاع أن يجعلها تميل إليه كثيراً، واقترحت عليه أن يحدد لها موعداً غرامياً خاصاً، فهي تهتم به وتميل لشخصه الجذاب، وطلبت منه أن يكون اللقاء خاصاً وسرياً جداً. ذلك الموعد الغرامي هو الذي سيحدد مصير كنيدي تماماً. وقد أشارت إليه بعض الكتب ولم يذكره جورج بوش الابن في كتابه حين تحدث عن لقائه بتيد كنيدي شقيق جون، في لقاء خاص بينهما مع زوجتيهما حول مشروع آل كنيدي «لا طفل يُهمَل بعد الآن». وهذا ما أثار انتباهي حقاً! أعرف أن كنيدي كان عاطفياً جداً، وقد أبهرته مارلين في حفلة العشاء تلك، والتي أُقيمت على شرفه في واشنطن، إلا أن تكهنات كثيرة أشارت إلى أنهما، ومن ذلك اليوم أصبحا عاشقين لا يستطيع الواحد منهما التخلي عن الآخر، فقد تمكنا من تحديد اللقاء الثاني في منزل بعيد عن أعين الفضوليين الذين يمكن أن يجعلوا من سيرة الرئيس على كل لسان، حتى أن التفتت على الفيلما أثبت بأن الرئيس كينيدي كان يعاني من فكرة الطلاق من جاك، والزواج من مارلين مونرو التي كانت تطلب منه الزواج حتى لو ترك البيت الأبيض، وحتى لو كلفه كل شيء وترك الرئاسة، وكانت مستعدة لأن تترك التمثيل والفن، وأن تمضي حياتها معه خارج الزمن. والحق لم تكن جاكى أقل جمالاً من مارلين، وإن كان لها الكثير من الهفوات الانتقامية من زوجها ولقد ذكرت بعض الصحف والدساتير المعلنة على الملأ: أنها أقامت أكثر من علاقة سرية مع أشخاص معروفين، وغمزت بعض المطبوعات محدودة الانتشار إلى وجود علاقة انتقامية عملتها جاكى مع تيد كنيدي عندما كان الأخير في العشرين من عمره، و تيد هو صاحب مشروع «لا طفل يُهمَل بعد الآن»، يمكن لنا تجاوز عشاق جاكى لأنها ليست هي القضية التي نرمي إليها، ونحن نعلم أن «النفس أمارة بالسوء». والعبارة تعينني لا تعني جون كنيدي، الذي تعلق قلبه بامرأتين مدهشتي الجمال، فكيف إذا صرع الواحد مئاً حب من هذا النوع، وعلى شاكلة التعويض عن خسارات معروفة لنا هنا، نحن أبناء شرق الأرض. لا شك أن صراعاً درامياً سينشب بين أضلعنا، وسيمتلئ القلب بمزيد من التساؤلات عمّن سنختار، ومن يريد القلب أن يصطفي. أنا شخصياً لم أقع بحب من هذا النوع، وما عرفت لوعة الملتاع، ولا مرت بي نار الوجد، تلك النار الحامية التي خصها الشعراء بفيض من القصائد منذ امرئ القيس وجميل بثينة حتى اليوم، حيث قصائد نزار قباني تُغنى الآن بأجمل الأصوات، وهي تتحدث عن لحظة الصراع بين الحبيب وبين المحب. غير أنني وجدت جورج بوش قد تعلق قلبه بلورا أكثر من كنيدي، وحبهِ لجاكلى، ولكن الحب أعمى كما يقال عندنا هنا في أرض الشرق «الطاهرة المقدسة!»، بل قل إنني استنتجت أن آل بوش أكثر حبا وحرصاً على زوجاتهم من آل كنيدي الذين

بتبرير الحرب على من أسماهم دول الشر، ولم تكن التسميات الجاهزة تعينني كثيراً لأن التسمية هذه يمكن أن تشمل دولاً أخرى إذا شاء أن يزيد العدد، ما دام قد انتخب رئيساً جديداً وبيده الحل والعقد، ولا ينكر درجة الصدق في الكتاب عندما يتعرض المؤلف إلى مناحي بيتية أو أسرية أو شخصية، فهو لا يتوانى عن قول الصدق بجدارة، لكن ما تجنب بوش ذكره في كتابه المهم ما حصل بين جون كنيدي والممثلة الشهيرة مارلين مونرو في تلك السنوات، وهو غير معني بهذا الأمر تماماً، ولكنني أردت إثراء قصتي هذه بما أعرفه عن كنيدي ومونرو وما لا يتذكره بوش (ربما) عنهما معاً. كنيدي كان رجلاً عاطفياً خلاف شخصية بوش الابن، الذي كان صارماً وقاسياً جداً. أليس كذلك يا جورج؟

حين شاهدها أول مرة، في حفل خاص لكبار الشخصيات البارزة في المجتمع الأميركي، في الحقيقة كان رأسه مشغولاً بأزمة جزيرة الخنازير، وجنون فيديل كاسترو في تدمير الدكاتوريات في دول أميركا اللاتينية، ومع هذا تقدم كنيدي بطريقة مهذبة ووقف أمام الفاتنة مارلين مونرو بكل جنتلامانية صادقة: أه أنا سعيد حقاً بوجود الجمال الأميركي الباهر سيدة مونرو.

قالت مونرو: أه ، أنا لست سعيدة بوجود رأس الحكومة هنا.

انفجر الحضور القريب منهما بالضحك المدوي، لم تكن جاكلى كنيدي من بين الحاضرين، فقد طلبت من زوجها الاعتذار عن عدم الحضور لانشغالها في احتفال لإحدى الجمعيات الخيرية المسماة «لا طفل يُهمَل بعد الآن»، وعلى عاداتها المعروفة للجمع، ارتدت جاكلى أجمل ما يناسب الاحتفال الخيري، بحيث بدت تستحق لقب جاكى الذي يناديها به زوجها، جاكى، وهي تسمية تروق لكاتب القصص استخداماً في نصوصه لأنها ستزيد الشحنة العاطفية مقداراً معقولاً من التشويق الضروري للقصص التي تكتب عن الملوك والسلاطين، لا القصص التي أوصى بكتابتها الإنكليزي الأصل هنري جيمس «خمسة ملايين طريقة لكتابة قصة واحدة»، بل على طريقة بول أوستر مجنون الميّا سرد كل شيء يمكن أن يتهدم بين أيدينا، ولكننا مجبولون على البناء ثانية. ستكون الحكايات متداخلة دون أن نصاب بالملل من ثرثرة الحكواتي الذي لا يمل من سرد القصص الملققة علينا. بالطبع لا أقصد القصص ذات البعد الرومانسي الذي يجذب بعباراته المنمقة الرؤساء والمسؤولين بحسن البيان واللغة الرشيقة، لا أعني هذا النمط من الكتابات قط، إنما ما أعنية تلك القصص التي نجد أنفسنا فيها كأننا نحن صنعها. ارتدت جاكى أجمل ما تظنه سيحول أنظار جمهور الحفل إليها، ولو شاهدها كنيدي في آخر لحظة أتمت فيها زينتها لانبهر بها تماماً، ولن يتقدم من مارلين مونرو في تلك اللحظة



## خواتم

## أنمار رحمة الله

صيا، العزاوي



منذ زمن بعيد احتدمت نار الحرب، وانطفأت بعد التهامها آلاف القتلى. مات فيها رجال كثر. والذي لم يمّت في تلك الحرب، مع أنه كان متلهّفاً لنيل الشهادة، كما تقول والدتي في كل محفل يأتي فيه ذكر اسمه أو يذكر أحدهم به، فتبادر والدتي إلى قض مسيرته ونضاله في الحرب. عن نفسي أنا لا أذكر والدي جيداً، فأنا لم أره لأنّه توفي بعد سنتين من مجيئي للنديا. ولم تكن له صورة سوى الصورة الكبيرة التي تعلقها أمي في الصالة، الصورة التي يظهر فيها أبي بكامل أناقته، واقفاً خلف أمي التي كانت تغطي الصورة بفستان زفاف واسع.

لم أكن أشبهه إلى حد كبير، ولم أكن أشبه أمي أيضاً، وحين أسألها «أي الفريقين أشبه، أخوالي أم أعمامي؟»، تردّ «أنت تشبه والدك. أنظر أنت نسخة طبق الأصل منه». لكنني لم أكن مقتنعاً برأيها، وكنت أقول إنه مجرد وهم يغزو عقلها، لأنها فقدته فظلت تشناق إليه، وتتمنى هذا كما تتمنى الكثير من الأمهات، حين يعتقدن أن أبناءهن يشبهون آباءهم.

الشيء الوحيد الذي كنت أعتزّ به، وقد أهدته لي أمي بعد أن كبرت، هو خاتم والدي الثمين. كان خاتماً ذا شذرة غريبة، تتفرع في تفاصيلها خيوط سود كأنها عروق. لون الشذرة كان فيروزياً بلون السماء، وعلى أي حال كانت برغم الغرابة في شكلها تبدو جميلة، وقد أحببتها لأنها إرث وراثته من والدي. بعد أن عرفت أصلها ومن أين أتى الخاتم تمسكت بها إلى أبعد حدّ، فهي غنيمة اغتنتها أبي من يد جندي معادٍ. كانت أمي تحكي كيف تصارع الجنود على الغنيمة، لكن والدي بقوته وشدة بأسه قد استولى عليها غانماً، ثم ارتداه بأصبعه لسنوات، متفاخراً على الرجال بهذه الغنيمة الجميلة الغريبة.

العجيب أن حالة الفخر بهذا الخاتم بدأت تستحوذ على عقلي وقلبي وكلامي. كنت أخرج للأولاد حين كنت صبيّاً، يرونه في إصبعي مع اتساعه وعدم ثباته، لكنني لم أفرط به أو أضيعه يوماً. كنت أحكي للصبيّة عن خاتم أبي وعن تلك القصة التي روتها لي أمي. صحيح أنني كنت أبالغ مرة، ومرة أخترع حدثاً جديداً في قصة اغتنام الخاتم في الحرب، لكنني كنت كمن يريد إيصال فكرة هذا الفوز، والغنيمة الكبرى التي حصلت

عليها أسرتي. لقد كنت متشوّقاً حدّ الموت إلى أن أكبر وتصير كفي بحجم كف أبي، لكي يثبت هذا الخاتم في إصبعي، ويحق لي التفاخر به والحديث عن قصته. وما هي إلا سنوات حتى تمّد جسمي وكبرت كفي، وصار الخاتم جزءاً منها. لم أفارقه حتى في النوم والاستحمام. وكنت إذا خرجت من المنزل رفقة أمي أو وحدي تسألني:  
- هل لبست خاتم أبيك؟  
فأجيبها:

- نعم، نعم، كيف لي أن أنسى هذا الشيء.

حين خطبت لكي أتزوج، كانت أمي مشغولةً بسرد قصة الخاتم. وحين عثرت على وظيفة، كنت أحكي القصة للموظفين حتى ضجروا مني. أعذرهم بالطبع لأنهم لم يفهموا قيمة هذا الشيء، وما يعنيه لي ولأسرتي. حتى أطفال الذين جاؤوا إلى العالم، كنت أحكي لهم قصة اغتنام الخاتم، والبطولة التي صنعها أبي في المعارك. وأمّي أيضاً كانت تحكي لأحفادها القصة ذاتها حتى حفظوها عن ظهر غيب، وراحوا يكرّرونها على أطفال الحيّ في كل مناسبة.

لم يكن ينقصني سوى صورة أخرى لأبي، غير صورة العرس الكبيرة. وكلما سألت أمي عن صورة أخرى كانت تجيب: «لا توجد له صورة. آآه، كان وضعنا لا يسمح. تعرف قديماً كانت الصورة تلتقط بصعوبة». ومع كل هذه الإجابات من أمي، قررت البحث عن صورة لوالدي، فلم أكن مقتنعاً بكلامها، وبالفعل ذهبت إلى المصور القديم، أخذت اسم الاستوديو الذي يملكه من أسفل الصورة. كان المحل مهجوراً مترباً، وكان المصور جالساً على مقعد قديم، برأس أشيب، وعينين تختفيان وراء نظارتين كأنهما كعبا قححين. سألته عن صورة عرس أبي مع تاريخها ورقمها، وإذا بالمصور قد تعرف عليّ مباشرةً. ثم أخذ يحكي عن الصورة، وكيف أن أبي لم يكن يملك ثمن البذلة، واستدان بذلة لكي يرتديها في الاستوديو. تضايقت في الحقيقة من حديث المصور، لأنني أعرف جيداً أن والدي كان غنياً كما حكّت لي أمي، بل كان ينفق على عوائل من الفقراء في الحي، فكيف يستدين بذلة في يوم عرسه؟ ثم أنني قررت

أن أصفع ذلك المصور كما صفعني بالكلام، فرحت أتباهي بخاتم والدي الذي ألبسه، وكيف أن الخاتم ظل باقياً ولم نفرط به، حتى بعد رحيل والدي، وتلك القصة البطولية له في الحرب. ضحك المصور، واستفزني جداً بضحكته ثم سألني:

- من أخبرك بهذا؟

أجبت فوراً:

- أمي بالطبع. لبست أمي وحدها، بل الجميع يعرف هذا.

رد المصور بكلمات منهكة:

- والدك لم يلبس خاتماً في حياته.

دقّ قلبي بسرعة غيضاً من كلام المصور، وهتفت في وجهه:

- إنت تكذب. إنت تغار وتحقد على الأبطال لأنك مصور هرم تعيش بين الأتربة.

ربت المصور على كتفي وقال:

- تعال هنا.

دخلت إلى مخزنه القديم، وظل المصور يبحث بين الأغراض، يبحث ويبحث وأنا أسترجع كل لحظة، وكل كلمة قد مرّت على لساني وفكري طوال السنوات الماضية، وأخيراً هتف:

- ها هي..

ثم أقبل نحوي، ووضع في كفي صورة عتيقة، وأشار بأصبعه قائلاً:

- هذا أنا.

ظهر المصور في الصورة شاباً يجلس على كرسي بباب محله، حاملاً كاميرا قديمة، ويجلس إلى جنبه على الأرض رجلٌ معاق بلا ذراعين، ذو ملابس بائسة رثة. كانت ملامح الرجل المعاق شبيهةً بملامح الرجل الواقف وراء أمي في صورة الزفاف.



## الخوافات

### إنعام كجه جي

صبياء العزاوي



العمل. رئيس الشعبة الذي يريدني بدقة الحاسبة الإلكترونية. رئيس القسم الذي ينظر إليّ نظرات وقحة كلما مررت من أمامه، سرعان ما تهبط نحو الساقين. مسؤول شؤون الموظفين الذي لا يكفّ عن الاستفسار عن ميولي السياسية وميول أفراد عائلتي، حتى الجد السابع. وبقدر خشيتي من زوجي، كانت ترعبني احتمالات انزلاقي في هاوية عاطفية طارئة، تكون الملاذ الذي أحتمي به من الجفاف المحيط بي. وهكذا فإنني كنت أخاف الآخرين وأخاف نفسي أيضاً. ألتجئ إلى أعين شقيقتي اللواتي تقاسمن معي الغرفة واللحمة واللحاف، تبادلن المعاطف والأحذية ومشابك الشعر، ولا أجد في أعينهن فناً يهديني، بل أصداء لذلك الخوف الرهيب الذي يسيطر علينا... فأزداد انكماشاً.

... الى أن كان يوم!

تخاف أحداً على هذه الأرض خارج ذاتها. لكنها تدرك أن جرأتها تقودها خطوة خطوة نحو الدمار. كنت أقول لمنى، عندما نفرد معاً ونتبادل الاعترافات الحميمة: «أحسدك على جرأتك». ثم أدق على الخشب ضاحكة. أما هي فكانت ترد بيقين مخيف: «جرأة المرأة عنوان جميل لحياة قصيرة».

أنا الأخت السابعة، أخاف من كل الأمور التي تفرع شقيقتاتي. كلها مرة واحدة. المرض الذي يترصدني في كل شقيق. السنوات التي تتقلب أيامها وأشهرها بأسرع من تقلب أوراق كتاب. الموت الذي يحصد الأقارب والأصدقاء مثل كف شرهة تقطف الأنفاس ولا تشبع. وكنت أخاف زوجي، وأخته أستاذة الجامعة التي لا تخفي انزعاجها من أنني نقلت إلى أبنائي لهجة الحي الفقير الذي نشأت فيه.

أنا الخوافة السابعة، لا أخشى مديري فحسب، بل مدرائي في

كل يوم وتندر النذور لكي يتم نقل المدير إلى دائرة أخرى، قبل أن يكتب عنها تقريراً يؤدي إلى تقليل راتبها، أو حرمانها من الترقية، أو فصلها من الوظيفة. وقد انتسبت وصال إلى الحزب مع أنها لا تفقه شيئاً في السياسة، لمجرد أن تبدو أقوى أمام مديريها. بدون جدوى. إنه يترصد كل هفوة. ومركزه في الحزب يجعله بمنأى عن صلواتها ونذورها. لن يفصل. لن ينقل. لن يحال على التقاعد. وستبقى تحت رحمته، تطوي صدرها على هواجسها إلى ما شاء الله.

كل واحدة منا لها خوفها الخاص. أختي منال تخاف على خطيبها، الذي هو ابن عمنا. الشاب الذي فتحت عينها على حبه. حين خطبها، كانت سعيدة إلى درجة جعلتها أجمل وأرشق وأكثر بريقاً. وكان نادر، خطيبها، مهندساً حديث التخرج وجندياً في الاحتياط. لكن الحرب قامت. وبذل أن ينهي نادر خدمته العسكرية في سنتين، أصبح الأمر مرهوناً باستمرار الحرب. وذبلت منال. خبا بريقها وتحجرت نظراتها. سكن الخوف وجدانها كله. ربّ لا تجعله طعماً للنار. «ربّ أبعد عنه القذائف والشظايا واحمه من الأسر. ربّ أعده سالماً وخذ مني ما تريد». وكلما دخلت الحرب سنة جديدة، كبر خوف منال ولم تتعود أن تعيش على إيقاع الخطر. كانت تنهار في نوبة من القشعريرة والتقيؤ كلما سمعت باستشهاد جندي من أبناء الجيران. تبقى واقفة مثل دمية خشبية فوق سطح الدار، يوماً ويومين وثلاثة لعل نبأ يأتيها بأن خطيبها ما زال حياً.

أيتها النجوم، كم تشرفين من عليائك على أحزان الخوافات! وصل الأمر بمنال، في إحدى نوباتها، إلى الصراخ وهي تشدّ شعرها: «ليته يموت مرة واحدة وأستريح!».

ثم راحت تلطم صدرها نادمة على الكلمات المجنونة التي صدرت عنها. تستغفر ربها وتتنحب وتخمش وجهها. فشلت كل محاولات أختي منى لتقيد يديها ومنعها من إلحاق الأذى بنفسها.

منى؟ انها الأخت التي لا تخاف إلا من ذاتها. من عواطفها الجامحة ونزواتها العيفة ومن ذلك الطبع الحاد النزق والرغبات الهائلة المعلنة وغير المعلنة. هي الأجرأ بيننا. لا

نحن سبع شقيقات كلنا خوافات، أختي عاتكة، كبرانا، تخاف السرطان الذي ألتهم ثديها الأيمن فاستعاضت عنه بقطعة من البلاستيك. تدسها في صدرتها كل صباح فيعتدل مظهرها. وفي الليل تطفئ أختي نور غرفتها قبل أن تخلع ثيابها، ثم، وكمن يكشف عنه عقرباً ساماً، تخلع الغدي الكاذب وترميه في عتمة خزانة الثياب وهي تحاذر أن تنظر إليه تعيش عاتكة خوفاً مستمراً من أن يمتد السرطان إلى ثديها الأيسر، وبطنها، وحنجرتها، ورحمها، وبقية أجزاء جسدها. وهي تعودت أن تعيش قلق الأشهر التي تفصل بين زياراتها الدورية المنتظمة للمستشفى، دون أن تتعود الخوف نفسه. أراقب هواجس شقيقتي الكبرى، فيحلو لي أن أخذها في حضني وأمسد على شعرها الجميل وأطرد عنها أشباح الخوف. وأتمنى لو أفعال الأمر نفسه مع أختي عفاف.

عفاف تخاف من زوجها. من تجريحه المستمر لها لأنها أحبت قبله زميلاً لها في الجامعة. سافر إلى هولندا لإكمال دراسته ولم يعد. وحسام، زوج عفاف، يعرف تفاصيل قصة الحب القديمة، لكنه يرفض أن يقلب الصفحة. وهو ما إن يصب في جوفه كأساً من الكحول حتى يبدأ بتعذيب عفاف وتذكيرها بحبها الفاشل وبحبيبها الذي فضل عليها نساء أوروبا. يقتل، ذلك التذكير اليومي الشامت، في أختي الأمل بحياة زوجية سوية. إنها تخاف من إنعائها المستمر للإهانة، وتخشى أن يقودها التحريض الجارح إلى أن تهدم بيتها بيديها.

أختي عاطفة ليس لها زوج تخاف منه. لكنها تخاف الزمن، وتضع وجهها في وجه المرأة ساعات طوالاً. تتحسس التجاعيد الصغيرة. تشدّ ترهل الرقبة. تدهن البقع الجافة وتطارد الشمرات البيضاء دون أن يطمئنها كل ذلك. إن نظرة الرعب سرعان ما تقفز إلى عينيها كلما فتح أحدهم سيرة العمر، بحيث أننا صرنا نتعمد تجاهل الاحتفال بعيد ميلادها أو تذكيرها به، لأن معنى ذلك أن نتهاوى مريضة لعدة أيام، وأن نمرض، نحن السبع، معها. كنت أفهم أشكال الخوف، إلا ذلك الذي يمتلك أختي وصال إزاء مديريها في العمل. إنه شيء يتجاوز الرهبة المعتادة التي يشعر بها الموظف أمام مدرائه. خوف حقيقي يجعلها تصلي



# الجدید

تدعو الكتاب والمفكرين العرب  
إلى المشاركة في محاورها وملفاتها القادمة

تيارات التفكير العربي  
ظهورا ومدا وجزراً

حال الكتاب العربي  
كيف تنشر الكتب

في العلاقة بين الكاتب والناشر والقارئ

الاستبداد الشرقي  
دور الحاكم المستبد  
في صناعة الاستبداد الديني

الشعر والتجريب  
هل وصل التجريب الشعري العربي  
إلى حائط مسدود

الكتابة والأنوثة  
هل تكتب النساء العربيات بلغة الرجل  
أم أن اللغة بلا جنس

الصحافة الثقافية العربية  
أحوالها، توجهاتها، علاقتها بالكتاب والقراء

فكر حر وإبداع جديد

سجدنا في الماء من هول المفاجأة. كان مجيء البحر إلى بغداد أسهل من عودة الثدي المُجثث إلى صدر أختي. كانت ترقص فوق الرمال محلولة الشعر مشرعة القميص. كاهنة تُصلي للآلهة. تلهج بنشيد الحياة السري. هل مرّ الوقت علينا كما يمرّ على سائر البشر في سائر أنحاء الأرض؟ ألم نتفق أن الوقت والزمن والساعة والعمر كلها أسماء ممنوعة؟

نظر السائق إلى الشمس التي بدأت تتوارى وراء الأفق. سحب نفسه من أحضان منى ونفض رأسه من الرمل والغياب. وقف وصقّق يديه الضخمتين قائلاً إن أوان العودة قد حان. غصنا بالطمأنينة الجديدة علينا لمجرد سماع الصوت الأمر بالعودة. حاولنا الاعتراض فتدخلت أصواتنا بالحجج. أصر على قراره. قلنا لآدم الوحيد في جنتنا:

- اذهب واتركنا.

- جئت بكنٍّ وأعود بكنٍّ.

توسلنا، سقنا أبرع حيلنا، جزيّنا أساليب إغراء لم نجزيها، لكنه لم يتراجع. كان قد نهض من الرمل مثل كائن أسطوري عظيم البأس، وبدأ يمد يديه إلينا ليسحبنا، رغماً عنا، إلى الباص الجاثم هناك مثل قبر كئيب. لم تكن شيريات، لكن رحلة العمر لا يمكن أن تنتهي بقرار من رجل غريب، حتى ولو كان شريكنا في المعجزة. جزّنا من أذرعنا من جديد فتماسكنا ضده. رفع يده ليضرب عاطفة فرفعنا قبضاتنا وهجمنا عليه. كانت الشمس قد توارت وحلّ ظلام شفاف. والشقيقات السبع استعدن رشداً فقدنه من قسوة الخوف.

أمسكت منى باليد الخشنة التي أشبعتها تقبيلاً ولوتها إلى الخلف. شلتّ عفاف ومنال ساقِي الرجل الذي يريد أن يكون أخطبوط الليلة العجيبة. كان قوياً وكنا، بجموحنا، أقوى منه. كان ذكراً جباراً وكنا إناثاً مقهورات مدريات على الخوف، ساعيات إلى لحظة أمان. أحطنا به بكل عنفواننا. كل واحدة منا مستعدة لأن تغرس مخالباها في عينيه. لولا أن صوت عاتكة جاءنا باتراً:

- أتركن الحركة الأخيرة لي.

هجمت عليه محلولة الشعر، مكشوفة العافية، خارجة من حصار المرض. مغسولة الكفين من دبق الخوف. أطبقت على رقبة الرجل المزمجر دونما تردد، ونحن من حولها نستمدّ من ضعفنا قوة.

أخمدنا الأنفاس التي جاءت بنا إلى بحر بغداد، لئلا تعود بنا منه.

1993

العائلة؟ صعدت منال مرتدية فستاناً أحمر، هي التي خبأت كل فسائيتها الملونة منذ ذهب خطيبها إلى الحرب. كانت تضحك وتضحك وهي تقبلي وتقبل الأولاد وتقول إنها قررت اللحاق بنا في «رحلة العمر». وقبل أن تستقر منال في مقعدها، توقف الباص من جديد لتصعد أختي عاتكة. كان شعرها الطويل مصفّفاً في جديلة تنسدل بدلال على ظهرها، بعد أن كانت تربطه في مؤخرة الرأس مثل عجائز القرى. نظرت عاتكة إلينا معاتبة وهي تبتسم بحبور:

- أهكذا تتأمران من وراء ظهري وتنطلقان في رحلة العمر من دوني؟

دار الباص بنا بخفة. كأنه يتحرك وفق سلّم موسيقي أليف الفوضى. ولما توقف في المرة الثالثة صعدت منى دون أن تكلف نفسها عناء التحية. جلست جنب السائق مباشرة ووضعت كفها اليسرى على كفه التي تمسك بالمقود. سمعتها تغني له أغنية من فيلم قديم. ثم صعدت وصال. كيف سؤلت لها نفسها أن تترك الوظيفة في بحر الأسبوع وتثير غضب مديرها الجبار؟ وعلى تخوم المدينة، وقف السائق ليأخذ عفاف وطفلتها هبة. كانت تحمل معها حقيبة ثياب، كأنها على سفر. ولم يكن يبدو عليها شيء من أحزان الفراق أو لوعات الحنين. ولما صعدت أختي عاطفة، أخيراً، هلّلنا جميعاً لإشراقها التي جعلتها تبدو وكأنها أصغر من عمرها بعشر سنوات. لم تسأل أيّ منا شقيقتها إلى أين نتجه. كنّا متفقات على التجاهل. متواطئات مع السائق الذي أرسلته السماء. راغبات بالابتعاد. واثقات أن كل الاتجاهات ملائمة للانفلات ما دمنا معاً.

كانت المدينة قد أصبحت بعيدة عندما لاح أمامنا شاطئ. ولم أكن أعرف يوماً أن مدينتنا تقع على البحر، أو أن هناك بحراً قريباً منها. ولم أهتم بالسؤال. هل أصدق أطلس الجغرافيا وأكذب عيني؟ نزلنا إلى الساحل الرملي، الكبار منا يسابقون الصغار. من الكبير؟ من الصغير؟ ما العمر؟ ما الحياة؟ ما الفرح؟ ما الخوف؟ ما الحب؟ ما الحرية؟ ما الجنون؟ أسئلة ممنوعة في فضاء رحب. تحت سماء مفتوحة على المستحيل.

ركضنا مع خيالنا نسابق ظلالنا حتى بلغنا الموج. كنّا نتعثر ونضحك ونصرخ ونعاني وطأة السرور. غطسنا، والسائق معنا، في لجة مألحة وغسلنا أعيننا بماء الطمأنينة. أزلنا عن جلودنا قشرة الخشية المتبسة من دهور. ومن غمرة انهماكنا الجسدي والوجداني بمصافحة اللحظة النادرة، جاءنا صوت عاتكة تلهج بنشيد الحياة السري. التفتنا إليها والرمال والملح تلتصق بوجوهنا. رأينا ضفירתها محلولة وشعرها مبعوثاً في الجهات الأربع، تفكّ أزرار قميصها الأبيض المطرز وتترك نفسها للشمس. صعقنا المشهد.

انكشف قميص عاتكة عن نهدين مباركين مترعين بالعافية!

نزلت من البيت أمسك بيد البنت والولدين أوصلهم إلى المدرسة كعادتي كل صباح. كان ذلك اليوم هو الثلاثاء. يوم مثل باقي الأيام. في شهر مثل باقي الأشهر. في سنة مثل باقي السنوات. أستيظ في السادسة والنصف فأجهّز الفطور وأوقظ الصغار. أغسل وجوههم وهم نصف نيام. أمشط شعورهم وألبسهم ثيابهم ثم أؤدس طعامهم في حقيبة الكتب. أسرع بهم إلى مدارسهم قبل أن أجري إلى عملي. أي شيطان جعلني، ذلك اليوم، أغير البرنامج؟ قلت لأبنائي إنهم لن يذهبوا إلى المدرسة. وإنني لن أذهب إلى عملي. سنركب الباص ونتركه يأخذنا إلى المحطة الأخيرة. وخلال ذلك سنفكر كيف سنمضي بقية النهار.

تركنا حقائب الأولاد عند بائعة الخبز في أول الشارع. انتظرنا الباص لتتراءف فيه وسط زحام الصباح. كنا مضطربين لمجرد إحساسنا بأن أمامنا فرحاً كبيراً... مختلفاً. سار الباص متثاقلاً مثل حبل. يفرغ ما بجوفه محطة بعد محطة، حتى أصبح لكل واحد منا متسع للجلوس ومد الأرجل. لم أتبادل مع أولادي أيّ كلام. تركتهم لصخبهم ودهشتهم ورحت أتابع الحركة الدائبة على الأرصفة. أتساءل: هل بين هؤلاء إنسان لا يخاف البتة؟ وكيف يعيش إنسان لا يعرف الخوف؟ كيف يسير؟ كيف يتكلم؟ كيف يضحك؟ كيف يحب؟ وعند المحطة الأخيرة التفت إلينا السائق متسائلاً. يبدو أنه لمح في أعيننا تلك النظرة التي لا تقاوم. نظرة غريق يلتمس قشة تُبقي به على ضفاف العيش.

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء وازداد الطقس حرارة. لم ينطق السائق بكلمة. وقف وخلع سترة العمل الزرقاء واكتفى بما تحته من رداء قطني قصير الكمين. نزل ورفع عن الباص اللافتة التي تشير إلى الاتجاه. أزال الرقم وعاد إلى مكانه ليطلق نفْساً جباراً اختلط فيه الشهييق بالزفير... وانطلق بنا. قطع الباص شوارع لم أرها من قبل. مرّ بأحياء جميلة نظيفة، وبيوت هادئة، وعمارات تبدو وكأنها مكاتب يعمل فيها مدراء متسامحون وتتنقل فيها موظفات آمنا. لم أكن أعرف أن مدينتنا تخبي كل ذلك السحر وهي تستقبل ارتفاع قرص الشمس وتسارع حركة البشر. إن بغداد، صباح الثلاثاء ذاك، كانت أدفاً المدن وأطفها وداً. كيف لم نفطن إلى حضنها الوثير الجدير بالأمهات؟

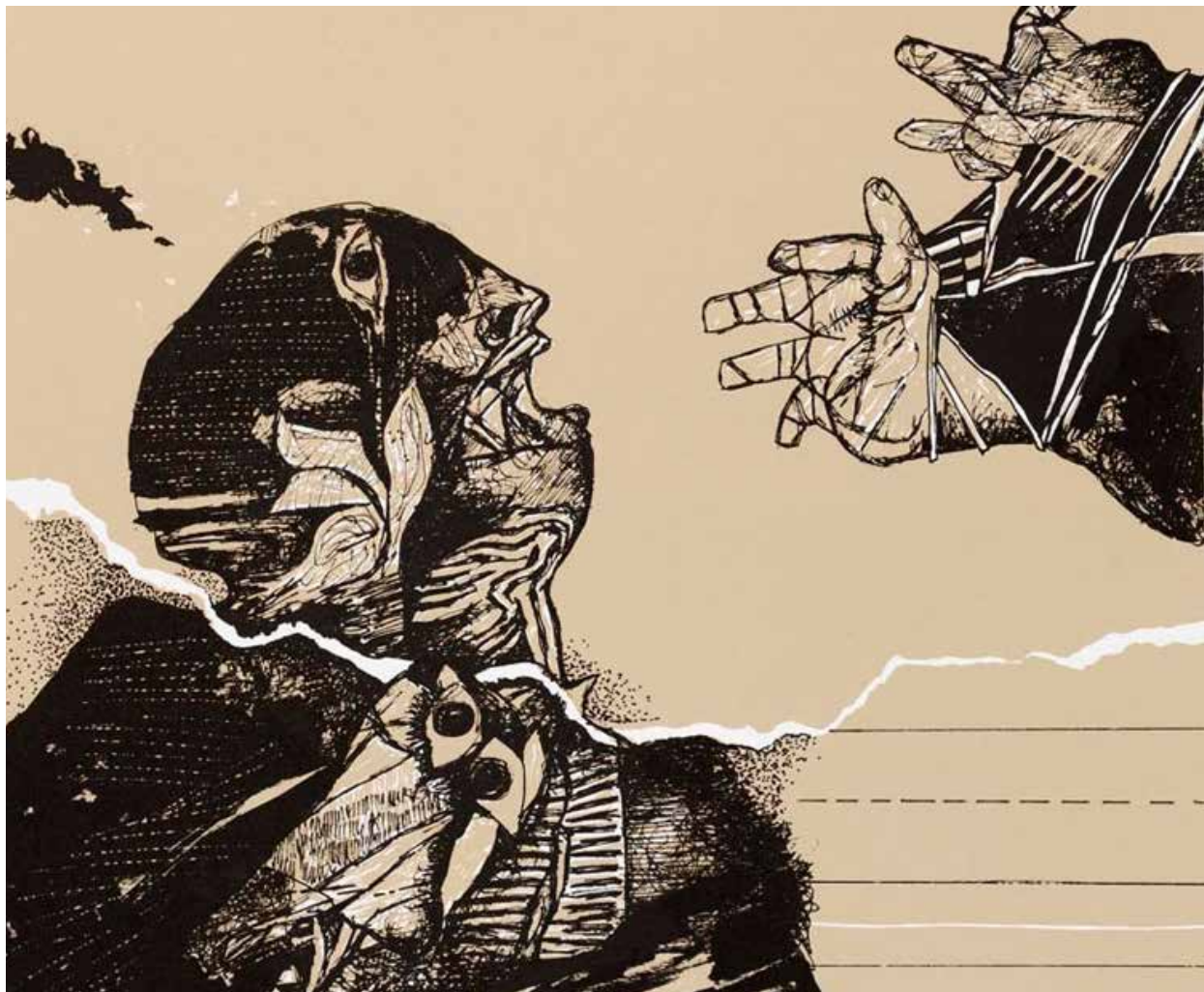
لكن الباص توقف.

ما الذي يجعل السائق يدعس على الكابح، فجأة، فنندفع في مقاعدنا إلى أمام ثم نرتد ضاربين ظهورنا إلى الخلف؟ من هذه الفتاة الحسنة التي أشارت إليه تنوي الركوب؟ انفتح الباب الأوتوماتيكي وصعدت شابة تبدو نسخة طبق الأصل من أختي منال. ماذا تفعل أختي في هذا الحي البعيد عن بيت

# لماذا لا نذهب إلى البحر كثيراً

## بشينة الناصري

ضياء الراوي



أتذكر أن الوقت كان أواخر الشتاء، ولكن الشمس يومها كانت ساطعة، حين توقفت السيارة الصغيرة البيضاء على شاطئ البحر.

قالت أمي، وهي تطفئ المحرك:

- احذروا أن تبللوا ملابسكم.

اندفعنا باتجاه البحر، نرتجف شوقاً إليه، شريف ورفيق وباسر وأنا، شمرّ أطراف البنطلون، وكذلك فعل الآخرون. خلعنا أحذيتنا، وركضنا نحو الماء، ونحن نحجل على الحصى الصغير المتناثر على رمل أبيض.

لسعت برودة الماء باطن قدمي، واخترقت جلدي، قشعريرة فرح، فتوغلت في الماء، غير آبه بالبلل، والماء ينقع البنطلون حتى فخذني. فجأة، لطم خذي نثار ماء.

التفت، كان رفيق يعاود الانحناء ليملاً كفيه من ماء البحر، ولكن قبل أن يعتدل صوّب نحوه رشّة بقدمي اليسرى، التي اعتدت أن أركل بها الكرة.

ودون أن ندري، كنا جميعاً وسط البحر نتقاذف الماء، حتى سمعت صوت أمي يناديني غاضباً. التفت مرغماً، وجدتني تلوح من بعيد، وهي تسند ظهرها، على باب السيارة.

خرجت إلى الشاطئ، ومشيت نحوها متردداً، والماء يقطر من ملابسني، شاعراً بالأسى لانهاء المتعة سريعاً. لكنها حين اقتربت قالت:

- اخلع ملابسك. ضعها هنا على سقف السيارة لتجف.

- ملابسني كلها؟

- كلها. تستطيع أن تسبح إذا شئت. هل الماء بارد؟

- قليلاً.

- إذن هيا، وليفعل إخوتك مثلك.

بلمح البصر، كنت قد خلعت ملابسني حتى لم يبق سوى القطعة الداخلية الأخيرة، ورجعت طليقاً نحو إخوتي، الذين ما إن رأوني حتى تراكضوا نحو الشاطئ، وهم يتملّصون من ملابسهم شيئاً فشيئاً، وسرعان ما اختفت معالم السيارة تحت الملابس المنشورة عليها.

أحسست بكل ذرة في جسدي تتوتر، وبعضلاتي تتجمد، وأنا

أرتمي على الماء. غصت حتى عنقي، ولكن البحر كان دافئاً. ضربت الماء بذراعي قليلاً، ثم انقلبت على ظهري، وتركت نفسي مرتخياً، أنظر إلى سماء زرقاء صافية. ثم أغمضت عيني، وأنا أحس بجسدي يتهاوى على الموج الخفيف، حتى انتابني شعور بأني توغلت مسافةً كبيرةً داخل البحر، عندها فتحت عيني فزعاً، وجاهدت لأقف على قدمي، فإذا بهما تلمسان الأرض، وإذا بي قريب من الشاطئ.

كان رفيق وشريف يرشقان أحدهما الآخر بالماء. أما ياسر، أصغرنا، فقد وقف، بجسده الناحل، ينتفض مرتجفاً على حافة البحر.

أشرت إليه أن يأتي:

- هنا الماء دافئ. تعال، لا تخف.

تطلع إليّ متردداً، فهتفت:

- أمسك يدي.

لكنه تراجع إلى الخلف، ضاماً ذراعيه إلى صدره، وعيناه تعانقان البحر شوقاً.

بعد نحو عشرين سنة، حين رأيته مسجى على طاولة المشرحة، وقد جيء به من جبهة القتال، وجسده العاري ناحلاً شاحباً، وذراعا مضمومتين إلى صدره، تذكرت صورته ذلك اليوم، وهو واقف على الشاطئ يرتعش خوفاً ولهفةً. وشعرت بالأسى، لأن الخوف يومها ابتلع رغبته في مجاراتنا. وها نحن لن نذهب إلى البحر معاً بعد الآن. كان وجهه هادئاً، وعيناه مفتوحتان، على بحار وسموات غير مرئية. همست يائساً:

- لماذا لم تنزل إلى البحر؟ كان الماء دافئاً والشمس ساطعةً.

لكنه ظل يتراجع حتى استدار راكضاً. خرجت وراءه مهتداً بأن أجزه الى البحر، فلاذ بأمناء التي كانت تقف إلى جوار السيارة الصغيرة.

حين اقتربنا، فوجئنا بها تمسك بسيجارة، رفعتها حين رأتنا إلى فمها، ونفتت دخانها في وجهينا، وهي ترتقب زهولنا، بعينين باسميتين. كانت المرة الأولى في حياتنا التي نرى فيها أمنا تدخن سيجارةً.

هتف ياسر:

- دعيني أجرب.

فوضعت السيجارة في فمه، ولكنه حين حاول أن يسحب الدخان اختنق بالسعال. تشجعت واقتربت، وعاجلت إلى امتصاص السيجارة، بعمق، ونفتت الدخان بمهارة، كنت قد أتقنتها في الشوارع الخلفية.

ومع تبدد الدخان، في هواء ذلك اليوم الشتائي، بدأت أرى أمي بضوء مختلف، متواطئةً وصديقةً، وفي الوقت نفسه كان يتنامى في داخلي شعور بالقلق، من براعتها في إخفاء هذا الأمر عنا، حتى أننا لم نعر، يوماً، على آثار سجائر في بيتنا. ولكنها كانت قادرةً على إخفاء أمور أخرى، توجّتها بقفزها من شباك غرفتها، بعد خمس سنوات، من يوم الشاطيء ذاك، وارتطامها على سلم العمارة الخارجي، بدويّ مكتوم، ظل يرن في أذني سنوات طوال بعد ذلك. أذكر تحلقنا حول جثتها المرمية، بغير عناية على السلم، ونحن نحقق، بذهول اليقظة المفاجئة، من غيبوبة عميقة، نحاول أن نفهم لماذا ترتمي أمنا بلا حراك على سلم العمارة، ووجهها شديد الشحوب غائباً عما حوله؟

- حان وقت الرجوع.

قالت أمي، وانهمكت في مساعدة ياسر على ارتداء ملابسها. برز رأس رفيق من تحت الماء، وقد احمرّ وجهه، وتندت عيناه. نفخ شعره المبلل، وأشار إلى بقعة بعيدة على الشاطئ، حين سألته عن شريف، واتجهت بنظري إلى حيث كان شريف ينحني على الأرض، يجمع القواقع في كيس ورقي.

- هيا يارفيق حان وقت الرجوع.

غطس مرة أخرى، وانتظرت لحظات قبل أن يرتفع رأسه، وهو يصيح:

- هل رأيت هذه الحركة؟

- هيا أخرج.

- ولكن هل رأيت هذه الحركة؟

- أستطيع البقاء مدة أطول منك تحت الماء.

- تعال ولنر من يستطيع أن يقاوم أكثر!

التفت إلى حيث أمي، ثم ترددت هنيهةً، قبل أن أقفز إلى البحر. - واحد، اثنان، ثلاثة.



وغطسنا معاً، في وقت واحد. كتمت نَفْسي حتى أحسست بصدري يكاد ينفجر، فرفعت رأسي، وأنا أشهق، في نفس اللحظة التي ظهر فيها وجه رفيق. نظرنا إلى بعضنا بتحدٍ، ثم انفجرنا ضاحكين. قلت له «هيا لا تدع أمانا تنتظر».

راقبته، وهو يخرج من الماء، يمشي خافض الرأس، كعادته، وكأنه مستغرق في تفكير عميق. كان رفيق أكثرنا ذكاءً وتفوقاً في المدرسة. ينجح دون أن يبذل جهداً في هذا السبيل. بل كان يقضي أوقاته، يلعب الكرة مع أولاد الجيران، أو يتمدد على سرير أمانا (وكان أشدنا التصاقاً بها) يحرق في السقف حالماً. كان يفعل ذلك حين اقتحمت عليه الغرفة، ثائراً، بعد سنوات. لم تتحرك قسما وجهه، وهو يستمع إليّ أعنفه. ولكنني حين أطحت بزجاجة الخمر، التي كان يضعها تحت السرير، نهض متثاقلاً محاولاً أن يمسك يدي، فطمته، وهزته من كتفيه، علّه يصحو، لكنه كان غائباً عما حوله.

ظل جالساً، يستمع إليّ خافض الرأس، وأنا أحاول أن أغريه بأن الوقت لم يفت للعودة إلى الدراسة مرةً أخرى. حين انتهيت رفع وجهه، فلمحت دمعيتين تجريان على خديه. حرق في وجهي، ملياً، ثم تحامل على قدميه، ومشى مترنحاً، حتى جاوز باب الغرفة، حيث أقف، ثم التفت إليّ، وابتسم كما خيل إليّ، معذراً، وغادر البيت.

آخر ما رأيته ظهره المحني، ورأسه المطرق، وكأنه مستغرق في تفكير عميق. شريف.. تعال.

اعتدل شريف، حين اقتربت منه، وقال وهو يربني ما بداخل الكيس الورقي:

- أنظر ماذا وجدت، قواقع كبيرة ملونة.

- ماذا ستفعل بكل هذه القواقع؟

غمغم بشيء ما، وسوّى وضع نظارته، وسار معي، وهو ينحني بين حين وآخر، ليلتقط قوقعة هنا وأخرى هناك.

ودون أن أدري، وجدته أتقل ببصري، بين الرمل، ومخلفات الشاطئ، لألقط القواقع، وأسقطها في الكيس. وجدت واحدة مقفلة. وقفنا نحاول فتحها، فلما استعصت طوحت بها إلى البحر. ثم أخذنا نتبارى، فيمن يرمي الحصى أبعد من الآخر.

كان شريف أقرب إخوتي إلى نفسي، ربما لأنه كان يصغرنى بعام واحد فقط. كنا لا نكاد نفترق، وحتى عندما حصل، بعد انتهاء الحرب، على عقد عمل في دولة عربية، ظل يرأسني، عدة سنوات، بانتظام، وفي كل رسالة، يعد بأن هذا هو عامه الأخير في الغربة، وأن عودته صارت وشيكة. ويمر العام، ويمضي آخر، بل إن رسائله، ظلت تتباعد، حتى انقطعت نهائياً. وبدا كأنه غاب عني إلى الأبد.

توقفنا نفحص قوقعة لامعةً، بخطوط صفراء وبنية، حتى

سمعنا صوت نفير السيارة يتعالى بالحاح، فحثثنا السير.

أذكر الآن، بوضوح، صوت قرقعة القواقع في الكيس الورقي الذي يطوّحه شريف، وهو يسرع إلى جانبي. لا أدري ماذا فعل شريف بالقواقع بعد ذلك. على الأرجح ركنها في جانب من غرفتنا ونسيها.

لكن صوت قرقعتها يملأ عليّ، الآن، زنزانتي الانفرادية، وأنا منكفئ على وجهي، متورم الجسم، ممتلئاً بقروح تنزّ ألاماً. كان صمت الزنزانة يثقل أذني بطنين غريب، بعد ساعات التحقيق الطويلة. ولكن جسدي يضجّ بألم زاعق، في حين لا أستطيع أن أحرك عضلةً واحدةً في جثتي المنكفئة. كنت أود أن انهض وأغادر المكان.. أركض..

- هيا يا شريف، لا تدع أمانا تنتظر.

كانوا قد اقتادوني، عبر ردهة طويلة، معصوب العينين.

وصلنا إلى السيارة، اختطفنا ملابسنا، وارتدينها قطعةً، قطعةً. كانت ما تزال ندية، لكن من يعبأ؟ قفزنا إلى السيارة، ياسر في المقعد الأمامي إلى جانب أمانا.

سمعت صرير باب يدفع، ويطلب مني أن أجلس وأرفع العصاة عن عيني. كان الضابط الذي يواجهني يماثلني في السن، ويرتدي ملابس مدنية. سألني عن اسمي، وعملي وقدم لي سيجارة. كانت رفته مثيرةً للريبة.

مرت ربع ساعة تقريباً، وهو يرمي إليّ بأسئلة عامة وشخصية، ثم فجأةً اكتست ملامحه غلظة وجمود، وهو يشدد على كل كلمة من سؤاله المباغت:

- ما صلتك بالجماعة؟

وقبل أن أجيب التفتت إلينا أمانا. هل كان وجهها شديد الشحوب، غائباً عما حوله؟

نظرت في وجوهنا واحداً واحداً، أولادها الأربعة، وسألتنا:

- ما رأيكم بهذه النزهة؟

تصايحنا «كانت نزهة جميلة. لماذا لا نذهب الى البحر كثيراً؟».

اعتدلت في جلستها، وأدارت محرك السيارة، وانطلقنا. عبثت أصابع أمني بمؤشر المذياع. توقفت عند موسيقى مألوقة. انساب صوت عبد الحليم حافظ دافئاً «أهواك وأتمنى لو أنساك»، وصدق صوت أمني «وأنسى روحي وياك».

- الله.. الله.. صوتك جميل يا أمني!

«أهواك..» ارتفعت حناجرنا جميعاً حتى أغرقت صوت المغني. أسرعرت السيارة باتجاه المدينة، وخمسة أصوات زاعقة، تغني بهمة وحماس، على وقع الموسيقى، وأسمع ياسر، وهو يصرخ، وسط الضجيج المنغم «ما معنى أهواك؟».

وصوت أمني يرتفع، فيملاً فراغ الزنزانة:

- أحبك.

## براءة دمي

### حسب الله يحيى

صباح العزاوي



عطر وردتها.

من هنا كانت الشتلة تكافئني بوردة معطرة كلما قدمت لها خدمةً تستحقها. وما أن يفتح الفجر جفنيه حتى يستيقني إلى الحديقة عطر تلك الشتلة التي باتت تباهي نفسها بالبهاء.

تأملت وردة الصباح تلك، وسألت نفسي:

- هل ينبغي لي قطف الوردة عن جسد الشتلة؟ هل هذا جزء من بذل وأعطى وملا الكون بالبشر والحبور؟

لم أكن أريد أن أباهي نفسي أمام أولادي، فهم يمتلكون القدرة والشجاعة على إعطاء شهادة حقة بشأني، بوصفي والدهم وحكيم العائلة التي ننضوي جميعاً تحت لوائها.

كنت قد أعددتهم واحداً واحداً لأن يتعلموا نقد أنفسهم، ويعالجوا أخطاءهم بأنفسهم، قبل أن يدلهم الآخر على تلك الأخطاء.

علّمتهم أن نقد عمل الآخر ليس انتقاصاً منه ولا النيل من قدراته. علّمتهم أن خطأ الكبير أكثر فداحةً ممن هو أقل عمراً أو تجربةً. لذلك حرصت على أن نتبادل النقد بيننا بطريقة صحيحة خالية من الكذب والنفاق والمجاملة.

وكذا الحال مع زملائي وزميلاتي في العمل.

لا أريد، من كل ما ذكرت، أن أقدم نفسي على أنني ابن الفضيلة ومشروع قانون النقاء، وأنني أملك بساطاً سحرياً يؤدي إلى فجر الحقيقة ومهاد الصدق.

لا لم أكن كذلك، ولن أكونه أبداً، ولن أسيء إلى نفسي بمديح ذاتي. لن أفعلها وإن كان القتل المهدد به مصيري. فالموت مصير كل الكائنات، وما كان خلود الأشياء حقيقةً أزليةً أبداً.

لكن من طبع الورقة البيضاء أن تباهي نفسها بالبياض الذي لا

تشوبه شائبة، ومن طبع العافية أن تكون خضراء، ومن طبع الشمس أن تكون مشرقةً بهيئةً.

لا أبزئ نفسي أبداً، ولكن من حقي على «خصمي» أن أضعه أمام حقيقة روعي وصفاء قلبي وصحوة عقلي، وأمامه أن يخاصم الحقيقة والصفاء والصحوة بالتهديد الذي لا يسنده إلى نقطة في بحر إنسان مثلي.

له أن يطفئ سيجارته في بحر حقيقتي. وله أن يكتب رسالةً يقطف ما بعدها روعي. له أن يحول تلك السطور الحذرة إلى حقيقة شجاعة واضحة تدلني على أخطائي. حتى أعفيه من تلويت يديه بدمي. فأنا سأزهق روحاً زائفةً لم أكن أعرفها من قبل وقد دلني عليها. وعندئذ سأشفى من براءة أدعيها ونقاء وطيبة تتسع للجميع، أملكها وحدي أكثر من كل من عرفتهم.

لن أغفر أخطائي. ولن أتستر عليها، ولن أبزئ نفسي منها أبداً، ولن ألقبها على أحد، ولن أطلب العفو ممن أسأت.

لن أفعلها، لأن فعلها اعتراف وذل وطبع سيئ لا أرتضيه لسواي فكيف أرتضيه لنفسي؟

سأرضى بالتهديد وترجمته إلى فعل دام، إن كان ذلك يرضي قلب من كتب رسالة التهديد تلك وعقله ووجدانه وروحه.

سأغفر جنائته، سأحكم عليه بالبراءة لأنه يقتلي سيقتل البراءة بكامل صفاتها. وسأرتاح لأن روعي ستظل ترفرف في أحلامه. وسأظل ألحقه وأنا ميت. فيما سأغفر له. لو أنه استعاد محاكمتي ومحاكمة نفسه عما ألحقه بي من ضرر. وما كنت ضاراً بأحد. وما من أحد اشتكى من إنسان اسمه: حسب الله يحيى.

عندما تلقيت رسالة التهديد بالقتل؛ كنت في ذلك الوقت بالذات أعمل في تهذيب وتشذيب النباتات في حديقة منزلي، وقد أثار انتباهي أن النباتات الطفيلية والبرية كانت قد انتشرت في مدة قصيرة على نطاق واسع.

جاءت رسالة التهديد تلك لتجعلني أمام مقارنة لا سبيل لي للخروج من حقيقتها المرة، حيث اقترن اتساع تلك النباتات غير السوية والمنتشرة بطريقة عشوائية، مع ما أنا عليه من القلق إزاء تلك الرسالة التي جعلتني حين تلقيتها أقف حائراً أمام ما ينبغي لي اتخاذه.

كان الأمر شديد الوطأة على أولادي، ولو كانت تلك الرسالة قد وجهت لي مباشرة لكنت عالجت الموقف بطريقة فردية متأنية وقورة، خارجة عن الانفعال المفاجئ، وردة الفعل الحادة.

رسالة تلقاها أصغر أولادي، قرأها قبلي مراراً حتى حفظ ما ورد فيها، وما كانت به رغبة في إخباري بما ورد فيها. لذلك توجه إلى أكبر إخوته سناً وحكى له حكاية التهديد بالقتل.

وانتشرت أنباء الرسالة بين أفراد العائلة انتشاراً سريعاً. كانت الرسالة أشبه بالنيران التي تلتهم كل شيء قريب منها. وفي الحال وجدت كل فرد من أفراد العائلة خافراً، على أهبة الاستعداد لاتخاذ أي قرار عاجل.

أجمعوا على رأي واحد:

- أترك العمل، لا عودة إلى العمل.

وجمعت حواسي كلها على احتواء الموقف. قلت:

- كما تريدون. سأظل كل الزمن أمامكم وجهاً لوجه.

وانصرفت لإعداد نفسي للوضع الجديد.

عدت إلى الحديقة، أتأمل الأشجار والنباتات، وما كان قد تفتح من الأزهار، كانت زهرة عباد الشمس تتجه نحو الشمس، فيما كنت أتجه إلى حواسي كلها، أبحث عن فرصة للانفلات من مأزق التهديد هذا.

كنت أعرف أنني لست من تلك النباتات الطارئة على الزمان والمكان. وكنت أعرف جيداً أن مثلي لا يرضخ لتهديد، ولا يستجيب لأمر لا يجد قناعةً فيه.

بحثت عن أخطائي، وفيما إذا كنت قد أسأت لأحد، أو أخذت

حق أحد أو ماله أو شرفه. لم يكن هناك أحد ألحق به الضرر أو اغتصب حقاً يعود إليه.

كان حقي في الحياة قد تعرّض للقتل من قبل مجهول، لم يعلن عن نفسه، وإنما وضعني في موقع الانتماء والعمالة والخضوع لأحد.

فتشت في كل خلية من خلايا دمي، لعلّي قد نسيت، أو اتجهت صوب أحد من دون انتباه ولا صواب ولا موقف!

لم يكن هناك أحد سوى حقيقة أن أكون شجرةً معمرة، أن أعمل بوصفي رجلاً مطلوباً منه أداء عمل، وقطاف ثمرة عمله أجراً متفقاً عليه في نهاية كل شهر.

ما كان طعم الثمرة يعنيني، وما كانت الشجرة الباسقة هفي، وما كان مظهر الأغصان والأوراق يبهرني، وإنما كان كل ما يشغلني ويبرئ ساحتني جذوري، فهي حقيقتي وهي لوني وهي أفقي الذي أتفّسه ثماراً أتقاضى عنه أجراً مقابل عرق جبيني.

لم يكن بوسعي أن أرتوي، وأعلو في الفضاء وأواجه الشمس، وأتناول غذائي من تراب هذه الحديقة، من دون أن أدّر مقابل ذلك كله ثمراً.

ترى هل كان وفائي لذاتي وللآخرين خطأً ينبغي أن أحاسب عليه، ويقطف عنقي عن جسدي، لأنني كنت وفيّاً لجذور أخلاقي؟

ما كنت دغلاً في حديقتي، أو غباراً في مكتبة، أو لوحة جامدة على جدار، أو قطعة أثاث وُضع للتباهي.

ما كنت طعاماً فاسداً لمخلوق، ولا قرص دواء فات أوان الاستفادة منه لمريض.

ما كنت عاصفةً مغبرةً في عيون إنسان، وما كان الإنسان -أي إنسان- يشكّل ضدّاً لوجودي، وما كان وجودي يستأذن المحبة من أحد، وإنما كان هذا الأحد يدق أبواب روعي، فأحبه صادقاً.

ما كنت أطلب للوردة في الحديقة أن تعطر المكان، وإنما كنت أحنو على الشتلة حتى تنمو في ظروف صحية حسنة.

كنت أعد الشتلة للشمس، وأغذيها بتربة وسماء وماء وهواء وشمس وأنقذها من النباتات الطفيلية التي تريد أن تسرق منها



# امرأة من ماء

## حميد الربيعي

روى ملا عبود أنه في يوم قائنظ أمطرت السماء ضفادع، ناقعة بالماء ومقصوفة الأرجل من خلاف، جلدها لم يكن مخضرا ولا أسنا، بل يميل إلى الأسود الفاقع، كأنها ظلت في شواية الشمس أطول فترة ممكنة.

أهل الرصافة، بعدما سمعوا بالضفادع النازلة من الفضاء، لم يصدقوا واعتبروا أهل الكرخ يبالغون في الوصف، لكن بعد يومين من رواية الملاً أنزلت السماء عليهم قططا، لا سميئة ولا نحيفة، كانت منتوفة الشعر، كأنها جزت قبل هطولها على حياة زخات.

اضطر أهل الصوبين الهروب من الشوارع واللجوء إلى ضفة النهر، تجمهروا هنالك يسألون عفا يجري، خاصة أنهم لم يعهدوا في حياتهم أو كتب التاريخ أن حدثا مماثلا قد وقع في بغداد، بالإضافة لأشهر الصيف التي تمر عليهم ثقيلة، بسبب انحسار الأمطار مواسم عديدة.

الجمهرة كانت في البداية للقليل والقال، لكنها، بعدما استأنست لعدم انهيار الجرف الطيني من شدة الزحام، تحولت لتبادل الأخبار، فلقد انقطعت الأنباء ما بين الصوبين، منذ رحيل امرأة المطر.

أحمد المسعودي، وهو ابن عم لي، قال: هذا كذب، مبالغة غير معقولة أن تهطل السماء بالقطط والضفادع، لا بد ثمة خطأ ما قد أصاب الناس لينشروا أخبارا كهذه. كل المصادر، المرئية والمسموعة، لم تؤكد المعلومة، وعندما رجع إلى مقدمة ابن خلدون اتضح له بأن هؤلاء الناس يبالغون بطبعهم.

طارق الأنباري، صديقي الذي هاجر إلى «السويد»، كان قد ولد عند شط «الفرات» بالقرب من منطقة «الحامضية»، التي تشكل خاصرة الشط، ولهذا قال نقلا عن أبيه وجده: إن الضفادع تخرج من المياه الضحلة ولا تعيش في الأنهار ولها خلفيتان كل واحدة منهما أطول من أذرع.

جار لي كان يربي الجاموس في هور «الحويزة»، وهو يظن أنه يقع ضمن حدود إيران، رأى: أن القطط لا يمكن تنف شعرها بسهولة، فهي تضخي بأولادها ولا تسمح بمسه، لأنه جهاز استشعارها الأول، مضيفا: نقيق الضفادع وقت الغروب يساوي

صداع الرأس، لن ينقطع حتى تهجع البرية كاملة وتطفأ أضواء القرى المجاورة.

بعض شهود عيان، ممن حضر التجمهر في الصوبين، قالوا: إن النهر انشق فخرجت حورية سوداء اللون ذات شعر أبيض، يشبه حريقا مشتعلا، من ضفة الكرخ، ثم وصلت إلى ضفة الرصافة، وثمة آخرون كانوا يراقبون المشهد عن قرب لكنهم لم يستطيعوا الوقوف على الضفة الكرخية بسبب التزاحم فأنكروا ما قيل، مؤكدين أن الخارج من نهرهم كان نافورة جبر أسود، منصهر بفعل باطن الأرض ومتسام قليلا في الفضاء، بيد أنه ارتدّ ثانية وسال فوق صفحة المياه، ربما خجلا من الصعود في الفراغ!

أبي أنكر هذه الأقاويل كلها، معتبرا إياها من علامات الساعة، لهذا، مع أنه لا يرى أبعد من مرمى عين، حمل عصاه وسار إلى هنالك.. لم يكن هذا الأمر يعنيه، لا من قريب ولا من بعيد، ما دام قد انزوى بعيدا عن الناس منذ عدة سنوات كانت كافية لأن تدق عظام جسمه عموما وتنخر هشاشة أطرافه خصوصا.. لكن من طبعه ألا يقبل الأحاديث دون سند، من أول ظهر إلى سابع ظهر، ودائما ما يلوم الآخرين بعبارته الأثيرة: من قال هذا؟! لا بد أن يروى الحدث من فلان عن فلان حتى يكون مسندا ذا مصداقية.

عن ابن مسعود، عن أبيه، نقلا عن جده ذي الحدة، قال الشيخ الكبير بحضور طائفة من الوافدين الجدد إلى صوب الرصافة: إن في صوب الكرخ امرأة من ماء، لا تشبه الحوريات، ما أن تخرج من النهر حتى يهطل المطر مدرارا، إذا صادف خروجها من صوب الرصافة، يتكسر الضوء على جلدها، فتبدو مثل المرايا المصقولة، التي تتكاثر الغيوم الملبدة فوقها، وهذا إيدان بهطول المطر عفا قريب.

شقيق مسعود يشك في هذه الحكاية ويقهقه كثيرا على الجد ذي الحدة، فهو لم يستطع جمع المال الكافي لإجراء تصحيح لبحره، كونه مصابا بالماء الأزرق، لهذا يرى أجساد النساء مثل المرايا، بعض الوافدين الذين كانوا شهودا على الحديث المسند أكدوا: له عين صقر يصطاد بها رموش العيون إن طرفت، وهذا



ما يجعله أحد الرواة النقاء في مصادرهم.

ملا عبود لا يميل إلى استعمال الهاتف النقال ويعده بدعة، نزل بها شيطان رجيم، مما تطلب من بعض وكالات الأنباء البحث عنه لتأكيد خبر الضفادع، بيد أن هذه الوكالات، بعد مشوار طويل من التنقيب في حارات المنطقة القديمة والمجاورة لتلة المقبرة، لم تحظ به. بعض الجيران رووا أنه لبس عقاله السميكة وهاجر إلى منبع النهر، بالضبط قرب «الزباب الأعلى»، لقد آل على نفسه دراسة الظاهرة من كل جوانبها، مبتدئا من انحباس المطر وسقوط الضفادع من علو.

روى بعض الصيادين، الذين يجوبون نهرا صعودا ونزولا، في الليل والنهار، أن المرأة لم تعد تظهر في وسط النهر، آخر مرة ظهرت كانت وقت الغروب، حيث الشمس رسمت خطا دمويا فوق ظهرها وهي تغادر المياه إلى لا رجعة.

الخبر نشر في اليوم التالي من طرف دائرة الأرصاد الجوية وأوّل بأنه نذير شؤم، حيث انقطاع الأمطار عن المدينة،

وطلبت من الناس التأني في تفسيره، مؤكدة أنها ستصدر بيانا تفصيليا عنه، في الأسبوع القادم، لكن موظفي الدائرة وجدوا مديرهم، صباح اليوم الثاني، معلق الرقبة بحبل صيدا! قيل في الكتب القديمة، وهي عبارة عن حكايات شفوية يتداولها الناس ويرفضها أبي بقوة، إن ثمة امرأة من ماء، لم تجد التراب عند خلقها، فصارت رقراقة وشفافة، ولأنها عارية دائما كانت تخبئ جسدها في الماء، لا تخرج إلا حين يحل الظلام! قيل أيضا إن أهل بغداد اعتادوا وجودها، ما دام النهر يجري باستمرار ولم يعودوا يسترون أبصارهم عند رؤية عريها، بل إن الجيل الذي سبق ملا عبود، الراوي الثقة، كان يراها تتمشى بالقرب من مزارع «العطيفية» وبساتين «الشالجية»، يسلمون عليها بالأيدي عن قرب، أو يتركون لها التحية قرب السواقي.

ابن مسعود، الذي يكبرني بعشرة أعوام وقد عاصر جده ذا الحدة، روى في محاضرة ألقاها، بمناسبة الهرج الذي أعقب شق المدير، أن تلك المرأة لم تكن من ماء أبدا، رغبتنا بوجود الماء والنهر تنعكس على لا وعينا فتميل الرؤية إلى تجسد أنثوي، دلل على نظريته بأن سأل باستغراب: هل يعقل أن امرأة عارية تتجول في الشوارع وتحت المطر دونما مضايقة؟!

خلال اليوم التالي وفي نفس المحطة ظهر رجل، يبدو من سيمائه أنه عالم في موضوع ما، فعقب بـ: أن ابن مسعود قال حقيقة واحدة في كلامه أمس، والباقي لا معنى له، المرأة حقًا، وقد أثبتت التقارير ذلك، لا تمشي في الشوارع إلا حين ينزل المطر، هي علامة خير على أن الحياة لا تزال قائمة ما دام الماء موجودا، ثم اختتم التعقيب بطلبه من مخرج البرنامج أغنية «وحيدة خليل» (على شواطئ دجلة مر، يا منيتي، وقت العصر).

شعر الأهالي بالأ فائدة من التجمهر، زيادة في الوقت، فقرروا الانصراف إلى مناطقهم، لقد تناهى إلى مسامعهم، بعد ساعات من الزحام على جانبي النهر، أن جردانا خرجت من جحور الأرض وسحبت الضفادع، أهل الرصافة ظنوا أن الكلاب سوف تسحل القطط المقصوفة الشعر، لهذا تفرقوا بنفس الوقت مع أهل الكرخ.

أنا، العارف بأخبار امرأة الماء، ابن عم أحمد المسعودي، جدي ذو الحدة، المدون لأخبار ملا عبود بكل حياته، صديق طارق الأنباري، أقول: ثمة إفك بهذا الحدث، الناس تخشى الحديث فيه، مخافة أن يكون واقعا حقيقيا، يحاولون اللف والدوران ويتحاشون عن عمد طرق الموضوع، لقد تأكد بما لا يقبل الشك أن المدينة داخلية على قحط. المرأة، التي كانت تكفل فرحهم بوجود النهر والماء، قد ذهبت، لقد قالت لي بمنتهى الوضوح: - سأرحل.



## اغتيال حقيبة

### رغد السهيل

صبياء العزاوي



تكوّن كجنين في رحم أمه، وتوسد الحقيبة، أغمض عينيه، شعر ثقل دمائه في العروق، استرخى، لا أحد هنا، لن يصل له أحد، كرر هذا لنفسه وهو يبتسم، والملاحقة تدور كالدخان، سيرتاح ضميره ويعود لموقف المسكين، سيكشف القذارة الخسيسة، سيقول الإعلام كثيرا عنه وعن الأوراق، سيكون سيد الإعلام، بطلاً في الإعلام، من هنا، سيبدأ الحرب ضد الفساد، وتهدأ روح صادق!

أسرار الحقائق المتهرئة سر وجع الرجال، تحرك شبح بحرية، عبر خلفه القارات، طارده من محطة لمحطة أقبّل اقترّب، دنا، تهباً، رفع ذراعه اليمين، في كفه كاتم للأمل، كاتم للسّر، كاتم للإعلام، كاتم للحقيقة، سدد، رمى، وانطلقت الكاتمة، أصابت الهدف، الهدف قلب طفلة تغفو في الحقيبة، احترقت صورة الطفلة الصغيرة، تناثرت الأوراق، وقالوا في أخبار منتصف النهار: اغتيال لاجئ عراقي في محطة قطار باريس، ولم يذكر أحد شيئاً عن الحقيبة أو الأوراق أو الطفلة النائمة، فالحكاية أشبه بركلة قدم لكنها قاتلة!

لصادق ويعود يتبنى موقفاً، قزّب الحقيبة من صدره، احتضنها، دفع ثمنا باهظاً حتى يصل هنا، إلى سيدة الدلال باريس، ما زال يشعر بالخوف، لازمه الخوف طويلاً، كمرض مزمن اعتاد عليه، أين يتوجه؟ وكيف سيتحرك؟ لا أحد هنا وكلهم هنا. العالم مخيف، تطارده رائحة المؤامرة، المؤامرة أكبر منه، وهو وحيد، لكنه لن يصمت، غامر وقطع المنافي البعيدة، يحيطه رماذٌ سيجارة، برد قارس في العظام ولا مدفاةً للروح، والعالم يضيق، يتكور، يتقلص، يخنقه، أين يذهب؟ محض تراب في المجرات، وهو نقطة في مجرة التبان، صدى صوته الداخلي: أيها المغرور المعنوه، من ذا الذي تقاومه، وأنت محض رأس دبوس!

حقيقته رحيل يتوالد، وطن يتجول، يتنقل، يتمزق بين المحطات. كم من محطة وقف ببابها ولم يدخل، فالوطن كابوس، كابوس في حلم، وهم عند الاستيقاظ، شعر بالنعاس، لم ينم منذ ليال، يحلم اللحظة في النوم، قليلاً من النوم، هنا باريس عالم حر، أمان من الاغتيال، سينام ساعة واحدة، ثم يفكر كيف يبدأ بالانتقام، أشرقت عيناه بومضة الأمل، دخل المحطة، جمع جسده في الزاوية، مدد جسده فوق الأرض، ثم

الثياب والحداء والخاتم والأساور والقرطين، وطلاء الأظافر أيضاً، لعلها سيدة ليل البنفسج، فردد في نفسه أغنية ياس خضر: آه يا ليل البنفسج.. وتذكر فجأة قول جاره أبي الطيب له قبل الرحيل «شر البلاد لا صديق فيه» لكنه هنا في باريس، باريس الجمال والأعاجيب، باريس ماري انطوانيت، ما زالت أنفاسها تتصاعد في كل مكان، أنفاسها عالقة في الهواء، باريس سيدة تتجمل بالكثير من المساحيق، بألوان قديمة ومستحدثة لم تخطر على قلب فنان، ترتدي ليل نهار أفخم الثياب، وتضع على جسدها أفخم الإكسسوارات وأغلاها، لا تعرف سوى الإفراط بالأشياء، باريس الحسنة المتغطرة تجيد كل اللغات وترفض الحديث إلا بالفرنسية، يفكر كيف يبدأ من هنا؟ فهي أيضاً باريس روبسبير!

يحدث نفسه وهو القادم الغريب: ها أنا أقبلت، افتحوا لي الأبواب، وأغلقوها بعدي، ضحك على نفسه، ضج بالضحك الهستيري، امتلاً بالضحك، فاض منه، استرسل فيه، واصل الضحك، ضحكة غريب يرغب بسماع الصدى، صمت بعدها، حرك جسده في مكانه وترنح، ترنح دونما إيقاع، ترنح دونما خم، والمحطة تهتز بارتجاف سكك الحديد... يختار أيدخل أم يبتعد؟ كل القطارات لها اتجاه، وهو من دون اتجاه، ما زال ينفخ سيجارة تلو أخرى، تتداخل، تتعاقب، تختلط، تتكاثر الدوائر، وبمنتهى الحرية ثم تتلاشى في الهواء، كأنه لم يكن، أربعته الفكرة!

أعبه الهروب، أنهكه الطريق، والحقيبة الصغيرة متهرئة، خفيفة وثقيلة، فليس فيها إلا صورة واحدة، وحزمة أوراق ووثائق، تنام الأوراق في الحقيبة، وتنام فيها حكاية صاحبه صادق، حيث الإصرار والترصد على تحويل موقف لتييم، أقسم أن يصون الحقيبة، صرخ، انتفض، ثار، هذه الوثائق خطيرة، ستتزلزل الأرض لو كشفتها، دلائل وإثباتات ستقلب الطاولة، لاحقوه قتلوا عائلته فرداً فرداً، حتى هرب في ليلة قمرها مهاجر، تنقل بين البحار، أفلس فهو في القافلة أمين، لم يبق له في الحقيبة سوى ورق، ستشرق شمس العدالة، سيحرقهم شعاعها، سيتحدث في الإعلام الدولي، سيفضحهم، سيثار

يفور المكان بالحضور والغياب، وجوه ملونة من كل صوب وفج، تتقدم، تبتعد، تمر، وتخطف، خفافاً حيناً وثقالاً حيناً، تتحرك حقائق بمختلف الأحجام والأشكال، ميم الاتجاهات سيد المشهد، متعكسة متوازية متضادة متواصلة، متقاطعة، متسارعة متباطئة، وتهتز البوصلة، تتذبذب، لا تثبت، كراقص ديسكو بحلقة سيرك، لا يحدده اتجاه، تنبعث من الزوايا رائحة ننتنة، يرتجف الحديد بحرارة الثلج في محطة القطار، كلاب يرافقون أصحابهم، وأصحاب يرافقون كلابهم، وكلاب أخرى تنبح بلا رفيق أو صاحب، استوحش هو دربه، صديقه الذي خالطه بنفسه، ومملك عقله وقلبه، استشهد وترك ولداً صغيراً اسمه موقف صادق، مات أبوه صادق، تطشّرت، تفحمت، تناثرت، تطايرت أشلاؤه في انفجار عبوة ناسفة، عبوة ناسفة أمام باب بيته، فأصبح الصغير موقف يتيماً، يستجدي في الطرقات وليس من يتوقف عنده، تألم هو على مصير الصغير، حاول تبني موقف وانتشاله من اليتيم، طارده شرطة الأخلاق الوطنية، ومنعته من احتضان الصغير، لأن موقف دخل مملكة الأيتام العراقية، أيتام يستجدون في الطرقات، يقدمون ما يجمعون للدولة لحلحلة الوضع الاقتصادي، وأي تجاوز على موقف ومهنته الجديدة تجاوز على حقوق الدولة، وإصراره على تبني الصغير موقف يعد مخالفة قانونية!

فتح الحقيبة التي أخفاها عنده صاحبه صادق، وجد فيها أوراقاً ووثائق تدين الكثيرين، وجد رسائل تهديد لصادق، اكتشف الحقيقة كاملة في الحقيبة، صادق رفض الابتزاز والخضوع، كافأه رؤساؤه في العمل بعبوة كانت ناسفة! قرر ألا يصمت على حكاية صاحبه، لا بد من كشف الحقيقة كاملة، ما إن بدأ الكلام حتى طارده هو هذه المرة، فبعد اغتيال صادق بدأت مطاردة صاحب صادق، حتى فر من بغداد مصطحباً معه الحقيبة، حقيبة الأوراق والوثائق، وتنقل بين الأنهار والبحار، حتى وصل إلى محطة القطار في باريس.

عبرت أمامه خمس قطط تتدلى في أعناقها قلاند، قلادة في عنق كل قطة، ترتبط جميع القلائد بسلسلة فضية في نهايتها ميدالية، تمسك بالميدالية سيدة بنفسجية الشعر، بنفسجية



## كونكان

### سعد محمد رحيم

جلسا يلعبان الورق ويَدْخنان.. كانا ضجرين، لا يأبه أي منهما إن كان سيفوز أو سيخسر.. بدا وكأنهما يريدان أن يمضي الوقت بأي شكل، ليس إلّا.. قام الرجل الذي يرتدي كنزة صفراء، مثقوبة عند الكتف، إلى الثلاجة وأخرج زجاجتي بيرة.. لم يسأل صاحبه إن كان ممن يشربون الخمر. وصاحبه الذي يرتدي قمصلة جلدية بلون القهوة المحروقة لم يعلّق بشيء. تناول زجاجته وعبّ نصفها، دفعة واحدة، فراح السائل يقرقر عبر بلعومه.. تجشأ ومسح فمه بردن قمصلته التي كانت متقشرة عند المفصل، ومشقوقة عند الساعد. لم تكن الزجاجاة باردة، غير أنها لم تكن فاترة، كذلك.. الموسم هو الخريف، والكهرباء مقطوعة في المدينة منذ يومين. وربما كانت الثلاجة عاطلة أصلاً.. لم يكن الرجل ذو القمصلة الجلدية يرغب بمعرفة التفاصيل.

تبسم الرجل ذو الكنزة الصفراء، واحتسى قليلاً من زجاجته، ورمى ورقة أخرى.. كانت ورقة (الجوكر).. صوّب الرجل ذو القمصلة الجلدية عينيه راشقاً الآخر بنظرة تساؤل؛ لا أحد يتخلّى عن ورقة الجوكر في اللعب هكذا.. نظرة الرجل ذي الكنزة الصفراء أوحّت كما لو أنه يقول؛ وما الفرق على أي حال؟ مذ الرجل ذو القمصلة الجلدية يده إلى ورقة الجوكر لكنه لم يلمسها.. كانت ستكمل عنده مجموعة أخرى تمكّنه من طرح أوراقه.. أخذ ورقة أخرى من رزمة الأوراق الموضوعة عند زاوية الطاولة. كانت ورقة (الستة دينار).. لم يكن يحتاجها لأيّ مجموعة مرتّبة في يده. ومع هذا لم يلق بها.. ألقي بورقة (الملك الشائب) التي تكمل المجموعة الوحيدة الجاهزة لديه. كان الآخر يحتاج إليها، غير أنه لم يلتقطها.. استلّ ورقة لا ضرورة لها وألقى بورقة جوكر أخرى.. كانت نظرة التساؤل في عيني الرجل ذي القمصلة الجلدية، في هذه المرة؛ أتراك تسخر مني؟ بيد أنه لم يكن غاضباً أو مستاءً.. أمسك بعنق زجاجاة البيرة ودلق ما تبقى فيها إلى جوفه.

تجشأ بصوت أعلى، هذه المرة. ولم يمسح فمه فسقطت قطرة من طرف شفّتيه على ساق بنطاله الكحلي. وسحب ورقة لم يتنبه فيما إذا كانت تساعد في إكمال أي مجموعة خاصة به.

وعاد وقلّبها على كومة الأوراق في وسط الطاولة.. الرجل ذو الكنزة الصفراء رمقه بنظرة فهم منها؛ ليست هناك زجاجة أخرى في الثلاجة. أو؛ لست على استعداد للتخلي عن زجاجة أخرى في مثل هذا الوضع.. فتح علبة سجائره وناول صاحبه سيجارة وأشعلها له بعود تقاب قبل أن يؤرث لنفسه سيجارة، أيضاً. ولحظ، من غير أن تبدر منه إيماءة توحى بذلك، أن هذه الجولة هي الأولى منذ الظهيرة، منذ اللحظة التي هدأ فيها الرجل الغريب ذو القمصلة الجلدية وانتظم تنفسه. فبدء لعب الكونكان، باتفاق تلقائي غير معلن.. اللعبة التي لا يظهر أنها ستنتهي قريباً..

تناهت أصوات رشقات رصاص غير أنهما لم يبديا إزاءها أي ردة فعل، كما لو أنها أصوات حفيف أوراق شجرة في الريح، أو هدير شاحنة صغيرة مازة في الشارع.

ترك الرجل ذو الكنزة الصفراء مقعده.. دخل المطبخ وعاد بفانوس مضيء. كانت العتمة تهبط ببطء.. وقف الرجل ذو القمصلة الجلدية ويده تضغط على أسفل بطنه.. أشار الرجل ذو الكنزة الصفراء إلى الجهة المقابلة لباب الغرفة التي يجلسان فيها حيث المرحاض.. لم يسمع صوت شخصخة التبول العالية، وهي تعلو بعد لحظات، وإلا لقال في سرّه؛ إنه يتبول واقفاً.

رَج دوي انفجار قريب الباب. وتكسر زجاج الجزء العلوي من النافذة.. حالت الستارة الخضراء المخملية العتيقة دون وصول الشظايا إليهما، ولكن ليس من غير شقوق أصابتها. التفتا إلى جهة النافذة وطاف في عيونهما ظلّ من القلق. هكذا ظلّ كلّ منهما؛ إن هذا هو ما لمحّه في عيني الثاني. وما حصل لم يمنعهما من العودة إلى اللعب بتفاهم صامت، كما لو أنهما صديقان يعرف أحدهما الآخر منذ عشرين سنة، وليس منذ ظهيرة هذا اليوم فقط، لفا التقيا من غير أن يكون أيّ منهما قد رأى صاحبه، في أيّ مناسبة، قبل ذلك.

عند الظهيرة كان الرجل ذو القمصلة الجلدية يستقل سيارة أجرة، جالساً في المقعد الخلفي.. عند منعطف حاد أبصر اليد التي امتدت من نافذة سيارة مقبلة وألقت بشيء ما.. ارتفع صوت انفجار عاتٍ من تحت بدن السيارة التي هو فيها. أو



تحت محركها في الجزء الأمامي، وشب حريق. لا يدري متى توقفت السيارة وكيف. لكنه شاهد السائق الكهل، ورأسه الملقى على المقود غارق بالدم.

فتح باب السيارة وانطلق راكضاً.. لم يسمع أزيز الإطلاقات التي لاحقته. أحسّ بوحدة تنقب الجزء المنفوخ الفارغ من ردن قمصلته عند الساعد الأيسر. فكر أنها صادرة من سلاح كاتم للصوت.. لم يسمع طوال ست أو سبع دقائق (الزمن الذي استغرقته واقعة هربه) لغط المارة وصياحهم. كان يجري في دوامة الفوضى الحاصلة.. عرف أن ضرراً ما، لا بد، أصاب طبلتي أذنيه جراء الانفجار. ولأن الناس كانوا يهربون في كل اتجاه فهم أن الخطر ما زال قائماً.. وطوال الوقت ظل يتساءل فيما إذا كان هو المقصود من عملية إحراق سيارة الأجرة التي كان يركبها، أم هو السائق؟ وفكر أنه لن يعرف الإجابة أبداً، في أي يوم.

ألغى نفسه أمام باب موارد، دفعه ودخل.. كان يلهث؛ يده على صدره وعيناه دامعتان.. الصورة أمامه مشوشة؛ إزاءه هيئة كائن متشح بالأصفر.. حاول أن يقول شيئاً ليكسر الصمت المخيف لهذا الكائن الذي يتراءى له رجلاً، لا امرأة. لا بد من

أن يكون صاحب البيت. سعى ليسوّغ سبب وجوده، في هذه اللحظة، هنا، في مكان لا يليق أن يكون فيه إلا مضطراً. بيد أنه لم يقدر. خائنه الكلمات، بل خائنه حنجرتة؛ أوتاره الصوتية.. لعلّ كمية الهواء كانت شحيحة في جهازه التنفسي إلى الحد الذي لم يعنه على الكلام.. أوماً له الرجل ذو الكنزة الصفراء أن يجلس.. الآن يراه بوضوح أكبر. جلس وشرب قدح الماء الذي ناوله إياه الرجل شاعراً ببعض الاطمئنان. بعد عشر دقائق أدرك أن الرجل ذا الكنزة الصفراء وحده في البيت. وأنه يؤثر الصمت لسبب يجله. وبعد ساعة أو أقل قليلاً. وبعد الفراغ من تناول طعام الغداء (شطيرة جبن عرب مالح وكأس شاي) أيقن الرجل ذو القمصلة الجلدية أن الرجل ذا الكنزة الصفراء، لا شك، أخرس.

\*\*\*

كان الظلام قد افترش هذا الجزء من الكون، منذ ساعات. وضوء الفانوس الشاحب يرتعش.. فتح الرجل ذو الكنزة الصفراء علبة السجائر ففوجئ أنها فارغة.. عرض البطن الفارغة للعلبة أمام ناظري الآخر، غير أن هذا لم يكتثر.. كان نعساناً، وجولة الكونكان لم تكن قد انتهت بعد. كانا قد أعادا لملمة الأوراق المكوّمة على الطاولة عشر مرات، أو عشرين مرة، وما زالا يلعبان، كما لو أنهما مرغمان على اللعب.. كأن قوة حارسة ومهذّدة تجبرهما على الاستمرار.

طوّح الرجل ذو الكنزة الصفراء يده في الهواء، وحزّك رأسه بطريقة رغب من خلالها أن يصرّح؛ أن لا سجائر أخرى في المنزل. كان الرصاص ينهمر الآن في الزقاق المجاور.. أخذ الرجل ذو القمصلة الجلدية ورقة أخرى وربما قبل أن ينظر إليها، وفعل مثله صاحبه. وبقياً هكذا حتى نفدت أوراق الحزمة المرثبة فعادا إلى الأوراق المبعثرة ورثبها معاً، مجدداً، ليستأنفا اللعب.

حين رفع الرجل ذو الكنزة الصفراء عينيه إلى ساعة الحائط ذهش لأنها متوقفة.. نقر بأصابع يده اليمنى على رسغ يده اليسرى، وهزّ رأسه، مستفسراً.. هزّ الرجل ذو القمصلة الجلدية رأسه؛ علامة النفي. قام الرجل ذو الكنزة الصفراء إلى النافذة وحملق في السماء المعتمة.. لم ير أيّ نجمة.. قد تكون السماء غائمة. ولما رجع وضع الأوراق التي في يده عند حافة المنضدة من الجهة التي يجلس إليها، وهؤم بيده في نصف دائرة؛ «غداً سنكمل اللعب». هذا ما أراد أن يقوله، لكنه همس؛ من يدري ماذا سيحصل غداً أيها الأخرس المسكين.. سمعه الرجل الآخر، ذو القمصلة الجلدية، في عمق إغفائه. كان يحلم ورأسه متدل على صدره، وقد تبعثرت أوراقه على فخذه، وحول قدميه، على الأرض العارية.

## زوجة الأمر

### صلاح زنكنه

صبياء العراوي



جاءني مراسل الأمر هاشاً باشاً وهو يخبرني بميوعته المعتادة:

- الأمر يريدك فوراً.

سألته مندهشاً:

- يريدني أنا؟!؟

قال مؤكداً:

- نعم يريدك أنت... هيا معي.

أجبته:

- اذهب وسألحق بك.

ولحقت به، وأدخلني إلى ملجأ الأمر المحضن.

أديت التحية العسكرية.

- نعم سيدي.

- تفضل بالجلوس.

قالها بمودة وبشاشة وهو المعروف بصرامته وصلافته

وخشونته.

- شكرا سيدي.

وجلست حذراً مما سيأمرني به.

سألني:

- أنت فنان؟

- نعم سيدي خريج الفنون الجميلة قسم التشكيل.

- تشكيل شنوووو؟

- الفنون التشكيلية سيدي، أعني الرسم والنحت والسيرامك

والزخرفة والخط ووو.

- فهمت، فهمت.

ثم سألني:

- هل تعرف تصبغ؟

فوجئت بسؤاله وأستدركت:

- الأصباغ والألوان هي من صميم دراستي وعملي سيدي.

- هل تجيد صبغ الجدران، البيوت؟

- نعم، بالتأكيد سيدي.

- حسناً سأمنحك إجازة طويلة الأمد.

- أشكرك سيدي.

أخرج أنموذج إجازة من جيبه وخربش عليها.

- لا تشكرني، هذه إجازة لمدة أسبوعين.

كدت أطيّر فرحاً من هول المفاجأة.

رمقني بنظرة جانبية وأكمل كلامه:

- تذهب اليوم إلى بيتك وغداً استراحة وبعد غد تبدأ بصيغ

بيتي الجديد مباشرة، وهذا هو العنوان.

ناولني قصاصة ورق دُون فيها العنوان مع أنموذج الإجازة.

أجبته منتشياً:

- نعم سيدي أمرك.

ثم قال مهدداً:

- إن لم تكمل صبغ البيت سأسجنك وأنقلك إلى الحجابات، هل

فهمت؟

قلت طائعا:

- نعم سيدي سأفعل.

ثم أمرني بالانصراف:

- اذهب الله معك.

وطرت إلى الديار على جناح اللهفة، وفي الموعد المحدد ذهبت

إلى بيت الأمر، الذي بدا فخماً ومن الطراز الحديث وقد بني

توّأ. ضغطت بإصبعي على جرس الباب، بعد هنيهة فتح الباب

وإذ بفتاة عشرينية، سألتها مرتبكا:

- عفوا.. هل هذا بيت الرائد حمدان؟

أجابت مؤكدة:

- نعم.. نعم.

وأردفت:

- أكيد أنت الصباغ خالد.

أجبت باستحياء:

- نعم أنا الصباغ.

- تفضل بالدخول.

وشرعت الباب وصاحت:

- يمه جاء الصباغ الذي أرسله حمدان.

أول مرة أسمع اسم الأمر يُلفظ مجزّداً من لقب الرائد أو السيد

أمر الفوج. جاءت أمها، امرأة خمسينية، ورحبت بي وأدخلتني

البيت، وراحت الفتاة، أعني زوجة الأمر، تشرح لي الألوان التي

ترغب فيها لطلاء البيت، فيما راحت الأم تهَيئ لي الشاي.

- أريد لون الجدران الخارجية «تبي» مع خطوط وأقواس

خُضر، الهول وغرفة الضيوف أريد لونهما سمائيا، السقوف

بيض، غرفة النوم «بمبي»، هل تعرف اللون البمبي؟ بمبي بمبي

وأنا جنبك وأنت جنبي كما تغني سعاد حسني.

وأطلقت ضحكةً آسرة، ثم قالت:

- لا تبدو صباغاً؟

قلت:

- أنا صباغ محترف درست الألوان وفن الطلاء في كلية الفنون.

واختلقت كذبةً بيضاء:

- لقد طليت معظم أرجاء القصر الجمهوري.

قالت:

- أها.. حلووو.. فنان وجندي في الجبهة والله حرام. وسألتني:

- اشلونه حمدان وياك بالجيش؟

قلت كاذباً:

- كلّش زين، أمر ممتاز الله يطول عمره.

- سأجعله يمنحك إجازات طويلةً وينقلك إلى مكان مريح إذا

طلبت البيت حسب مرامي ومزاجي.

- حاضر ست الحسن.

لا أدري كيف خرجت الجملة من فمي بعفوية، بيد أنها قهقهت:

- حلووووووة ست الحسن.. آني أمل، اسمي أمل.

- عاشت الأسامي ست أمل.

وأضفت كذبةً أخرى:

- غداً أجيء بمساعدي ونبدأ العمل على بركة الله.

ودعنتني إلى الباب وهي تذكرني بالشاي:

- لقد نسيت أن تشرب شايك.

وأردفت:

- لا تنس الألوان الزاهية، لا أحب الألوان الكئيبة.

أومأت برأسي موافقاً:

- تذللين ست أمل.

ذهبت مباشرةً إلى صديقي جلال الصباغ وضحكة أمل تلمع

في ذاكرتي، وأقنعتني بأن يمثل دور مساعدي في الطلاء وهو

الأسطة المعروف في طلاء البيوت والمحال التجارية. وبدأنا

العمل في اليوم التالي على قدم وساق وأمل تتلو تعليماتها

عليّ وأنا أتلوها على جلال الذي يأتصر صاغراً.. «حاضر أسطة».

وكنّت بمثابة الأسطة المحترف الذي لا يجيد سوى خلط

الألوان وجلال يقوم بالمهمة على أكمل وجه، وأمل تحلّق بخفة

ورشاقة في أرجاء البيت مثل فراشة وتعد الغداء بمعاونة أمها

التي استلطفتني كثيراً بكلامها، باديةً رضاها عن سير العمل:

- صدك أنت خوش ولد ابن حلال الله يحفظك لأهلك.



- الله يسلمك خالة.

بعد سبعة أيام من العمل المتواصل أكملنا الطلاء، لكنني شعرت بالأسى في دخيلتي كوني سأفارق وجه أمل البشوش وابتسامتها العذبة وغنجها اللذيذ. وتساءلت مع نفسي «أيعقل أن تكون هذه الغزالة الوديعه زوجةً لذلك الخنزير الجلف المسمّى رائد حمدان أمر فوج مغاوير لوائنا الذي كان يعدم الأسرى دون سؤال أو جواب، ويرمي بجثثهم إلى العراء لتنهشها الغربان».

ودعتها وقلبي يكاد يقفز من بين ضلوعي ألماً وحسرةً، وهي تعدني بمكافأةٍ مجزيةٍ من زوجها حمدان حال التحاقى بالجبهة. وعدت إلى البيت منهكاً ضجراً، ولم أنم ليلي كله وأنا أستعيد طيفها وإطراءها لي:

- تعرف يا خالد أنت لا تشبه الجنود، أنيق ومهذب ومرتب حتى كلامك يختلف عنهم.

- بماذا يختلف يا أمل؟

- بكل شيء، العسكر أجلاف.

تشجعت وسألتها:

- وماذا عن رائد حمدان؟

- أنت تعرفه أحسن مني، حمدان يابس خشن قاسي لكنه زوجي.

قاطعتها:

- وأنا؟

ابتسمت بعذوبة:

- أنت كلك ذوق وترافة ولطافة.

سكنت برهةً وأضافت:

- والله يا خالد أحببتك منذ الوهلة الأولى.

وكاد يغمى علي من هذا البوح الساحر من امرأة ساحرة الجمال، إلا أنها واصلت كلامها:

- لقد حسبتك أخاً لي مثل أخي سمير.

هكذا كلمتني في واحدة من حواراتنا التي تخللت العمل في بيتها الجديد، ورحت أهيم بطلتها التي تضفي لمسةً من الدفء والحميمية على سير العمل في الأيام السبعة وكأنها دقائق سبع. وفي اليوم الثامن زارني صاحبي شهاب عصراً وهو يحمل لي خبر استشهاد الرائد حمدان بقذيفة سقطت على موضعه. كان الخبر صاعقاً ومفرحاً بالنسبة إلي، ولا أدري كيف سيكون وقعه على أمل. أستأجرت سيارة تاكسي وذهبت إلى بيتها، تفاجأت بزيارتي وهي تستفسر مستغربةً:

- مو على بعضك... صاير شي؟

قلت لها:

- ممكن أدخل؟

قالت:

- أمي غير موجودة.

ثم وافقت:

- ادخل أنت بمثابة أخي.

ولجت البيت وأنا كلي حيرة وارتياب، ثم جمعت قواي وقلت لها:

- أمل.. لقد استشهد الرائد حمدان.

بهتت وجحظت عيناها، ثم تساءلت غير مصدقة:

- ماذا تقول!؟

- أنا آسف، آسف جداً، نعم استشهد.

وراحت تجهش بالبكاء، بالنحيب، ثم رفعت رأسها وقالت:

- لا أبكي عليه، أبكي على نفسي، أنا غير محظوظة، ثم أضافت:

- حمدان ليس زوجي.

قلت مندهشاً:

- كيف ليس زوجك؟

أجابت:

- زواجنا عرفي، أنا مجرد محظية له، جارية.

- وهذا البيت؟

- وعدني بتسجيله باسمي، وها أنت ترى المقادير تفعل فعلها.

تركبتها وأنا لا أستوعب الموضوع برمته ووعدتها بزيارة قريبة.

قبل التحاقى بيوم زرتها ووجدتها كشجرة ذابلة، وعرضت عليها الزواج، إلا أنها ابتسمت وقالت:

- خالد أنت ابن حلال وكل شيء قسمة ونصيب، ولا أعتقد أنني سأكون من نصيبك. أنا امرأة غير محظوظة.

- أنت أجمل وأعظم امرأة يا أمل، في الإجازة القادمة سأعقد عليك وأتزوجك.

هزت رأسها وكررت قولها:

- كل شي قسمة ونصيب.

قلت لها مؤكداً:

- أتمنى أن تكوني من نصيبي.

وحين ودعتها عند الباب همست لي:

- خالد... أحبك.

حسبت هذا البوح اعترافاً وموافقةً مبدئيةً على طلبي. ولا أدري كيف مرت الأيام والليالي خلال الشهر الذي قضيته في الجبهة وهي لا تبارح تفكيرتي، وما إن عدت بإجازة حتى حثت الخطى إلى حيث أمل، لكنني وجدت يافطةً على الباب تعلن أن «البيت للإيجار». طوّح الإعلان بصوابي وزلزل كياني. سألت هذا الجار وذاك الجار وتلك الجارة، لا أحد يعرف وجهتها وكأنها «فص ملح وذاب في نهر». لقد اختفت أمل إلى الأبد، لكن حضورها الطاغي في وجداني ظل يقصّ مضجعي طوال سنوات وسنوات ولا يزال.







## بيت الروح عبدالستار البيضاني

أرهقني أمر ترميم هذه الغرفة كثيرا. كلما هممت بتركها وأنا قادر على ذلك تذكرت أنها غرفتي!.. من هذه النافذة الواسعة المواجهة لشروق الشمس قال والدي إن القابلة أخرجته وناولته إلى جدي ليؤذن في أذنه بعد ولادته بلحظات، ومن النافذة نفسها ناولتني خالتي له ليؤذن في أذني بعد ولادتي مباشرة، وأنا أيضا تسلمت ولدي البكر عبر هذه النافذة نفسها لأقبله وأمنح القابلة إكرامية معتبرة. لذلك قرر والدي بعد تسلمه أول راتب من وظيفته الأولى كمعلم للأولاد تأطيرها بخشب السيسب النادر لأنها نافذتنا على الحياة، ما أعطاها هيبة تشبه

هيبة وجلال شبابيك مراقد الأولياء. يبدو أنني الوحيد مهموم بها، أما البقية من إخوتي وأبناء عمومتنا والغرباء فهم سعداء بهذه الثقوب والتعريات التي تصيب الجدران جراء التقادم وعوامل الطبيعة، ويأملون انهيارها بين لحظة وأخرى، ولكل منهم أسبابه، أبناء العمومة؛ لكي يتخلصوا من الشعور بالذنب الذي يولده لهم حرصي واهتمامي بها، أما الغرباء فسعادتهم تحسب من باب الشماتة، فقد أخبرني أبي نقلا عن أجداده أن رؤساء العشائر وملوكي الأراضي التي تجاورنا كانوا غير سعيدين بهذه الغرفة التي كانت دائما محل تجمع السمار من وجهاء القوم والضيوف الذي يأتون من أماكن بعيدة لفض النزاعات، ومحط استراحة الرحل والجائعين والفلاحين العاملين في البساتين والأراضي المجاورة وصيادي الأسماك والحرفيين الذين يأتون من المدن البعيدة والعطارين الجوالين. روى أبي أنه شاهد فيها أثناء طفولته هودا وعجما ومسقطيين وشركس وأرمنًا وأتركا وغجرا يبيعون العطور والتوابل والأقمشة والمساوك واللبان وصانعي الحلوى ومركبتي الأسنان الذهبية وفتاحي الفال والمنجمين وقراء المناقب النبوية والمقاتل الحسينية، وكان لكل من هؤلاء موسم.. يأتون إلينا لأن هذه الغرفة هي الوحيدة في المنطقة التي تسعهم، وتسع كل الضيوف من سلالتنا والعوائل المجاورة.. كان أجدادي سعداء بذلك. سعداء بلمة الناس وحيوية الحياة حتى أن أحد أجدادي خصص مكانا للكتاتيب لتعليم الفلاحين القراءة الكتابة، الغريب أن جيراننا

كانوا منزعجين من ذلك، ولا ندري لماذا؟ ربما سبب الانزعاج لأننا نعطي الفلاحين أهمية أكثر مما يستحقون، أو أنهم عدوا تعليم الفلاحين تحريض عليهم! وقد يكون السبب هو كبر الغرفة وجمال طراز بنائها؟ أو لأنها ذاع صيتها في الأفاق وسميت بيت الروح، حتى المنطقة سميت باسمها من قبل الأقدمين، وبات من المتعذر علينا تهديمها. البعض من المتحاملين علينا، كما ينقل أبي عن أجداده، كان يعتبر قرار بنائها هو قرار غبي، لأنه فرط بمساحة كبيرة كان يمكن استغلالها بالزراعة أو تربية الحيوانات، لا بل هي تصلح كمعاصر للبدس أو السمسم، وقد طلب أحد الجيران استئجارها لهذا الغرض، لكن أيا من أفراد سلالتنا لم يوافق على ذلك، خاصة بعد أن قيل إن هذه الغرفة (مخوثة) تسكنها روح أجدادنا، وهي روح الخير والمحبة. فقد تعرضت المنطقة للكثير من العواصف المطرية والهوائية والصواعق والفيضانات، وتهدمت الكثير من الغرف والبيوت وبقيت هي صامدة، فاعتقد الناس أنها بنيت بتوصية من أحد الأولياء الصالحين لجدنا! وهذا ما زاد في إغالة الجيران بالرغم من أننا لم نغظهم يوما. كانوا يتابعون كل ما يحدث ويقال فيها ويحاولون تأويله، فقد صادف يوما أن التقى فيها، بدوي مستطرق يحمل ربابة، وتاجر أسماك من الهور، وحدث أن تباريا بالغناء.. البدوي يعزف على ربابته وابن الهور على فرك مسبحته وسط ابتهاج ودهشة الجميع، فأشاع خصومنا أن هذه الغرفة مأوى للفساد لأن الغناء حرام ويجب تهديمها، ودعوا الناس إلى تهديمها وإزالتها من الوجود خاصة بعد أن قل تعاضد أبناء سلالتنا وانشغالهم بأمور الدنيا وهجرة الكثير منهم واستثمار أموالهم بمدن بعيدة، وعندما فشلت الفكرة أشاعوا أن من يتحدثون بالدين أو يقيمون المناقب والمجالس فيها، هم من الزنادقة والجهلة الذين يسيئون للدين وأن إزالتها واجب شرعي، وفعلنا تمكنا من استمالة بعض البسطاء من الناس وحاولوا حرق الغرفة لكنها لم تشتعل! وبقي هذا الأمر حتى تطورت الدنيا وظهرت دوائر الطابو وحدود المدن، وبات كل واحد يعرف حقوقه في الأرض والمياه وحتى السماء، فسجلت باسمنا ولم يعد بمقدور أحد الادعاء

بعائديتها له، لكننا لم نتخلص من ضغائنهم وأحقادهم التي بقوا يتوارثونها جيلا بعد جيل مثلما توارثنا نحن التمسك بها. عندما ظهرت عوامل الزمن على جدران الغرفة لم أقلق عليها مادام السقف سليماً، خاصة وأني أعرف حكاية بنائها الذي لا يشبه بناء أي غرفة في العالم؛ حيث يقال إن أحد أجدادنا الذي كان يملك هذه الأرض وهي بستان مترامي الأطراف كثيف الأشجار، طرأت في ذهنه فكرة غريبة، وهي أنه شد سعف عدد من النخلات العالية إلى بعضها وجعلها سقيفة كبيرة، سقفا سعف وجدرانها جذوع نخيل، كان يجمع فيها التمور في مواسم جنيها، وقد استلطفها الطواشون فراخوا يبيتون ويستريحون فيها، وأخذ هذا الجد، وهو البسيط المتسامح يلتقي العمال والطواشين والمحاسبين فيها ليخفف عنهم تعبهم، كان يستمتع لحكاياتهم وطرائفهم عن قراهم البعيدة التي قدموا منها، فأدمن عليها وجعلها مكانا لاستقبال التجار والسامسة الذين يأتون من المدن لشراء أو ضمان المحاصيل الزراعية. ويبدو أنهم أيضا استلطفوا الفكرة الغربية، فراخوا يكترون عليه بالمقترحات لتطويرها؛ قطع رؤوس النخلات

وربطها بأعمدة من خشب التوت في بادئ الأمر قبل أن يهديه أحد التجار أخشاب حمراء تشبه الحديد قيل إنه جاء بها من موانئ الهند البعيدة، فأحكم سقفاها الذي طلاه بالقار النقي الذي جيء به من عيون طبيعية تنبع في هيت بأعالي الفرات. بني السقف بطريقة مائلة بحيث لا تستقر عليه قطرة مطر واحدة، وتنزل عليه أكبر عاصفة هوائية مهما بلغت قوتها، صفوف النخيل الذي تحول إلى أوتاد عالية متشبثة بالأرض، أخذت شكل المستطيل الذي هو شكل الغرفة الحالي، وبين صف النخيل الخارجي بني جدار من الطوب المداف بالتبن، وجعل لها باب عال من الجهة المواجهة لمشرق الشمس، ونوافذ علوية دائرية ضيقة وأخرى سفلية مستطيلة. لا أحد يستطيع الجزم بنوع واحد من المواد التي بُنيت بها الغرفة ولا طريقة بنائها التي كانت تثير فضول كل من يزورها، فقد تلقى أجدادنا اللاحقون اقتراحات ومشورات ضيوفهم، وخاصة من التجار لتطويرها برحابة صدر، حتى يصح القول إن هذه الغرفة بُنيت بجهود أجيال متعاقبة، وخبرات أقوام تكاد لا تجد رابطا بينهم غير بنائها! فعملوا على استبدال وإضافة تطويرات جديدة



على الجدران لزيادة قوتها؛ منهم من سند الجدران بمصاطب من خشب التوت وملأها بالطين وزينها بخشب أشجار القوق الأبيض أو الساج، ومنهم من فخر الطين على شكل مربعات عريضة ورصفها مع بعضها بالقار، وفي جوانب من الجدران استعمل مزيج الرماد والنوره لبناء الطين المفخور بمشورة تاجر جلود تركي، حيث يفوق في صلابته الإسمنت الذي يستعمل اليوم، وثمة صخور وأحجار من الكلس والمرمر جلبت من الشمال مع أصدقاء أجدادي يمكن مشاهدتها في الأماكن التي تعرضت للتعري أو الثقوب.

هذه المعلومات المتناقلة تجعلني غير قادر على وضع إجابة لسؤال عن مواد بناء هذه الغرفة وبالتالي تعويض ما تفقده بالتعرية أو بفعل فاعل، فالجدران تتشكل من مجموعة مواد، تبدو متناقضة لكنها متراسة ما أثار استغراب أساتذة ابن عمي الذي درس الهندسة المعمارية في لندن، وقد تمنى بعضهم زيارتها، ليس فقط لفحص ومعرفة متانة بنائها، وإنما للاطلاع على شكلها الذي لم يرد في مخيلة معمار أو بناء واحد.. فجدوع النخيل الوسطية بقيت مثل الدعامات التي ترفع السقف، وتقسم فضاء الغرفة إلى آواوين تشبه آواوين المساجد الكبيرة، ومن يرى هذه الأعمدة الآن من الصعب عليه معرفة إنها جذوع نخيل، فقد تحولت لشدة نعومتها ولمعانها وكأنها أعمدة رخامية.. على مدى عقود من الزمن ظلت بأنواع الزيوت والدهانات حتى تشرب بها وأعطاهما قواما جديدا، وقيل إن تاجر عطور هندي اقترح على أحد أجدادنا حك هذه الجذوع بقطع أحجار خشنة لتكون ناعمة، وهو التاجر نفسه الذي طلب من جدي نحت بقايا تنوءات الكرب أو تعميقها وتحويلها إلى ما يشبه الأوراق الطالعة توا أو آذان متعددة، حتى سقي هذا العمود الذي يقع في وسط الغرفة (عمود أبو أذان).. وربما كانت الاستعمالات المتعددة لهذه الأعمدة هي التي أعطتها هذا الملمس الناعم الذي من النادر أن تكون عليه جذوع النخيل؛ فقد علق عليها الطواشون أدواتهم من مناجل وتبليات وزناويل عندما كانت مكان استراحتهم. وعندما استعملت للعائلة، غُلقت عليها جداتنا الأسماك والجلود وشدات الرمان والثوم وعثوق بعض أنواع التمور والزييب لتجفيفها وحفظها لمواسم فقدانها، وقراب اللبن والزيت، وبعد أن استعملت مضييفا اتخذها الضيوف مشاجب لتعليق ملابسهم وأسلحتهم، كما غُلقت عليها مصابيح الأتارة الزيتية قبل أن تغمرنا الكهرباء برحمتها، فهي مثل أي جزء من الغرفة لها تاريخها الذي أوصلها إلى هذه الأبهة. وقد يكون قلقي وانفعالي من ترميم الغرفة هو لحماية هذه الأعمدة الجميلة التي لا يصدق أحد أنها من جذوع النخيل! إذ يبدو لي أنه لا يوجد غيرها في العالم. شعرت أن هذا الهم لعنة.. لو أن أحدا من أسلافي استجاب لمنطق التغيير وهدم الغرفة

وخلصني من هذا الهم! فالبساتين الكثيفة تلاشت تدريجيا وقطعت أوصالها الشوارع والمدن وورش العمل، وبقيت غرفتنا أو بيت الروح كما تسميه الناس الآن على حاله، فأرضنا لم تعد بستانا، فقد تقاسمها الورثة على مدى أجيال وبنو فيها بيوتا، حتى أبي بنى أكثر من بيت حديث حول الغرفة، لكنه احتفظ بهذه الغرفة التي لم يفصلها عن بيوت أبناء عموتي وإخوتي سوى مسافات لا تتعدى عرض شارع فرعي. وعندما قَرّر أبي توزيع الإرث بيننا وهو على قيد الحياة، اخترت أنا هذه الغرفة الكبيرة بدلا من البيوت الحديثة مع حديقة جانبية ملحقة بها. اخترتها وأنا قلق عليها. قلق لم أركن إليه تماما بالرغم من أنه بزغ في ضميري منذ طفولتي.

لا زلت أتذكر تلك الليلة، كما أتذكر شكل رجل الدين وهو يلقي مواعظه بطريقة أثارت الرعب والذعر في نفسي، وخاصة عندما تحدث عن (طوب أبو خزامة). سينتشر الظلم في الدنيا، ويشيع الفساد، والقوي يأكل الضعيف، ويمارس الناس الزنا في الشوارع فوق الجثث التي صرعاها الطاعون، وفي الخرائب التي تخلفها الفيضانات، وستسلب حتى أكفان الموتى إذ لا يجد العراة مايسترون به أنفسهم، ولا يجد الجياع ما يأكلونه، عندها ينهض (طوب أبو خزامة) ويحطم سلاسل الحديد التي تقيدته انتقاما للفقراء ونصرة للحق. طعبا هذه السلاسل التي ترونها الآن تقيدته في مدخل سوق الهرج المتجه إلى السراي، وضعها الظلام والفساق لكي لا ينهض الطوب -وقد لاحظت الكبار يهزون رؤوسهم موافقين رجل الدين ومذكرين بعضهم البعض بسمك السلسلة- لكن الله أقوى من الظلمة، سينهض الطوب ويقطع قيوده ولشدة غضبه سيلتهم التراب بخزامته بعد أن يبعد الظلمة البارود عنه ويقذفه على بيوت الظلمة والفسقة والكفار فيهداها على رؤوسهم.. ويقال إنه سيواصل قذف حممه حتى يفني المدينة كلها التي تشرب فيها الفساد والظلم، ولا يسلم من غضبه هذا سوى بيوت الله ومرائد الأولياء الصالحين الذين سينهضون من رقبتهم لإصلاح الدنيا. عندها شعرت أن شيئا ما يشكني في قلبي، فنذّ مني سؤال مفاجئ يشبه الصرخة «حتى هذه الغرفة؟»، فمسح على رأسي عمّ أبي الذي كنت أجلس إلى جانبه متكئا على الحائط وأجاب «كل شيء حتى هذه الغرفة».

منذ تلك اللحظة والقلق يأكلني، ويكاد لا يمر يوم في حياتي من دون تخيل الشكل الذي سارى فيه الغرفة وهي مهدمة! والذي أثار ذعري أكثر أن أول ثقب لاحظته في الجدار هو في المكان نفسه الذي كنت أتكئ عليه عندما استمعت إلى موعظة رجل الدين تلك؛ في البدء لم أنتبه إليه، فقد تركز انتباهي على تلك التقشرات التي أصابت الجدار، بدا لي الأمر طبيعيا بالنسبة إلى جدار غرفة قديمة لم يدرك تاريخ بنائها أحد من جيلنا أو

الجيل الذي سبقنا، لكنني لاحظت أن مكان التقشر بدا يتقعر بالتعري ويستدق في عمق الجدار على شكل مخروطي! أبدت قلقي إلى أحد أبناء عموتي فلم يكثرث كثيرا وقال: ربما هي نوع من الطفيليات تعيش على الرطوبة في الأماكن القديمة، لذلك يجب معالجتها بالمبيدات. وبرغم علمي أن جدران غرفتي ليست رطبة، فقد طفت علي مختلف الصيدليات ومذاخر الأدوية والأسواق والطارين بحثاً عن هذه المبيدات، وجلبت الكثير منها، المقلب، والمصنع، والمركب، والمغلف بالعلب الأجنبية، والمعبأ بالأكياس واللفات الورقية، لكنني لم أجد أثرا لذلك! فقد فوجئت فجر يوم ربيعي شهدت ليلته الكثير من العواصف والزوايع، أن مكان التعري يصدر صفيرا يعلو تارة ويهبط تارة أخرى. في البدء لم يخطر في بالي أنه من مكان التعري نفسه! قزبت أذني منه، كان يعلو ويهبط على إيقاع الريح الخارجية، دققت النظرفي عمق التعري المخروطي، فصعقت بوجود ثقب بحجم عين الذبابة يكابد مشقة الصمود أمام ضوء هائل يريد أن ينفذ منه، وبدا لي أن هذا الصغير هو عويل يستنجد بي لإنقاذه من هذا الدفق الذي يريد أن يوسعه بأكل حافات الجدار. لشدة قلقي ذهبت إلى عمي وهو أكبر المتبقين من سلالتنا، ولا أدري إن كانت برودته التي قابلتي بها هي عدم مبالاة أو تهوين للأمر بعد أن شاهد ارتجافي القلق، حيث قال لي:

- هذا الثقب ربما كان مكان خرق رصاصة من معارك سابقة. فالكثير من خصومنا من العشائر والجنדרمة وجنود الولاة أطلقوا الرصاص على هذه الغرفة العتيقة، وبخت أجدادنا كان يحميها، لكنه لم يمنع الرصاص من اختراقها. فكانوا يصلحون الثقوب بالطين أو الجص، وكما تعلم أن الذي يصلح لا يعود مثل الأصل لذلك تأكله الريح!

انتبه عمي إلى عدم قناعتي بما يقول، فقد كانت صورة الثقب تتسع في رأسي وأنا أفكر بالذي سأفعله حينئذ، فواصل حديثه: - الناس تتحدث عن أكبر هجومين بالأسلحة النارية تعرضت له الغرفة، الأول عندما احتلها العثمانيون وجعلوها مركزا لجمع الناس وسوقهم إلى (السفربر)، والثاني عندما هاجمها الإنكليز في بداية الاحتلال بعد أن امتنع الناس عن بيعهم المواد الغذائية امتثالا لفتاوى المراجع الدينية، لكن الله حماها.. فلا تقلق يا بني، أغلق الثقب بالنailون وضع عليه إحدى قطع الأثاث وسينتهي كل شيء.

تمنيت لو أن والدي مازال حياً، لكان أعطاني حلا أفضل، فهو الأعلم والأحرص على تراث العائلة وحكاياتها من بين كل إخوته الذين أخذتهم مشاغل الدنيا، لكنني مع ذلك نفذت ما اقترحه علي عمي، برغم عدم قناعتي به فوضعت قطعة Nailون ملون وركنت عليها صندوق السييب الأسود الكبير

المطعم بالمسامير الفضية والمغلق بأقفال ثقيلة مزخرفة! لم تنته المشكلة! كل يوم أنتبه إلى تقشّرات جديدة في طبقات الأسمنت والجص والطين المداف بالتبن، وتفتطرات بالحجر واللبن، فتزداد هواجسي، ويقلّ اهتمام عائلتي! أعمامي وأبناء عمومتي يقولون إنها مجرد تغيرات في الألوان بفعل الزمن ولا مردّ لحكم الزمن، وأولادي لا يريدون استمرار الجدل معي فيقولون لي: «لكنها تكاد لا ترى ولا تؤثر»، فتترسخ قناعتي بوجودها. التقشرات تتعمق كلما تفحصتها صباح كل يوم. ما إن يطلّ الفجر حتى ألقى بنظري الكليل في أعماقها، او أتلّسها بأصابعي فأجد أنها تتقعر بشكل مخروطي يشبه البوق المنحوت. ذات ليلة سمعت صوتا يشبه الصفير. صفير حزين جدا كأنه النواح الذي يحمل في طياته نذر الشؤم، رحت أمسح الجدران بأذني، استيقظت زوجتي، ولاحظتني أضع أذني على الجدران وأمشي ببطء جنبها، رفعت رأسها ومن ثم عادت تغط بنوم عميق من دون أن تكلمني، توقفت عند الصندوق الأسود، انقطع صوت الصفير، انتظرت قليلا متلمسا مسامير الصندوق التي صفت على شكل نسر فارشا جناحية في وضع تهَيؤ الانقضاض على فريسته، ومن ثم نزلت على مقبضه النحاسي العريض المزخرف بأشكال مثيرة، هززته وكأني أحاول فتحه، خرخش القفل الكبير فأيقظ زوجتي ثانية. رفعت رأسها وأعادته، لكنها لم تغمض عينها هذه المرة فراحت تراقبني من تحت اللحاف متصنّعة النوم. تمنيت أن أفتح الصندوق لأقضي الوقت قبل أن ينطلق الصفير مرة أخرى، اشتهيت أن أشم رائحته الغريبة، التي كان يسميها ابني الكبير عندما كان طفلا «رائحة العجائز». صندوق قديم ورثناه عن أجدادنا، وهو ليس الصندوق الوحيد لكنه الأكبر، وكان من حصة أبي لأنه الأكبر، وكان يعده مثل روح الأجداد التي ينبغي الحفاظ عليها مهما كان الثمن وتحت أي ظرف، فلم يغير أي شيء من محتوياته؛ خنجر موضوع في قراب من الجلد المتقرن، وفناجين قهوة مذهب، وعصا من العاج المطعم بالفضة تعود لجدي الذي ورثها عن أبيه، كفن قيل إنه نُقِع بماء زمزم جلبه أحد الحجاج هدية إلى جدي، راية خضراء لا أدري من الذي جلبها من مرقد أحد الأئمة، ومساوك ومسابح، ويشماغ أبيض عليه خطوط بلون المسك وآخر مرقّط بالأسود، وعلبة سجائر معدنية وحافظات أوراق ضمت مكاتبات وسندات أراض وعقود تجارية قديمة، لم يعد أي أحد بحاجة إلى تقليبها.

عدت إلى فراشي، وقبل أن أنام سمعت الصفير ثانية، أيقظت زوجتي التي كانت متظاهرة بالنوم، وسألتها:

- هل تسمعين الصفير؟

لاكت في فهمها أحرف كلمات لم أفهمها، أضفت:

- إنه صفير يشبه صفير الريح النافذة من الثقوب الضيقة.





تتقشر تلقائيا! حيث تنطوى قشرة الطلاء البلاستيكية نازلة من الأعلى إلى الأسفل وقد قشطت معها طبقات من الجدران. بدأت التعريات والثقوب تملأ الغرفة بالصفير.. صغير متوال، ومتعال، يشبه عويل حشد من النساء الثكالي، صفير مُنذر راح ينبثق من مختلف الجدران ويثير فزعي وكأنه مناشير تقطع أعصابي، ضاق بي جسدي وأنا أطلق نظرات حائرة الى السقف، تفجر شيئا ما في دواخلي، انقضضت على المهندس الأجنبي وأخذت بخناقه، حاول الإفلات مئي وهو يدفعني برأسه ويديه، فقضمت أنفه بأسناني، حاول معاونته تخليصه من يدي لكن جسدي التحم بجسده الذي بدا لي ضئيلا جدا وناعما حتى لم أعد أشعر به لولا صراخ المذعور، تلقيت ضربات على جسدي ورأسي كي يخلصوا رقبتة من قبضة أصابعي التي أنشبت أظفارها في رقبتة وجعلت الدم يتدفق ويملاً عيوني وأنفي قبل أن أتلقى ضربة قوية على رأسي أسقطتني على ظهري، لأجد عيني الغارقتين بالدم بالكاد ترى أولادي وأولاد أخي يشدون يدي بقوة ويبحثون عن وثاق لها بينما انشعل الآخرون بمعالجة زوجتي التي كان الدم ينزف من أنفها ورقبتها قبل أن ينقلونها إلى المستشفى وسط عويل بناتي! أما أنا فقد استسلمت تماما لهم وهم يوثقون يديّ ورجليّ وسط زهول شل لساني، واستغراب جعل عيني مفتوحتين على سعتيهما حتى بعد نقلي إلى المستشفى! لم يسألني ولم أسأل أحدا من أولادي أو الأطباء والمضمدین الذين اجتمعوا حولي وسط تأكيد الطبيب على عدم حلّ وثاقي حتى ينتهي من زرق الأبرة، وكانت صورة أولادي وأحفادي وأبناء إخوتي وهم يضغطون على يدي البائنة، هي الصورة الأخيرة لتي التقطتها من الدنيا قبل أن يزرقي الطبيب بإبرة أرخت جسدي، وغيبت رؤيتي، وغرقت في غيبوبتي التي حرص الأطباء على إدامتها بالحقن!

ومكائن تشبه الأسلحة وإسطوانات فيها أصباغ وسوائل لا أعرف استعمالاتها، وسلالم متحركة، وحبال ومساعدون لم أنتبه لوجودهم معه عند دخوله، أول شيء فعله أنه صعد على الصندوق المطعم بالمسامير الفضية وحاول أن يشك السقف الخشبي بنصل حاد النهاية، ولأن السقف عال سقط النصل من يده فثلم حافة الصندوق المفضض. شعرت أن أحد أضلعي قد ثلم وكدت أهاجم على الأجنبي وأخنقه! لكنه التفت إليّ بطريقة دبلوماسية ناعمة وهز رأسه معذرا. بعدها أخذ مطرقة وضرب رأس الأسد بقوة، فأصدر زئيرا بدلا من الرنين لم أعهده من قبل، فازداد غضبي ورحت أبحث عن ابن أخي لكي يمنع صديقه من عمل مثل هذه الأشياء، لكنني لم أجده! فقد امتلأت الغرفة بمساعدين بمختلف السحنات والأزياء وهم يعملون بأدوات غريبة لفحص الجدران والسقوف والأعمدة والأفاريز ويناقشون المقترحات بينهم، أما أنا فلم أعد أفهم شيئا مما يقولون، ولا أستطيع الكلام فقد شُلّ لساني وتجلط الكلام في بلعومي لكن الغضب كاد يدفع عيني إلى خارج محجريهما، التفت لي المهندس وأخبرني بلغة عربية مكسرة، أن الغرفة ستكون على ما يرام وأجمل مما كانت عليه. فتح مساعدوه إسطوانات وصفائح مليئة بسوائل رائبة، وراحوا يطلون الجدران بألوان براقة ذات قوام بلاستيكي التفت إليّ المهندس وقال:

- هذا نوع من البلاستيك سيسد الثقوب ويعطي الغرفة ألوانا براقة وجميلة أفضل من الألوان القديمة.

لم تعد الجدران كما كانت، كأنها غُلّفت بالسيراميك الملون اللامع، بدت جميلة للوهلة الأولى لكن الغرفة لم تعد غرفتي! غير أن السقف بقي نفسه، بلونه وقوامه ورائحته التي يوحىها لي عندما أتملاه بنظراتي اللابئة، وكنت أخشى أن يطاله طلائهم. شعرت بقلق، وقبل أن يكملوا طلاء الجدران، بدأت

فبادرتهم بالقول:

- ألم أقل لكم مهما حدث للجدران من ثقوب المهم أن يبقى السقف سالما؟.. هل رأيتم كيف انجمعت تحت هذا السقف برغم الثقوب؟

استغربوا مما أقول وسألني أخي:

- لكن أين هي الثقوب؟

فحدث ما يشبه الإرباك ولاحظت ارتباك زوجتي وهي تشير إليهم بالسكوت، قبل أن يبادر ابني الكبير بالقول:

- سنقضي على الثقوب ونعالجها.

التفت إلى عمي وبقية أفراد العائلة وكأنه يحثهم على تأييده قبل أن يواصل:

- ابن عمي اتصل بصديقه وأستاذه المهندس المعماري الذي درّسه في لندن ووافق على المجيء لصيانة الغرفة.. هو خبير في صيانة البيوت التراثية وشعر بالسعادة لأنه سيرى الغرفة التي حدث عنها ابن عمي أثناء دراسته.

في البدء شعرت بالاطمئنان، ورحت أسرد لهم ما اقترحتة جدتي لصيانة الغرفة وسد الثقوب والانهيارات، فسخروا منها، وراحوا يؤكدون على خبرة الأجانب الذين يرجع لهم الفضل في حماية آثارنا وصيانتها، وكنت ألاحظ فرحة زوجتي التي نهضت لتعدّ الشاي والمعجنات بنفسها ولم تكلف أيّ واحدة من بناتها أو حفيداتها أو كنانتها اللائي غصت بهن الغرفة، أما أنا فقد بدأت أشرد عنهم متمليا السقف العظيم، والدعابات والأفاريز التي نحتتها أيادي الناس عبر سنوات طويلة، والباب العالية التي تشبه أبواب القلاع القديمة ومطرقتها النحاسية الصدئة المنحوتة على شكل رأس أسد، اشتهيت بقوة أن أنهض وأضرب رأس الأسد على المطرقة النحاسية الهامد فوقها، لكنني لم أخف سعادتي بانقطاع صوت صفير الريح واختفاء آثاره أثناء وجودهم. استمرّ هذا الهدوء حتى بعد مغادرتهم إلى بيوتهم البعيدة أو المجاورة إلى الغرفة وإيوائي إلى الفراش.

لم تمض سوى لحظات على غفوتي، حتى سمعت طرقا على الباب، لم يكن من خلال مطرقة رأس الأسد أو النقر على الخشب. طرقا يشبه الدريكة أو الجلبة. فتحت الباب وأنا متيقظ الحواس، فغمرني ضوء باهر وفي وسطه ابن أخي المهندس وهو يدفع أمامي رجلا أجنبيا -ملاپسه وهينته تدل على أنه أجنبي- وقبل أن يقدمه لي فهمت أنه المهندس المعماري الذي جاء لصيانة الغرفة، فسحت له المجال من دون أن أعطي الفرصة لنفسني كي تتسائل عن السرعة التي جاء بها من الخارج.

انتشرت في الغرفة الكثير من الأدوات التي لم أجدها في يديه لحظة إطلالته من الباب، كأنها تتطالع من تحت الأرض، مثاقب، ومطارق وفؤوس، ومسامير بأحجام مختلفة ومناشير

- لا أسمع شيئا.. نم كفى وسواسا..

في الصباح بكرّت بالذهاب إلى جدتي التي تعيش في بيت عمي والتي بلغت من العمر حدا يسمح بوضعها في كتاب غينس، وعرضت عليها الأمر وشكوت لها عدم اهتمام الآخرين بما يحدث للغرفة التي شهدت أيام زفافها، راحت تتكلم بأشياء تشبه الحكم التي هي بحاجة إلى من يفسرها ويفهم فحواها ليتعض بها، لكن لا أحد من أبناء سالتنا يهتم بذلك! فشؤون الدنيا أخذتهم كلهم.. منهم من استثمر ما ورثه جيل بعد جيل واشتهرت عوائلهم بتجارة أو صناعة معينة صارت لقبا لهم، ومنهم من أخذتهم الوظائف وأيضا صارت لقبا لهم يتباهون به ونسوا تماما اسم عائلتنا. مع المواعظ والحكم التي قالتها جدتي، قالت لي أيضا؛ إن هذه الثقوب لاتغلق إلا بالطين الحزّي، وهو الطين الأحمر الذي قد لا نجده إلا في الجروف العذراء، وأعماق الأرض. يؤخذ ويخمر عدة أيام ويداف مثلما كنا ندوفه بالأقدام صباحا ومساء لمدة ثلاثة أيام أو أكثر قبل أن يصبح ناعما مثل الزبد عندها تملأ به كل الثقوب وتملج التقشرات، وتفخره بالنار فسيصبح قويا صلبا لا تأكله الريح والحشرات والهوام، لكن ما لم تجبني عليه جدتي هو كيف يتسنى لي حرق الطين وهو في الجدران؟ هذا يعني أن أحرق الغرفة كلها بالنار. إحراق سقوفها وأبوابها وأعمدتها وأفاريزها المصنوعة من أنواع الأخشاب.

لم أجد تفسيراً لما قالتة جدتي، هل كانت تنطق بحكمة أخرى أو لغزا من تلك الألغاز التي كانت تترك تفكيرنا بها؟! في الليلة التالية كان الصغير أعلى حدة.. صغير يشبه ذلك الذي تولده الريح عندما تمر بالأطلال والخرائب المهجورة، يولد في الروح المرارة والأسى.. صغير يبعث على الحزن وقد جلست ذات ليلة فعلا أبكي على صوت هذا الصغير وسط استغراب زوجتي، التي استيقظت هذه المرة وراحت تواسيني، لكنها لم تتفق معي على سماع أصوات الريح، طلبت منها أن تصغي جيدا، أصغت وهي مطرقة إلى الأرض، وقالت إنها لم تسمع شيئا، قلت لها:

- إذا كنت لا تسمعين الصغير، ألا ترين الثقوب، التي تنخر الجدران؟

- قالت هذه ليست ثقوبا، هذه مساقط ضوء وظل.

شعرت أنها تسوّف ما أقول، وكأنها تداري مشاعر طفل.

في الصباح طلبت منها ن نحول مكان الصندوق المطعم بالمسامير الفضية لئلا تتقبه الريح.. وفعلنا ذلك.

في المساء جاء أولادي وأخي الأصغر وبعض أبناء أخي الأوسط وابنتي مع أحد أولادها وأخواتي الثلاث، واستغربت لمجيئهم كلهم في مثل هذا الوقت، وكيف اتفقوا على المجيء! لم أنشغل بهذه الأسئلة، فقد كنت سعيدا بحكمتي التي أخبرتهم بها سابقا،



## رائحة الغروب في حزيران

# عمار يحيى

«تروي الحكايات القديمة أن طائراً يخرج من رأس القاتل الذي لم يؤخذ بثأره، ويستمرّ بالصراخ حتى يأخذ أهل القاتل بثأره». منذ الصباح وأنا أشعر بالجفاف في حلقي، وعيني اليمنى تغطيها غمامة صفراء، فيما تقف منذ أكثر من ساعة ذبابة سمينة على عيني اليسرى تمنعني من الرؤية. المساء مترب له لون عصفور مصاب بالسل، وخلفي يمتد حائط عال أستطيع أن أراه بطرف عيني إذا ما حركتها يميناً، عليه أثار دماء تسيل على الأرضية المغطاة بسوائل مختلفة، وفي مكان أقصى اليمين كان هناك احتفال من نوع ما، رجال متصلبو الوجه يأكلون لحماً مشوياً، ويلقون بعلب «ميراندا» وراء ظهورهم، ويتابعون شاشة تelfاز تبرق في عتمة الليل، شريط أخبارها العاجلة يدور بسرعة مريبة. كان هناك أيضاً مذيع يسلك حنجرتي مرتين قبل قراءة كل خبر، كأنه لا يفهم ما يقول، أو كأنه يوشك على التقيؤ. بينما يقف غراب على الحائط، في وضعية واحدة منذ الصباح كأنه خارج من غرفة التجميد، وفي عينيه دهشة كل غراب الكون، وجنود، جنود، جنود، الكثير من الجنود، كان بعضهم حليق الرأس، وبعضهم بنبذ صغيرة على شفاههم. وأوشام بعضهم تظهر كطلاسم تقاوم المحو.

كنت قريباً من الأرض إلى درجة لم أكن عليها سابقاً، ولا أشعر بجسدي، لكن أنفي يعمل بصورة جيدة كأنه يحمل ذاكرةً مستقلةً عن ذاكرتي، فقد استطعت أن أشم رائحة تراب تشرب دمي ودماءً أخرى اختلطت على الأرض حتى صعب علي تمييزها، كما شممت رائحة عفونة بدت كخليط من روث دابة قديم ورذاذ بول مراهق تخيلت أنه يحمل بندقية، وهناك أيضاً رائحة بارود محترق، وبقايا خراء عجوز خممت أنها رحلت منذ أسابيع، وزيت سيارة ورائحة شواء وأعشاب نهريّة، إضافةً إلى عطن جوارب الجنود الذي يرافقني منذ أشهر. وحدها رائحة «بسعاد» التي يمتزج فيها هيل وقرنفل وأشياء سحرية أخرى هي القادرة على محو رائحة جوارب الجنود التي تدهمني باستمرار، حتى إذا كنت وحدي.

كنت أشعر أيضا بحرقة هائلة في حنجرتي وبتصلب عضلات رقبتي، وإحدى عيني تغطيها ذبابة تمد خرطومها عميقا لتمدص

سائلا ما. لم أكن أستطيع أن أحرك أي جزء من جسدي الذي لم أراه منذ يومين.

في اليوم الأول كان جسدي يبعد عني خمسة أمتار أو ستة، تغطيه أجساد أخرى من غير رؤوس. لم أر جسدي سابقا بهذه الوضعية. كان ظهري أعرض مما كنت أتصور، وكانت لي شامة على كتفي الأيسر لم أعرف بها سابقا، ولم يكن غيبي يجرؤ على ارتداء ساعتها بيده اليمنى وإلا قال الجنود عنه كلاما سيئا. لو لم تكن ساعتني التي أضعها في يدي اليمنى موجودة لما تعرّفت على جسدي وسط كومة الأجساد المشوّهة. بعدها بساعات رأيت الساعة في يد شخص يمكنني أن أسميه «حرملة». كان يحمل سكيناً طويلة ويدور بها بفخر ويلف حول ظهره زئارا أشبه بأحزمة القصايبين.

حاولت أن أتحرك قليلا لكنني وجدت نفسي ملتصقا بالأرض  
بخليط من الدم المتخثر والطين، وجدت بجاني بعض  
الرؤوس التي لم يكن الكثير منها مبتسما، كانوا مغمضي  
العيون كمجاذيب أسكرهم وجد درويش مَرَّ صدفة ومضى  
لشأنه، ملامحهم كانت حيادية كوجه صديق قديم تسئم منصبا  
حكوميا كبيرا تلتقي به صدفة، فيدير وجهه كي لا تطلب منه  
أن يساعدك في العثور على وظيفة، وجامدة لا تنم عن طيش  
اعتاده الجنود، ولا عن تبرم تأخر الإجازة، ولا ملامح ثئبي عن  
رغبات مكبوتة.

طوال اليومين الماضيين حاولت أن أستوعب فكرة ابتعاد رأسي عن جسدي كل هذه المسافة محاولاً أن أحظى بنظرة لجيب قميصي الأيمن لأتأكد من وجود هاتفي النقال ورأبتي الذي استلمته قبل أيام. أما اليوم فقد اختفى الجسد تماماً بعد أن قامت جرافة بدفع الأجساد الآدمية إلى حفرة قريبة وكان لسقوط الجثث فوق بعضها البعض صوت يشبه ضرب الأكف على الصدور في لطمية يقرأها رادود مبتدئ ، كيف ستدبر «بسعاد» أمورها هذا الشهر؟ وهل سيقنعن صاحب البيت بأن رأبتي سرقه أحدهم؟ أو أن جسدي هو الذي سرق الراتب وفزّ به إلى الحفرة الكبيرة؟

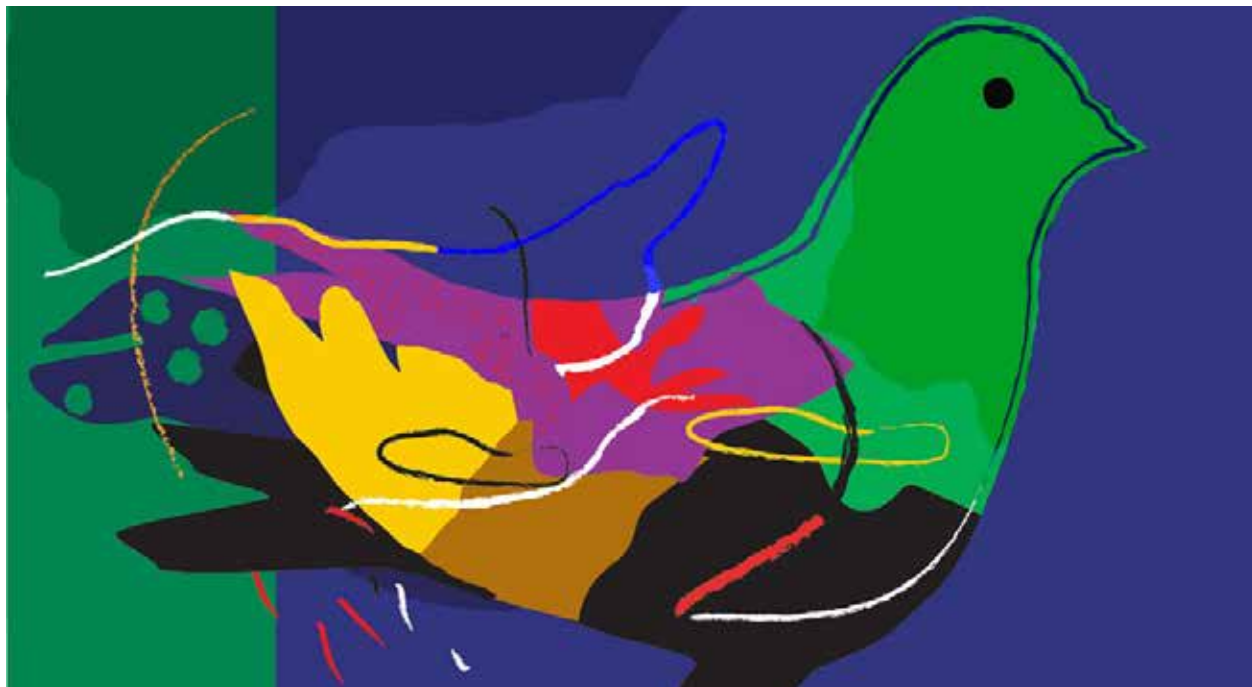


ضياء العزاوي

بهاتف نقال كان أحدهم يصوّر مشهداً آخر يجري بسرعة قبل حلول الظلام. أصحاب السكاكين الطويلة يطلقون النار على رؤوس أخرى ويدفعون حاملها إلى ما تبين أنه النهر، كانوا مستعجلين لدرجة لا يمكنهم معها التراجع أو التفكير فيما يفعلون.

ابتعدت الجرافة لتردم حفرة أخرى فبقي مشهد واحد أمام عيني، هو رصيف الشارع المؤدي إلى... مصبوغ بألوان اشد انضباطا من خطوات نائب عريف في الجيش أبيض وأصفر، أبيض وأصفر، أبيض وأصفر ، أبيض وأصفر، أبيض وأصفر،

أبيض وأصفر، أبيض وأصفر..... صفته تشع في الجو كبريق منائر إمام طعين. أو ولي مغدور. ولازالت الذبابة اللعينة تصر على دخول عيني للنفاذ إلى رأسي بحثا عن حل لتساؤل ربما داهمها فجأة. في اليومين الماضيين كانت كومة الأجساد مقطوعة الرؤوس تحمل بعض التسلية، فقد تعرفت فيها إلى أجساد أصدقاء كانوا زملاء لي في المعسكر، عباس من الديوانية، ومنتظر من سوق الشيوخ، وسجاد من خان النص وصفاء من... صفاء اسم حيادي لا أعرف مدينته. كيف أصبح اقرب أصدقائي؟ الأسماء الحياضية مقلقة، مثل بعض الأجساد



ضياء العزاوي

وعظاءات عابثة الرغبات أمام عيني بعد أن اجتذبتها رائحة الدم. وفي الجو تلاوة لسورة الرحمن يتلوها قارئ بلكنة مخيفة. خشيت على صديقتي الخنفساء المقلوبة على ظهرها من زحف الهوام الليلي هذا. حاولت أن أنفخ عليها لأساعدها، نفخت كل ما تمكنت الحصول عليه من هواء فأخذت الخنفساء تتدحرج حتى انتصبت واقفة. فشعرت بانتصار صغير، وحرمة، أو شقيقه، أو آخر يشبهه. يجري اختبارات صعبة للجنود الأحياء لمعرفة مدتهم وعشائهم وطوائفهم.

دبت الخنفساء على شفتي واستمرت تدور حولي بغزابة رغم عيون مخلوقات الليل التي تترصدها. كانت تستلقي على ظهرها ثم تتدحرج لتدور حولي مرة أخرى. شعرت أن الحشرة تحاول أن توصل لي رسالة مشفرة من نوع ما. لكن أحد أصحاب السكاكين الطويلة سحبها بقدمه فماتت رسالتها معها. أردت بدوري أن أحفلها رسالة أفكر في عباراتها منذ ثلاثة أيام، أردت أن أوصيها بـ"بسعاد".

حرملة آخر يدفع برجله كتلا كانت تتدحرج امامه لتصطف بالقرب مني، أقربها كان رأسا له بروفایل حاد غامض لم أستطع تبين هويته.

[illegible]

ن ن ن يبيبيي اااه ... في لحظة ما شعرت أن طائرا عملاقا بدأ يخرج من رأسي شيئا فشيئاً ويقف على مقربة مني ويهمس بأذني بحرف نون طويل ومكتوم محمل بالخيبة ن ن ن بيبيبي

دار عقلي مثل خلاط عصير وتناثرت آلاف الحكايات عن طائر طويل الرقبة يتغذى على الفراريج ويخطف الصيصان ويشوه الماشية ويقر بطون الماعز وينثر البثور والقوواء على أذرع الأطفال ويصنع دمامل تحت آبابهم لا علاج منها سوى خراء الأرناب، أو مسحوق نبته ذكر الكلب المجفف المخلوط بالزرقيون.

كان الطائر يحاول أن يهمس في أذني بالمزيد من حرف النون الذي يستطيل ويتضخم ليغطي كل ما حوله من أشياء لم تتعد طريقا بعيدا إلتهم الليل ألوان رصيفه، وبروافيل لرأس مقطوع ذي وجه حيادي تماما، وطائر بعينين كبيرتين ينقل بصره بيني

التي لم أتمكن من معرفتها بدون رؤية رؤوسها والتفرّس في الوجوه الملتصقة بها، خصوصا أن الجميع استبدلوا بزيّاتهم العسكرية المألوفة بالثياب المدنية التي جاؤوا بها من قراهم ومدنهم البعيدة. تعرّفت أيضا إلى طبّاخ السرية من كرشه الضخم وإلى ضابط صغير كان يصّر على أن ننسحب ونستبدل ثيابنا العسكرية بثياب المدنيين لننجو. لكن الجرافة اللعينة غيرت المنظر تماما وأنتهت هذه التسلية.

لم يكسر حدة منظر الرصيف الذاهب إلى... سوى خنفساء جاء بها المساء لتسليّ وحدتي، كانت الخنفساء تنقلب على ظهرها ثم تأخذ بضرب أرجلها الكثيرة في الفراغ محاولة استعادة توازنها. وكلما نجحت في الوقوف على أرجلها كانت ترتكب خطأ ما لتعود مرة أخرى لتضرب الفراغ بأرجلها الكثيرة.

في الليل كان هناك ثلاثة كلاب تحاول نبش الأجساد، سمعت طقطقة عظام أحدهم في فم كلب أعور وسمعت صوت تمزق قميص، وجنرال بلنغة مميزة يدافع عن نفسه بحماس في التلفاز القريب، يقول إن الجنود هم الذين عصوا الأوامر. أصوات توسل، الله يخلي أولادك، إنجب، أبش تبي الحين، أنا يتيم، كفره، استغاثات، يا علي، بص أودامك، نذبوحه ولا ما نذبوحوش، يُبه كص راسه ولا يهكم، لا باس باش نقتلوه، حرملة كان يطلق النار من بندقية روسية دون أن يتمعن كثيرا في وجوه أهدافه فيما كان حرملة آخر يردد الله أكبر، الله أكبر، وبين «الله أكبر» و«الله أكبر» كان يهوي رأس تتبعه «تبارك الله» و«له الحمد والمنة»، وأصوات لاجطة أخرى تغطي آخر «الله أكبر» خافطة تلتصق بشفتي الرأس المقطوع. أحد حاملي السكاكين الطويلة كان يلتقط صورا لكل «الله أكبر» ولوجوهنا وللجرافة المنهمكة بدفن الأجساد في الحفرة.

عندما قطع أصحاب السكاكين الطويلة رأسي كان المصور نفسه موجودا أيضا وكان حرملة يقف بشماتة وكنت مبتسما ابتسامة بليدة حينما توغلت السكين في رقبتى. وتذكرت شعور البلل الذي أصاب أعلى صدري وقميصي بعد دفقة غزيرة من الدم الساخن. والمصور وصاحب السكين ينشدان نشيدا بدويا نحاسي الثبرات. ينافس في العلوّ صوت الجنرال وهو يدافع عن نفسه. تخيلت مديعا سليط اللسان يحملني مثل سندانة دامية ويضعني فوق طاولة حوار تلفزيوني طويل لأضع عيني في عين الجنرال للعب لعبة تحدي النظرات لأرى من يجبر خصمه على أن يغمض بصره في النهاية.

شعرت الذبابة بنظرة التحدي فغادرت عيني اليسرى، وكنت سعيدا للحظات لأنها طارت بعيدا لتدخل في أنف كامل مطشر، عدد الرشاشة "البي كي سي"، لتطير بعدها محاولة أن تجد لها طريقا في شوارب طاهر عبدالزهرة الذي خاض سبعين حربا ولم يمت. عوت كلاب وبناات آوى ودبت خفافس وثعابين ونمل

وبين طائر آخر بدأ يخرج من رأس صاحب البروفائيل الحياضي، كانت هناك أيضا شفتان غليظتان مفخختان بالبوتكس تقرآن خبرا يعاد منذ الصباح عبر شاشة نزقة، رتبة عسكرية بلغة لعينة تحاول أن تقول إن صاحبها غير مسؤول عما يجري، بدلة إيطالية زرقاء تختبئ عن فضول المصورين، دشدشة تسحب بضعة جنود لتطلق سراهمهم وأخرى تسحب آخرين لتذهبهم لسكين طويلة، كرش ينتفض مطالبا بالثأر على الشاشة، ورباط عنق يحاول أن يسخف الأمر ويخفيه ويقول إنه فيلم تلفزيوني وليست عملية ذبح جنود، عمامة تهتز معلنة حيرتها، حذاء نسائي يطرق المرمر اللامع ، وغطاء رأس امرأة جنوبية يحلق في فضاء مشهد سريالي محرج ينقله التلفزيون مباشرة أمام شوارب راعشة وجباه معروقة من الحر وليس من شيء آخر. رتبة عسكرية أخرى تتحدث بحماس فيما كانت غترة تهمس في أذن لثام داكن لتتحرك لحية كثة للإجهاز على ما تبقى من رؤوس.

ن ن ن نننه، قلتها بسرعة وبصوت خفيض محاولا تقليد الطائر، فراق لي سماع صوتي فكررت الأمر محاولا أن يكون حرف النون أطول في المرة الرابعة لمحت التماعة في عين الرأس صاحب البروفائل المتخشب جعلته أكثر ألفة. ن ن ن نننننن يييييي آآآه كزّت الصوت، في المرة السابعة سمعت حرف نون ينطلق من أحد الرؤوس القريبة ثم تكاثرت الطيور واسعة العيون. أذهلّني المفاجأة فبحث بعيني عن الخفساء محاولا أن أشركها في اكتشافي. فتذكرت أنها ماتت وهي تتدحرج، ففهمت على الفور رسالتها، وخطرت لي فكرة تقليدها

وحاولت أن أ.. ت.. د.. ح.. ر.. ج..  
تدحرجت قليلا فتيعتني الرؤوس الأخرى. تدحرجت بصورة  
أسرع فلحقت بنا الطيور كبيرة العيون وصفقت بأجنحتها  
وطارت. بعد عدة محاولات في الدحرجة سرت بين الرؤوس  
المقطوعة فكرة البحث عن رماح نتخذها أجسادا بدل أجسادنا  
في مكان آخر. وبعد لحظات كان هناك سرب غريب من الطيور  
يخلق في السماء متبوعا بسرب آخر من الرؤوس المقطوعة  
المحلقة.

## روایات نساء حی الشہداء

- زوجة صاحب المقهى روت أن العجوز بسعاد لم تكن تبكي بل كانت تسأل فقط، سألت صاحب المقهى عن أخبار جديدة فردد على مسامعها مرة أخرى أن الحكومة تقول إن ما بثه التلفزيون ليس سوى فيلم ولا يوجد جنود مذبحون. عمي إعلام كله كذب.

- زوجة الخباز قالت إن بسعاد سألت زوجها أيضا عن أخبار جديدة فقال إنه لم يسمع شيئا، لكن زوجة الخباز نقلت عن زوجها ملاحظة لم يصدقها أحد، فقد ذكر الخباز أنه شاهد حميدة وهي تمشي على أطراف أصابعها وكانت توشك أن تطير.

أم مسلم نقلت رواية روتها لها حميدة شخصيا حيث قالت:  
في هذه المرة كنت مضطرة للخروج للبحث عن صوت آخر  
غير هذا الصوت الذي يخترق أذني منذ ثلاثة أيام، في البداية  
كان صوت أنهن باهت لا يكاد يَتَبَيَّنُهُ سوى الأشخاص الذين



اعتادوا الوحدة. ثم تحول الصوت إلى نعيب خافت غريب محفل بالوحشة. ولم تكمل باقي الحكاية فقد اختفت.

- تداولت نساء الحي في اختفاء بسعاد ثم اتفقن على رواية رجحت لديهن تقول إنها لم تعرف للبكاء طريقا وكانت تصبر نفسها بترديد جملة «ماذا أقول لفاطمة الزهراء إذا بكيت على ابني ولم أبك على ابنها» لكنها حين سمعت أحد الرواديد العاشورائيين ذات يوم وهو يقرأ «يمه اذكريني من تمر زفة شباب» فشحطت روحها ونبتت لها أجنحة وتحولت إلى بومة.

### روايات رجال حي الشهداء

- أهالي الطليعة روى قصة رجل مقطوع الرأس يتمشى على الطريق السريع من تقاطع سوق الشيوخ ويعبر الجسر وصولاً إلى حي الفداء، وأكد ذلك اثنان من الزعيلات وأبو جراح الكويتي.

- أهالي الثورة شاهدوا جندياً دون رأس يدور في الأحياء ينم في بستان زاير حنون ويقطع ليليا المسافة بين الثورة والمنصورة بسرعة لافتة للانتباه.

- روى شرطي من حراس المصرف العقاري عن مشاهدته لرأس محمول على رمح قرب بيت مجيد طوبية تخيل أنه من بقايا موكب الحدادين لكنه فوجئ بأن الرأس كان يئن ويضطرب بعينه، وروى أحد العاملين في مركز الدفاع المدني في سومر شيئا مشابهاً.

- مخبولة اسمها «أم يدي» ثرثرت كثيراً عن رؤوس طائفة ولم يصدقها أحد. فيما بعد أصبحت هذه الرواية مؤكدة بعد أن رواها عدد من أهالي حي التنك وأهالي الشوفه والعكر والعرجه. بل إن أولاد سيد طالب أصبحوا أكثر المقتنعين بهذه القصة لكثرة ما سمعوها من رواد مطعمهم.

- قرر المسرحي علي عبدالنبي الزبيدي وجماعة من مريديه الشكوى للفرات كل مساء في طقس مسرحي ينتهي بنثر بذور الشعير في النهر، وهدته آخر نوبات جنونه إلى اختراع امرأة تهدد الرب بالامتناع عن الصلاة والصيام إن لم يمنع موت الأبناء في الحروب. فيما كان الشاعر علي الشيال يوشوش كل بئر يعثر عليه خوف أن يبوح بسر رؤيته لعيون الموتى كل ليلة.

- آل زويد الذين يسكنون حي أريكو تحدثوا عن قصة جندي مقطوع الرأس يظهر كل ليلة ووصل خبر القصة إلى «البطحة».

فتناقلها أبناء عشائر آل غزّي والبدور برمتهم. ثم تولى كل بدوي من آل زُفيع مهمة نقل القصة بطريقته في البداية، وتطورت القصة كثيراً في المسامرات الليلية لدرجة أن القصة التي تروى في «بصية» تختلف عن أختها التي تروى في «عبله والحصان» و«الكطيعة» بل إن القصص التي تروى في «الرقعي» و«المطلاع» وراء الحدود لا تمت بصلة إلى القصة الأصل.

- أم وجدان روت لكل أهالي الصالحية تقريبا عن رؤيتها لسبعة شبان يرتدون ثياب المشاية يسيرون في شارع العروبة جيئة وذهاباً بلا رؤوس.

- أهالي «الأربعمية دار» في مدينة الصدر كلهم تقريبا يعلمون بقصة الفارس المقطوع الرأس، الذي شوهد أيضاً بين نزلة العمارات الثانية ومستوصف الإسكان الصناعي.

- نقل مقربون من الشيخ جعفر الإبراهيمي والسيد محمد الصافي بأنهما كانا يشعران بأنهما كلما طالبوا مستمعهم بأن يئنوا في التعزيات الحسينية في قفلة بيت الأبودية كان صوت الأئين أكبر من صوت الموجودين وإن هناك جمهوراً آخر يواصل الأئين حتى بعد انتهاء المجلس. ولم يكن يحدث ذلك في قفلة بيت النضاري أو الملائي أو الزهيري. بل أكد ذلك الملا باسم الكربلائي شخصياً.

- روى الكاتب حسن عبدالرزاق أن تقليداً جديداً بدأ يظهر هذا العام في محرم هو إقامة أطفال الناصرية لتشابهه من نوع جديد تقوم على شد وثاق الأطفال الذين يمثلون دور أبناء الحسين وجعلهم يقرفصون ثم يقوم الأطفال الذين يمثلون أدوار الشمر وحرملة بقطع رؤوسهم وإلقاء أجسادهم في حفرة.

- أما الناقد علي شبيب ورد فقد كتب في جريدة «عكد الهوى» مقالا قال فيه إن ذائقة المجتمع تعتمد مشغلا تحرك أدواته ضمن انزياح بصري ذهني، لكتابة نص التأويل النقدي وإعادة صياغة التأويل الجديد عبر عملية مخاض عسير تشكل من خلالها نصوص تأويلية وفق كولاج (حسي/ذهني) لنصوص مقترحة، ويعطي الناقد مثالا على ذلك أن أهالي الناصرية أخذوا يعيدون تمثيل قصة مقتل أولاد مسلم بن عقيل مع تغيير طفيف فقد أخذوا يمثلون عملية إطلاق النار على رؤوسهم بالمسدس قبل رميهم في الفرات، بدلا من قطع رؤوسهم بالسيف.

- أهالي الموحية، حيث تغرب الشمس، يعرفون السر أكثر من غيرهم، فالغروب عندهم يعني خروج عشرات الرؤوس المقطوعة والطيور الكبيرة العيون من بين تدرجات اللون الأحمر والبرتقالي لتطير باتجاه المباني الحكومية وهي تطلق ذلك الأئين اليأس ن ن ن ييببيي آآآه لكنها تضيع أحيانا في أزقة المدينة، وقد روت فتاة أن الرؤوس تعد لتظاهرة أمام مبنى المحافظة في محرم القادم.

\* لا تبحثوا عن أسماء الأشخاص الواردة في هذه القصة فربما يكون بعضهم ميتا. فلا تزعجوا الموتى بفضولكم.

\* لا تسألوا عن الأماكن الواردة في هذه القصة، فبعد حروب الخرائط الجديدة التي استلم مقاوله تنفيذها أصحاب السواطير، لم أعد واثقا من عائدة أي مكان.



## عودة الشيخ إلى أرابخا

عواد علي

إلى حسب الشيخ جعفر

(1)

كف البحر عن اصطخابه، فتطلع إليه الشيخ عرفان من نافذة الكوخ.

الساحل امتداد لا نهاية له، وهدوء البحر عميق، صفحته ملساء، لا أمواج ترجرجها ولا طحالب خضراء تغمرها. حياة وعدم. بحر ساج يغفو على أنامل ضوء القمر، وكوخ مطلق متوحد في فردانية محلقة بين الفراغ والملء. جسد فسيح المدى، متفتح للشهوة كزهرة زنبق، ونفس غارقة في عزلتها كزنزانة مغلقة. كف البحر عن ارتفاعه وهبوطه. انجابت العاصفة، واستعاد كل شيء سكونه إلا الشيخ عرفان، فقد تصدع وهم خمسين سنة في داخله. اقتلعت ريح الحياة وألقته في فراغ مهول كفض مفصول عن خاتمه.

ساعتان وبيزغ الفجر، لكنه لا يجرؤ على الخروج من كوخه الخشبي، فعبق فتاة البحر ما زال يملأ الفضاء، وها هي خيوطه تنفذ إلى عالمه الصغير من منافذ الهواء، تهب عليه كالأعاصير فتتمله، وتخلخل وجوده الزاهد المتقشف، وتضرم في صدره حنيناً جارفاً إلى عالمه الأول.

سينتظر إذن.

حين يأتي الصباح سيكون له شأن آخر مع هذا النفي الظالم للنفس. سيخرج من قبره المهجور إلى رصيف العالم الرحب. سيدق عنق مصباحه الزيتي الصدئ، ويمزق كتبه الصفراء التي مات الزمان في سطورها، ويدفن فراشه المضطج برحيق الحياة تحت الرمل، وينطلق وحيداً ملتاعاً إلى بهجة آخر العمر.

(2)

في الطريق إلى أرابخا، قطع الشيخ مساحات موحشة من الأرض، اجتاز كنباناً رملية، وسطوحاً متموجة، وهضاباً مقفرة، وأودية جافة، وسهولاً خضراء، وتسلق جبلاً ملتوية ذات صخور نارية، وكاد يغرق مرتين في نهري «ردانو» و«تزنات»، ونجا من الموت، بأعجوبة، في ليل «خندالو» حالك السواد، ونام في أحراج وكهوف تأوي إليها حيوانات من عصور سحيقة، وسد

جوعه بأصناف من الحشائش والشعير البري ونبات الخباز. كان الليل في أوله، وظلال بيوت أرابخا تتراقص كأسماء ملونة أمام ألسنة النار الأزلية. رآها من بعيد، فتساءل في داخله «هل ما زالت على سابق عهدا أم تغيرت فيها أشياء كثيرة؟ ثرى هل سيعرفني أحد من أصدقائي الأحياء؟ ونديم، أما برح يسقي زبائنه من خمرته المعثقة أم أن الدهر أحنى ظهره، وفرق بينه وبين الكأس؟».

حين بلغ مدخل المدينة الجنوبي انتابته دهشة شديدة، وهو يقف كالمشلول أمام البرج الشاهق، وحوض الأسود الحجرية التي تبعت من بين أشداقها نافورات بلورية. لبث بعض الوقت، ثم استأنف مسيره متوغلاً إلى قلب المدينة، وعيناه لا تكلان عن التحديق إلى قصورها الجديدة الفخمة التي يحرسها رجال ذوو سحنات داكنة، والمتنزهات المحاطة بحواجز حديدية تفصلها عن الشارع، والسيارات الفارهة التي تحضن مقاعدها نساء لهن وجوه مدورة خمرية، وشفاه دقيقة مكتنزة، ونهود كعناقيد كرم مرصوفة.

في نهاية شارع الملك آشور أبصر مباني القلعة ذات الجدران المشققة، فشعر بالغبطة، وتنهد بكل جوارحه، وحث خطاه المتعبة صوب الجسر الصغير، ومن هناك تأملها عن كثب فوجدها لا تزال أليفة، محتفظةً بهائها. لكن كيف سيرتقي درجاتها الحجرية، ويلج أزقتها الضيقة؟ وأي باب يدق؟ من سيرفره بعد نصف قرن وهو الرجل الطالع من ثغرة هشة قلقة؟ رجل من دون تاريخ سوى أسرة لا يعرف كيف سكن إليها. هرب أفرادها، واحداً تلو الآخر، إلى بلد مجاور إبان المجاعة التي أعقبت غزو الجراد المشؤوم، وتركوه وحيداً يقاوم أمواج الحياة المتلاطمة.

إلى أين سيذهب إذن؟

لا بد من البحث عن نديم. كانت الحانة التي يعمل نادلاً فيها تقع منتصف الشارع المقابل للجسر، حانة «بابا گرگر».

ترك الجسر خلف ظهره، وسار بقدمين مثقلتين، وعيناه ما انفكتا تحمقان إلى ما يحيط به كطفل يستقبل الأشياء أول مرة. فجأة لمح لوحاً ضوئياً رُسمت على أحد جوانبه صورة

صيا، المزاوي



للملك شلمانصر وهو يمد ذراعه إلى حورية تحمل كأساً مملوءةً بخمرة إلهية، وفي موازاة الصورة حُط اسم الحانة بحروف بارزة داكنة الحمرة. اقترب من بوابة الحانة فلفحته رائحة مسكرة، وسمع لقط الندامى، ونداءاتهم الجافة على النذل، مختلطة برنين ملاعق، وضربات متلاحقة على سطح إحدى المواثد. دفع البوابة المترججة، وهبط درجات منحوتة من الصخر، فاطمأن إلى أن الحانة لم يجر عليها إلا تغيير طفيف، تزيناها مصابيح بعضها بحجم الكمثرى، وبعضها الآخر بحجم اليقطين. أجال الشيخ بصره في أرجاء الحانة، وراح يتفحص الوجوه



المشرئبة التي أخذتها الدهشة من قامته الملفوفة بخرق ممزقة، فتأفف بعض أصحابها، وأسمعه آخرون ألفاظاً خشنّة، ومن آخر الحانة تقدّم إليه شاب ثمل، وقدم له كأساً مترعة بالعرق، فالتقطها على عجل وعيها في جوفه، ومسح بأصابعه ما تطاير منها على لحيته الكثّة، فالتهبت أيادي بعض الذين لم يبدوا ردة فعل بالتصفيق، وماجت أفواه بعضهم الآخر بالصفير. وحين خفّت جلبتهم عبر من بين الموائد قاصداً الرجل الذي يقبع خلف الحاجز الخشبي السميک للبار، وقال له بتردد:

- أتعرف رجلاً كان يعمل ساقياً في هذه الحانة اسمه نديم؟

سأله الرجل:

- هل تستطيع التعرف إليه إذا رأيته؟

- لا أدري بالضبط، فقد مرّ زمن طويل مذ فارقتّه.

- أهو صديقك؟

- بل أعزّ أصدقائي.

- غير معقول! أعزّ أصدقائك ويصعب عليك التعرف إليه؟

- لا تستغرب فقد انقضى خمسون عاماً على فراقنا.

- قل لي بحق السماء هل أنت عرفان؟

- عرفان بلحمه ودمه. لكن من أين تعرفني؟ هل حدثك عني نديم؟

- أنا نديم يا شقي.

- نديم؟

- بلحمه ودمه.

- بل يا لنا من شقيين تجمعنا ثانيةً شيخوخة حمقاء.

تعانق عرفان ونديم، وأجهشا بالبكاء أمام دهشة رواد الحانة، الذين ران الصمت عليهم، وهم فاغرين أفواههم؟

أجلس نديم صديقه جنبه، وقدم له كأس عرق ومقبتلات، وأمر أحد اللدّل بأن يضيفه بطبق كباب، وعندما انتهى من تناوله طلب منه أن يطلعه على سر اختفائه طوال السنين الخمسين، فتنهد عرفان وقال:

- هل تريد أن أحدثك عن هذا العمر كله؟ سأوجز لك الحكاية. لا بد أنك تتذكر الأسرة التي عثرت عليّ أمام باب جامع النبي دانيال، وأرضعتني وحملت اسمها منذ ذلك اليوم. لقد ترعرعت وعشت سعيداً في كنفها، بالرغم من الجرح الذي أورتنيّه خطيئة أُمّي. ولم يكن يفصلني عن أبناء تلك الأسرة أيّ حاجز نفسيّ عدا نظرات الناس، وهمس بعض نساء الحي كلّما مررت مطرقاً من أمامهن. إلّا أنّي ما إن كبرت وشعرت برجولتي حتى صارت نظراتي تزيغ، ويغشاني إحساس مبهم حين أرى مفاتن جسد إحدى بنات الأسرة، سأخبرك باسمها، وهي تزيح غطاء النوم عنها، وتسحب ثوبها، في بعض الليالي، متعمدة، إلى رمانتي صدرها. وكلما حاولت أن أكبح ذلك الإحساس في داخلي سعت البنت إلى استثارته بوسائل أكثر إغراء، إلى أن

جاء اليوم الذي كشفت فيه عن تعلّقها بي، وشعورها بالإحباط من بلادتي وسلوكي البارد تجاهها، فاضطرتت إلى افتعال خصومة مع شقيقها الأكبر، وغادرت الأسرة إلى منزلكم، وعشت معكم بضعة أسابيع. أظنك تتذكر ذلك، حتى جاء إليّ رفقة أبيه وشقيقه الآخر وأعادوني إلى بيتهم. لكن البنت استمرت في إغراءاتها، بل شرعت تتسلل إلى فراشي كالأفعى وتلتصق بي، ولا تتركني إلّا بعد أن تنال مرادها. ولعلك لم تنس أنني صارحتك أكثر من مرة برغبتني في ترك الأسرة نهائياً، لكنك كنت تثنييني دائماً لأنك تجهل السبب. وربما تأسف الآن كثيراً على ذلك، فأقول لك كان ينبغي أن أعلمك بدوافعي، ولو أنني فعلت لما امتثلت أخيراً إلى نداء جسد حياة -هذا هو اسمها- ولما تملّكتني، فيما بعد، ذلك الإحساس العارم بالإثم الذي ظل ينمو في داخلي يوماً إثر يوم، ولم يغادرني حتى بعد رحيلهم عن أرابخا. وقد رفضت الرحيل معهم أملاً في التخلص منها، ومحو صورتها من ذاكرتي. ولكن لم يكن باستطاعتي محو الإثم الذي ارتكبته، وقد أجم في نفسي صراعاً مريعاً لم أجد له حلاً إلّا بالهروب من الحياة كلها، وممارسة نوع من التعذيب على جسدي، وتربيته على أحوال الزهد بعزله منفرداً خارج عوائق هذا العالم. وهكذا غادرت أرابخا، من دون أن أودعك، وأخذت أبحث عن عالم الفردانية المطلقة حتى عثرت عليه في كوخ مهجور ملقى على ساحل بحر القيامة، فمكثت فيه كل السنين التي مرّت، منكباً على العبادة، أتور بنور الله، وأستجلي حسنه على مرآة قلبي المعتم، وأطعم نفسي من أثمار الحكمة إلى أن أدركت أنني ضئيل كحبة رمل، فلم تغد تهابني الكائنات الضعيفة حولي. الظباء تطرق بابي، ونوارس البحر تحطّ آمنّة فوق كتفي، وطائر البطريق يجامع أنثاه على فراشي من دون وجل، والسنونو يبتني أعشاشه في سقف كوشي. كل شيء تغير في حياتي، كل شيء يا نديم إلّا ذاكرتي اللعينة لم أستطع ترويضها، فكانت صورة حياة تقتحم خلوتي بين حين وآخر، وتبعث في داخلي هاجساً غريباً لا أقوى على تفسيره، فأروح أسأل نفسي «يا نفسي الأمارة بالسوء، ما سرّ انشغالك بطيف عدوّي الذي يهدّد طهارتي ووجودي؟» وما هذا الذي يبتباك حين يطول مكوثه أمام ناظري؟ أهو تحوّل من الإحساس بالإثم إلى الهيام بالإثم؟ ألم أفعل كل ما فعلت من أجل التطهّر من خطيئتي، فلماذا إذن ترغمني بعد هذا العمر الطويل إلى الافتتان بها؟». ثم أجدني، فجأة، مستغرقاً في البكاء، وما إن أنتهي حتى أرفع يدي إلى السماء، وأناجي «أيها الرحمن، أنقذني من هذه المعضلة، فمن لي سواك ألوذ به، وأشكو له سلطان نفسي؟». ولكن لا فائدة، فقد بدأت أضعف، بمرور الأيام، أمام جيروتها، ويزول شيئاً فشيئاً إحساسي بالإثم مما فعلت مع حياة، ويتضاعف حنيني إلى عالمي الأول. وذات

- نصف قرن يا ظالم؟ قبل أيام خرجت من البحر ورقصت على الرمل.

- هراء.

- عجباً! أنت ما زلت جافاً لا يهزّك الجمال. ألم ترها وهي تسبح في الكأس وتومئ لي بيديها؟

- تنوهم يا أحمق.

- أتوهم؟ سأعود إليها وأتي بها إلى أرابخا.

- لماذا لم تحضرها معك أيها الحكواتي البارع.

- أنت لم تصدّق إذن ما حكيتّه لك عن خمسين سنة من حياتي؟

- أنا أحفظ الكثير من الحكايا مثلها.

- غضب الشيخ عرفان:

- إلى الجحيم أنت وحكاياك. أنا ذاهب.

- انتظر. إلى أين تذهب يا شقي؟

- إلى البحر.

- أي بحر؟

- بحر القيامة الذي عشت معه نصف قرن.

- رفقاً بشيخوتك، أخشى أن تموت.

- بل سأغوص فيه حتى أصل إلى حياة أيها الغبي.

(3)

في الطريق إلى بحر القيامة، قطع الشيخ عرفان مساحات موحشة من الأرض، اجتاز كنباناً رملية، وسطوحاً متموجة، وهضاباً مقفرة، وأودية جافة، وسهولاً خضراء، وتسلّق جبلاً ملتوية ذات صخور نارية، وكاد يفرق مرتين في نهري «ردانو» و«تزنات»، ونجا من الموت، بأعجوبة، في ليل «خندالو» حالك السواد، ونام في أحراج وكهوف تأوي إليها حيوانات من عصور سحيقة، وسدّ جوعه بأصناف من الحشائش والشعير البري ونبات الخبّاز.

كان الليل في أوّله حين بلغ البحر، والساحل معتم تحت سماء مليدة بالغيوم، وليس ثمة أثر لكوخه سوى خطوط هشة من الرمل، ينوح حولها حشد من النوارس والبطاريق. نضى ثيابه عن جسده الضامر، ومشى على حافة الماء قليلة الغور. من بعيد لاحت له كتلة ضوء تهترّ عند خط الأفق، ركّز بصره فيها فرأى الكوخ يطفو على سطح البحر، تتقاذفه الأمواج كفلك في قلب الطوفان، واستسلم لأوّل موجة تغمر جسده، ورفرف ذراعيه في وشل الماء، وما زال يتوغل، يعلو ويهبط، يعلو ويهبط حتى لفحته رائحة أعشاب البحر.

كركوك 1989

ليلة، فيما كنت أصليّ على فسحة من الرمل الرطيب، خطر لي أنني أسمع وشيئاً قوياً يتصاعد من أعماق البحر، لا يفتأ يعلو وينحسر، فتيقظت حواسي كشفرة مرهفة، وقطعت صلاتي، وأخذت أنتنّضت إلى مصدر الصوت، ولكن أين مصدر الصوت؟ البحر كله صار يغور ويزبد، وتتلاطم أمواجه حتى انبجست من سطحه أخيراً أشباح المياه، وقد اعتلت حياة، بعريها الساطع، موجاتها المتقلّبة، غضة، ناعمة الحنايا، طرية كبيضة مسلوقة مقشّرة، يغمر شعرها الغسقي أرجاء الفضاء، فشعرت كأنّ الأرض تميد بي، وقلبي يكاد ينفجر من الخفقان. تلمّست الرمل بأطراف أناملي، وانفلت منه قافزاً، وهرعت إلى داخل الكوخ، وصفقت الباب خلفي، وأخذت أسترّق النظر إليها من النافذة، بعينين ذاهلتين. خرجت حياة من الماء، فرس جموح تتواثب، جسدها يومض في العتمة، خفيف يتقلّب في الهواء، ويتلوّى على الرمل في رقصة خارقة، وأصابعها لا تكفّ عن الرفرفة، كأنها تناديني نداءً يصهرني، ويعتصر من كياني كلّ ما فيه من وجد. إلّا أنها سرعان ما غابت، غيّبتها سجوف الليل في العمق السحيق، فمكثت مشدوداً إلى الفراغ الذي خلّفته. لقد انجابت العاصفة، وكفّ البحر عن اصطخابه، واستعاد كلّ شيء سكونه إلّا ذاتي، فقد تصدّع فيها وهم خمسين سنة، اقتلعتّه ريح الحياة، وألقته في فراغ مهول كفض مفصول عن خاتمه. وحين حلّ الصباح دفنت تاريخ خمسين سنة من العزلة في الرمل، وعدت إلى هنا عارياً إلّا من تشوّفي إلى بهجة آخر العمر. صمت الشيخ عرفان، ورفع بصره إلى لوحة معلقة على عمود من الرخام تصوّر شاعراً متصوّفاً يقدم كأس نبيز إلى معشوقته الحسناء، فغمره شعور بالغبطة، وطلب من نديم أن يصبّ له كأساً أخرى، لكن صديقه اعترض:

- لا تكثر من الشرب.

- لماذا؟

- رافّة بشيخوختك.

- إلى الجحيم.

وسحب قنيّة العرق، وملاً كأسه، ورفعها أمام عينيه، من غير أن يضيف إليها الماء، واستغرق في التحديق إليها، وهو يهزّ رأسه، ويدندن بلحن قديم، ثم أشار إلى نديم قائلاً:

- أليس من حقي أن أهيم بها؟ إنها جنيّة يا نديم، نوع نادر من النساء. كم كنت غيباً وأحمق حين أضعتها من يدي. أنظر إليها، ما أجملها وهي تتموّج وتعود في لجة هادئة، وتغوص كسمكة رشيقة في عمق لا قرار له.

- ها قد بدأت تهذي. كفالك خمراً. عن أيّ جنية تتحدث؟

- عنها. خطيئتي في شبابي، وفردوسي الضائع في شيخوختي.

- وما جدوى هيامك بها الآن وقد مضى نصف قرن على فراقكما؟



## حافات السنين المدية

فرج ياسين

صيا العزاوي



العصي بأسئلة المدينة التي لم يجرؤ الآخرون على التفوه بها على مدى خمسين عاماً، مع أنها ظلت تحوم كالسراب المنطفئ، حول عربنها الخرافي.

قالت أمي: لقد أوصدت جفنيها على صورة محمود أفندي، وهو ملقى كجيفة فوق اللوح الذي نقل عليه من «الخرجة» فأصبح نعشه. ولم تقو على النظر إلى نصف هذه المدينة. منذ ذلك الحين أدخلت كل الرجال على وجه الأرض في منطقة عماها الأزلي. وظل المحسنون والأتقياء من الجيران يبعثون ببناتهم الصغيرات إلى بيتها لكنها -ربما- سمحت قبل قرابة عشرين عاماً بأن يناديها رجل من خلف الجدران، أو أن يمد كفه بما يحمله إليها من نقود أو مؤونة، لقد أعطت وعداً لشبح محمود أفندي الراقد في هباء ذاكرتها بكل زينته، بأنها سوف تستدعيه حال انتهائها من انتزاع أشلاء المركب الغارق من براثن الفيضان.

قلت متطلعاً في شبحها الأسود، المنقوع بعطن الأخشاب، عبر فجوة الرعب والتخبط التي أخذت تزايلني لحظة شروعا بالبكاء: متى تكفين عن جمع هذه الألواح يا جدتي؟

فكفكت نشيجها وشخصت إلي، شعرت بغتة أن طبعها الصموت المتشح بالظلام، بدأ يتعثر بحافات السنين المدية التي سلختها بانتظار مواسم الفيضان، بدا وكأن المكان صار

أبيها في الموصل، تزينت كما يليق بعروس، لكن محمود أفندي الذي أصبح زوجها منذ عقد قرانها قبل تسعة أيام، لم يدخل بها حتى اللحظة منتظراً أن يتم ذلك في منزله. وفي خلال عشر دقائق فقط، انتهى كل شيء، غداً المركب حطاماً، ولا يدري أي روح قذفت بالعروس مع زبد الفيضان على الشاطئ، فيما صفر المكان من أي أثر للمركب ومن فيه، أما زوجها محمود أفندي، فقد عثروا عليه بعد ثلاثة أيام طافياً في خليج «الخرجة» على بعد عشرين كيلومتراً من تكريت، وقد نقر السمك وجهه، وتهتكت ثيابه، وانتفخ بطنه، برز فجأة من تحت لوح طاف مثل غواص. تبين بعد ذلك أن مزقة من سرواله، علقت بشق أحدثته الصخور في اللوح عند تحطم المركب. إنه اللوح نفسه الذي طرحه القرويون عليه، إثر ذلك، لكي يكون نعشه، حيث أقبلت نساؤهم من الحقول للبقاء عليه ساعات طويلة، وهو مسجى على اللوح بوجهه المرقش وبطنه المنتفخ، حتى مرور أول مركب ذاهب إلى الجنوب.

قلت مفتعلاً الإفلات من هواجسي الخائفة: أحقاً أنك رأيتني معهم يا جدتي؟

فسمعتها وهي تنشج معولة بأنقاض صوتها، الشبيه بقضضة عصى تتكسر في جوف برميل، ولم أنتظر أكثر من ذلك لكي أجد مبرراً للبقاء وقتاً أطول معها، فعزمت على اقتحام صمتها

إطلاقه علي، فيما رائحة ماء النهر تمور في الحجرة، تتجول بين الأكداس العطنة، وتحوم حول سطوح الجدران، ورأيت العجوز تجلس بأسمائها بين كومتين من القطع الخشبية، كفت لتوها عن عزلها من بين كومة كبيرة أخرى من الأغصان والجذوع، ما تزال جذورها النحيفة عالقة في جوانبها.

كانت تجلس بكتلتها الضئيلة المسربلة بالسواد، مفتوحة الساقين، محلولة الشعر تقبض أصابعها على آخر قطعة من الخشب، أرادت ضمها إلى إحدى الكومتين بعد الانتهاء من تفحصها، وما كنت سأرى أي شيء لولا ذلك المسحوق الباهت من الضوء، وهو ينبعث من جدول شعرها الناصع البياض، مشتجراً حول كتفيها.

قالت: أقبل يا علي.

فجأة أحسست بأن النبرة تغيرت، صار النداء يشبه دعوة مدغدة لمزاولة لعبة سرية وراء واحدة من تلك الصخور. لكنني لم أقو على التقدم خطوة أخرى، لأن أسلاك القصب والعيان والجذور الصغيرة، زحفت إلى قدمي، واشتبت مع خطوتي الأخيرة.

قالت أمي: سوف تجد نفسك في عالم غارق بعفونة عمرها، خمسون عاماً. إنها رائحة جثة لم تكتمل، تجمعها العجوز روفة من قمامة ذكريات نافقة.

قلت لها: هذه الصرة لك يا جدتي.

فنظرت إلي من بين جدولي شعرها البراقين، وبإشارة سوداء رسمتها بكل ذراعها النحيف، أمرتني برمي الصرة على الأرض. حين بدأت التراجع محاولاً تخليص قدمي من شبكة الأغصان والقش الذي ما يزال لزجاً بالزبد العالق فيه، رأيت لوحاً بطول مترين مركوناً على الجدار المواجه لمكان جلوسها إلى جانب باب الحجرة، كان ضيقاً، ومتشققاً، تأكلت حواشيه تقصفت قشرته. ثم باغتني صوتها قادمة من العتمة: لا تنظر إلى الرجل ميت.

قالت أمي: حين طغت مياه الفيضان، أضاع القبطان خطر يره، فاصطدم بصخرة كبيرة في نقطة تلاشي تلال مكحول عند «الفتحة»، وكانت الصبية روفة قد أخذت زينتها في دار

رأيت العجوز روفة آخر مرة، وهي تحمل باقة من القصب والعيان المطوقة بالقش والزبد، أتت بها بعد انحسار مياه الفيضان، قبل موتها. كنت بين عدد من الصبية الهاربين من المدرسة، لجاناً كعادتنا إلى مغارة «البوم»، فأخفينا رؤوسنا وراء الصخرة المطلة على النهر لحظة مشاهدتنا كتلتها السوداء تدب على الطريق، بين شجيرات العاقول، كان شبحها -وهو يرى من شاحق- نائياً وضئلاً مثل عنز.

قالت أمي: كانت ستشي بكم حتما ليس لأنها تريد لكم أن تذهبوا إلى المدرسة بل لأنها تكره كل عين غريبة تحاول التجسس عليها، وهي تقوم بجولتها اليومية لأن ذلك سوف يؤدي إلى انتهاك عزلة النهر، وسوف يجعل الأمواج تتوقف عن قذف المزيد من الأشياء الطافية إلى الشاطئ.

في ذلك المساء، لاحت أمي في أمشاج الأحلام الصبيانية المرحه، وهي تهوي على وجهي، وتلقم أنفي نفحة من أريج سلسلة زهر القرنفل المظمورة تحت فوطتها، بعد ذلك بقليل، أوقفتني مترنحاً أمام العجوز روفة مائلة قبضتها بنصف شعر رأسي، ثم أركعتني بين قدميها، قالت! ها هو. هل كان معهم أيضاً يا خالة؟ أجابت محاذرة النظر إلى وجهي؟ لا أدري فقد خيل إلي وقتها وكأن ثلاثين وِزلاً جعلوا يحثون بأرجلهم حجارة الجبل. وسمعت أمي وهي ترد عليها بنبرة فاترة: ولكنه عاد في الساعة الواحدة وهو يحمل حقيبتة، ثم شيعتها إلى الباب.

قالت أمي: إن اعتزالها الناس جعلها تراهم في أحلامها.

في ظهيرة اليوم التالي، أرسلتني إلى بيتها، علقت في ساعدي ضرة عقدتها على رغيف مطوي على فخذ دجاجة مع باقة كراث وحفنة من التمر. ولم أشأ إقلاقها بإطلاق قبضتي فوق لوح الصفيح مرة بعد مرة، لذلك اكتفيت بدفع الباب، فألفيتني أقف في الممر الضيق الطويل المكشوف. تذكرت أن العتمة سوف تجتاحني، فتعرت بأول حزمة من العياد وأكوام القش وقطع الخشب المبتلة. كنت أعرف أن الممر سوف يتحول من منتصفه إلى حجرة تشبه القبو، فشقت طريقي ذاهباً إلى حيث ما ظننته نداء باسم التذليل الذي اعتادت أمي



أكثر سعة من أن يضيق بقمامة الشاطئ. غدا واسعاً ومضيئاً، وحذست أن الجدة توشك على الدنو مني بجسدها أيضاً، ثم نظرت إليها وهي تقف معتدلة القامة، قلت لنفسي إنها أكثر طولاً من أي امرأة أعرفها، ولمعت خصلتا شعرها الهاطلتان الآن فوق ثدييها، بلون السنابل المتراقصة تحت الشمس، ثم سمعت وسوسة حلي وخشخشة عقود وأطواق، فيما فاحت رائحة القرنفل فسبقت إلى دمي. لكنها هرعت إلى حيث أقف، وانحنت محاولة انتزاع العيدان والعسايلج الطرية بين قدمي، ثم رفعت حزمة صغيرة منها وأدنتها من أنفي، كانت رائحة القرنفل تردني إلى صورة تناهت إلى ذاكرتي من زقاق ما في مدينة الطفولة النائية: تحملني أُمي على عاتقها مثل رجل، وتتوقف بي أمام البيوت للسلام على العجائز المقرصات بجوار أبواب بيوتهن، يغزلن خيوط الصوف ويثرثرن مع العابرين.

وفي غفلة من أحلامي الشاردة أمسكت العجوز بكتفي، وزجت جسدي، جاعلة ظهري يلتصق بلوح الخشب القديم، فمكنت مرسوماً هكذا بقوة أصابعها القابضة على كتفي النحيفتين، وبقوة زينتها المكبوتة، ثم همست في أذني كما لو إنها تغني:

حسناً يا محمود، أنت الرجل الوحيد!

- كانت ثمة لفحة من هواء مداث بصدأ الظهيرة، انسلت من مساحة الفراغ التي خلفها الباب الموارب، مع بقعة من نور الشمس، حطت في وسط اللوح، مقل كف منزوعة الأصابع مكبرة عشرين مرة، جعلت ترتفع وليداً حتى غشي اثنان من أصابعها عيني وأطفأهما. لكنني سمعت لهاث العجوز، ورفعني عطرها إلى أزقة الروح، مستتيماً إلى وخزات أعضائها في أماكن مختلفة من جسدي ذرت في القلب حرقه غامضة كاللحم، بعدها أخذ جسدها يتقبض في مثل زفرات طفل مقرر، صرخت لا، لا. ثم فاح لعاب دبق وملاً بأبخرته فضاء المكان، وأنت محشجة مرخية أطرافها الفائرة، لكنني مرقت من تحت إبطها متعثراً بصرة الطعام، عابراً المجاز إلى الباب، كان إصبع الضوء ما يزالان يخزان جفني، فيما ضج جسدي بعرق لزج منقوع برائحة القرنفل الطاغية.

عند العتبة سمعت صوتاً رهيباً أشبه بارتطام موجة غاضبة في جرف صخري، غير أنني لم ألتفت. ظل الصوت يدوي في دمي، يلاحقني في العطفات والأزقة الضيقة التي قطعناها عدواً حتى وصلت إلى البيت، ومع أن أُمي لم تكن إلي حين رأيته وهي تنحني على إناء مملوء ملحاً، إلا أنها همست بصوتها العميق الكابي:

عينك تلمعان!



# الحفيظ

## فيصل عبدالحسن

فيصل العزاوي



«انتهى زمن الأيديولوجيات، وجاء زمن الميتافيزيقا»

كنت أحلم، وأظن لست الوحيد بين زملائي الطلاب، بـ«مس تنورة لطالبة ما» في تجمعات الطلبة، ومظاهراتهم الصاخبة، أو عند طابور شراء سندويج الغداء من مطعم نادي الجامعة. مس لطيف لجسد أنثى، مهما كان شكلها ولونها، يكفيني لتمضية أسبوع كامل في خيالات «إيروتيكية»، وأنا اتطلع إلى راحة كفي، التي صارت مصدر خيالات لا تنتهي.

خلال فترة مطاردة الطلاب اليساريين في العراق بالسستينات تركت الجامعة، وهربت إلى بيت أحد اقربائي في الريف، لأختفي خلال فترة الاعتقالات، حتى تنتهي الفترة الساخنة وأعود بعد ذلك. لكنني بقيت هناك ولم أعد إلى الأهل، والمدينة بعد ذلك أبداً.

كنت وقتها شاباً صغيراً، أحفظ مقولات أهل الفكر اليساري، وتضمني موائد السكر، فأردها بعد أن أسكر، والدموع تترقق في عيني، وأغلبها يتحدث عن الحرية، ومجتمع الكفاية، والعدل والرفاه للجميع، وتوزيع العادل للثروات على الناس.

كانت أفكارنا وتطلعاتنا مشبوبة، وتبحث عن تفريغ مكبوتاتنا بأسرع وأسهل الطرق. وشاء حظي العاثر أنا المتهتك، اليساري، الذي لا يؤمن بدين ولا أخلاق، ويفكر بسلامته الشخصية ولذاذه، ويجعلها الأولى، أن أختفي عند قريب لنا -بتوصية من أبي لقريتنا ذاك- في «صريفة» (1) في ذلك الريف المجهول عند تخوم هور الحقار، وأصير -فيما بعد- مرشداً للحفيظ في الهور. وبمضي أيام الاختباء قريباً من الهور كانت تصلني الأخبار السيئة من المدينة عن اشتداد الحملة الأمنية، وموت أكثر من طالب تحت التعذيب، فأزداد رعباً وخوفاً من العودة إلى جامعتي وأهلي. كنت أعرف تلك الأخبار المرعبة من أقاربي، الذين يزورون أهلي بين فترة وأخرى.

وفي منفاي الجديد في أقصى الأهوار الجنوبية، ولأول مرة، بدأت أسمع حكايات لم أكن أصدقها من قبل عن مجاهيل الهور. سمعت من أحاديث مسائية، لأفراد العشيرة، كانت تعقد في مضيف الشيخ، حول موقد المظال (2) المشتعل، وفناجين القهوة المرة تمر على الجميع، بعد عشاء مكون من

رز العنبر، وفوقه لبن رائب، وتمر خستاي عن «الحفيظ» ذلك المكان المجهول في الهور، الذي يحوي خزائن المهدي الغائب، المنتظر من قبل المسلمين، الذي سيظهر في يوم من الأيام، بعدما امتلأت الأرض جوراً، وضجت بالظلم والرزايا. وتفرقت شيعة آل البيت في كل أرجاء الأرض بحثاً عن الأمان، للاختفاء من أعداء أشداء ينوون الفتك بهم، وقد امتلك أهل الظلم ناصية الأمور. وجعلوا دأبهم في البحث عن عترة الرسول، وشيعة الإمام لذبحهم، وإخفائهم عن ظهر الوجود، توطئة لإزالة الإسلام عن الأرض، فلا يزول الإسلام ولا ينكسر ظهره، وتضعف إرادته وامتلاكه لقلوب الناس، ووجدانهم إلا بزوال عترة الرسول، ومحبيهم من فوق الأرض كما كانوا يرددون في أحاديثهم الليلية.

«وحين يدلهم الخطر وتزداد الخطوب يظهر 'المهدي' من غيبته التي امتدت إلى أكثر من ألف ومئتي عام، منذ اختفى في ذلك السرداب في مدينة سرّ من رأى، وجنود بني العباس يتعقبونه لذبحه، كما فعلوا مع أجداده وأهله، وأبوابه ومريديه.

اختفى الإمام في ظلام السرداب ليعود من جديد مع تباشير عالم جديد، وبانتظار ذلك اليوم، الذي سيحتاج في دعوته للمال لتجنيد الجيوش، وشراء السلاح، لإقامة دولة الإسلام الكبرى، التي ستمتد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، لتشمل العالم بأكمله.

وس يظهر معه سيدنا المسيح، ليكون ساعده الأيمن، ووزيره الأول، والكثيرون ممن ماتوا منذ أقدم العصور. 313 فارساً ستعاد إليهم الحياة، ليشاركوا في ثورة المهدي، بإذن الله وقدرته.

وستجيء الجيوش الجرارة من الشرق والغرب لمحاربتة والقضاء على ثورته، لكن مشيئة الله الجبارة ستحوّل سلاحهم إلى حديد لا يضر ولا ينفع».

كانت هذه رواياتهم يروونها، في المساء وإلى ساعة متأخرة من الليل، وحين يتساءل أحدهم، بالتماعة ذكية نادرة، عما سيؤول إليه مصير سلاح الأميركان والإنكليز المتطور، فيجيب أكثرهم فهماً لقضية العودة المباركة فيقول:

- أثناء ذلك سيعود العالم إلى وسائله القديمة البدائية، وتتوقف

في تلك الأيام مصادر الطاقة وتستكين الآلات، ولا تطير الطائرات أو تندفع الصواريخ، ولا تنطلق المدافع، يتحول كل شيء إلى حديد لا معنى له ولا فائدة منه! ويعود الناس مرة ثانية لاستعمال السيف والرمح والنشاب، والترس وسراج الزيت القديم!

ويردد الراوي بوجه متهلل:

- واستعداداً لهذا الحدث السعيد، الذي سيهز العالم، ويحوّله إلى عالم لا حول له ولا قوة أمام قوة الإيمان، عندها ستجيء كرات مضيئة من السماء معلنة، الفرج الأكبر! وتكتب بأضوائها اللاهبة «أسم الله والرسول الكريم وآل بيته والشهادتين

وأسماء الله العظمى».

كانت أحاديثهم تدهشني -أنا اليساري- الهارب من بطش رجال الأمن. وكانوا يشركونني بالحديث، لكنني كنت أفكر طوال الوقت كيف يمكنني الحصول على «ربع عرق زحلاوي» (3) ومزة لبلي، ومجلة بلاي بوي، لتأمل صور النساء العاريات، وجمال قوامهن. وأنا أستمع بشرب كأس، وأستمع لشريط كاسيت «الأولى في الغرام» لأم كلثوم في عالم دخان المطال الحريف، والكأبة والأساطير، الذي سقطت في أحضانه من شاحق.

أسمعهم يقولون ويقولون، وكأنني في كابوس لا ينتهي عن «كنز





خرافي ليس له مثيل تطير حوله حيوانات مجنحة أسطورية تنفث ناراً من فتحات مناقيرها“.

يروون:

- قبل تلك الأحداث الكبرى منذ زمن بعيد، والناس من أهل القرى القريبة يجمعون ما يجود به أخيارهم من مال وذهب. وتُدفع إلى صناديق خاصة. ويُرسل بعد ذلك إلى صندوق رئيسي في قرية «الدين» (4) ويُحصى ذلك المال، ويبعث بيد أحد الأتقياء من أصحاب الخبرة، والمروءة، والإيمان لاستبداله بالذهب والفضة.

ويسجل كل ذلك في سجل الحوادث الخاص بقرية المعاجن، وطيلة الفترة التي بقيت بينهم مختفياً عن أنظار الشرطة أوكلت لي مهمة تسجيل ما يحصل في ذلك السجل المتهالك القديم.

وكنت أضحك على نفسي، وعلى عقولهم الخرفة، وأنا أكتب ما يُملى علي، فأكتب، ويُرسل خمس تلك الأموال إلى المحتاجين بيد مبعوث خاص، لغرض دفعه إلى أحد الأمناء للصرف على طلاب العلم، وشراء الكتب لهم، وتبعث بعد ذلك القرية عدداً من أولادها النابهين لتعلم القراءة والكتابة والتفقه بأمر الدين إلى النجف، ليعود من تعلم منهم بعد ذلك لمسك أمور الناس في الجنوب، وتعليم الأولاد قراءة القرآن، ورواية السيرة النبوية، والوعظ أيام عاشوراء والتذكير بثورة سيدنا الحسين. أما المتبقي من الذهب، وهو أربعة أخماس، فيحمله قريبنا ملا وداعة لإيداعه في كنوز «الحفيظ» الذي لا يعرف مكانه سوى أمثاله من الحافظين للقرآن الكريم، والمتبعين لسيرة الرسول الكريم وآل بيته من أطراف البلاد. لُقِبَ بـ«الحافظ» لحفظه أموال المسلمين، وهو اللقب الذي يحمله أباً عن جد، أما مكان الحفيظ أو كيفية الوصول إليه فهو إرث يورث للأبناء، وهو إرث ثقيل وواجب صعب، لا يستطيع أحد أن يمد يداً لذخائره، حتى يحضر الغائب عليه السلام، ويتصرف بأمواله.

سمعت حكايات قديمة غريبة كان يتناقلها الحافظون، كما أخبرني الملا، الذي لم يُرزق بابن بالرغم من زواجه المتكررة تقول:

- إنه حين حاول أحد أجداد الحافظين أن يخون أمانته، وقد أغراه الشيطان، فلم تمض سوى لحظات على فعله الدنيء حتى تحول نصفه إلى حجر، والنصف الآخر إلى جسد حيوان. وبقي يقبض بحافريه الأماميتين على سبيكة ذهب كان يريد التصرف بها، حين كان آدمياً.

ومن أغرب الأمور التي صادفتها في قرية الكآبة والخرافات هذه، أنني لم أصادف امرأة ولا فتاة، ولا حتى طفلة.

كنت أحلم بروية (وجه حسن) في هذا الخراب. لكنني لم أر إلا وجوه رجال أبلاها المرض وقرصها البعوض، وأذبلها فقر الدم،

وأنواع الالتهابات والدمامل.

كنت بيني وبين نفسي أجدف، وألوم نفسي قائلاً «أليست دائرة الأمن» أرحم من هذا البلاء، الذي ابتليت به؟ لا خمرة، لا نساء، حتى الاستمناء فقد أركانه المهمة، التي تقوم على رؤية ما يثير، وليس في هذا المكان ما يثير. لكنني حالما أتذكر تعذيب الشرطة لزملائي، وأتذكر وجه أحد هؤلاء الزملاء، الذي مات تحت التعذيب، ورميت جثته في الطريق العام، ليجدها الناس بعد أيام مشوهة أحمد الله، وأشكره على ما أنا فيه من أمان في قرية الكآبة هذه. وأقول في نفسي صحيح أنا في سيرك، ولكن هذا أفضل من الموت برداً وعذاباً في مديرية الأمن“.

وعندما راقبوني لعدة أيام ورأوا حجم كآبتي، وقرفي من أسراب الذباب التي تجول في دروب القرية الترابية، وقرص البعوض، رأيته يتداولون بأمر سري حولي لم أعرفه، وقلت في نفسي «هؤلاء المتخلفون يأتُمرون لإبلاغ الأمن عن مكان اختبائي“.

وأوشكت على الهروب من القرية. لكنني عرفت في آخر لحظة، أنهم عرفوا مدى ضجري في قريتهم، لذلك قرروا تزويجي، وبالفعل أقاموا لي صريفة، ملأوها بالفرش والأدوات البدائية، التي يحتاجها أي عريس وعروس جدد.

وعقدوا لي على فتاة بيضاء قصيرة القامة، كحيلة العينين، لا تجيد شيئاً غير البكاء والضحك، وتعرف فقط- كيف ترضيني حين أكون غاضباً.

ولم أستطع الرفض، فقد كنت أبحث عن أي حلٍ لكي أشعر بالأمان والرضى في هذا المكان. وليس هناك طريقة أفضل من مصاهرتهم. وبعد ثلاثة أيام من زواجنا اصطحبوني إلى النهر، وقَدَموا لي قارباً، وشبكة صيد وفالة (5)، لكي أكسب رزقي كواحد منهم، وجعلوا معي من يرشدني، ويعلمني كيف اصطاد السمك الضخم، وأُبين اصطاده.

عرفت بعد ذلك من «ملا وداعة» أنَّ الهورامتلأ بقلاع وهمية كثيرة انتشرت في الأنحاء المختلفة منه لتضليل الطامعين والباحثين عن الكنوز والآثار! ولن ينسى أهل الجنوب، وهم يرون حملات الإنكليز الآتارية في البحث عن «حفيظهم» وكنوزه. لن ينسوا تلك الوجوه الحمراء، والبنطلونات الكاكية القصيرة التي تظهر أجسادهم الملساء بزوارقهم البخارية، وهي تجوب مياه الهور وتوقظ الحيوانات الغافية فيه منذ آلاف السنوات. والعيون تراقبهم، وهم يبحثون وينقبون في القلاع القديمة والآثار التي امتلأت بها أهوار الجنوب، الظاهرة من بعيد كقلاع عائمة وسط المجاهيل المائية مترامية الأطراف باحثين عن كنوز الشيعة.

كانت نفوس أهل القرى تمتلئ بالخوف والخشية من وقوع تلك

الكنوز في أيدي الإنكليز، يقول وداعة عن والده «لكنهم كلما نظروا إلى الحافظ، الذي كان في ذلك الوقت «الحاج حنون» والدي.

كان في صريفته كالأسد الهصور بلحيته البيضاء المهيبة، ويشماغه الأزرق على رأسه، وعقاله الراكز فوق اليشماع، وسبحته الحسينية بين أصابعه يفرد حياتها على بساط من الصوف، وسط أبنائه وحفيداته. لا يرف له جفن، وبين الحين والآخر يلف سيجارة، ويبصق تبغها، الزائد الذي يلصق بشفتيه. لا يخاف على كنوز الشيعة، فهي كما يقول «محفوظة بأمر الله مهما فعل الإنكليز، ومهما كثرت طائراتهم الماسحة كل يوم لمجاهيل الهور البعيد وبقعه المجهولة“.

وكلما بذلوا الجهود، واستعانوا بالحيلة بأؤوا بالفشل للوصول إلى شيء. كان الإنكليز -وقتها- يفرحون عندما يعثرون في حفرياتهم على تماثيل طينية مفخورة، قديمة، يرجع عهدها إلى السومريين، وأقوام متفرقة أقدم من تلك الأقوام. كانوا يعيشون على هذه الأرض قبل أن تغمرها المياه، وتركوا قلاعهم وحصونهم. ومضوا في غيابات التاريخ البعيدة. إنهم لم يخلفوا سوى نقوشهم المسمارية، وتماثيلهم الصغيرة، والكبيرة، وبصمات أدوات الشحذ على الجدران وأعمدة القلاع. وسجلت أعمالهم في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم. وقبل ذلك جاءت على ذكرهم النقوش والرسومات القديمة.

- تلك الأيام التي أتذكرها جيداً، حين اصطحبه ملا وداعة معه بعد عراضة (6) عشائرية قصيرة أقاموها له في القرية. أعلنوا فيها أنه أصبح «مرافق الحافظ» لتمييزه عن باقي أهل القرية،

ليصير دليلاً على موقع خزائن الحفيظ في ذلك الخلاء الشاسع من الماء، والبردي والجولان، وقد استشعر ملا وداعة هاتفاً بدنو الأجل، واقتراب موعد مفارقتة للحياة، وعليه أن يترك عوناً ودليلاً يكمل مهمته، كما هو معروف في العشيرة. وليس أفضل من هذا الضيف المتعلم لهذه المهمة، ولكي يسجل كل شيء رآه في سجل العشيرة ليطلع عليه الأبناء والأحفاد“.

أخذ ملا وداعة يضع له العلامات على الطريق، ويقول له: - «لا تنسَ هنا شجرة سدر ضخمة“، «وهناك حجارة منحوتة كبيرة“، وكنت بيني وبين نفسي أشتم والد والد من اقترح علي الاختفاء لدى هؤلاء المجانين. وكلما استرسلت في شتائمي لنفسي علا صوت ملا وداعة ليذكرني بالمهمة التي وضعتها العشيرة على كاهلي. فأسمعه يردد بلا كل ولا ملل: - وبين هذه الأكمة والجزيرة الصغيرة المهجورة تجد مشحوفاً، بعدها تجعل الشمس إلى يسارك، حتى تصبح الشمس فوق سمت الرأس ثم تسير حتى تبلغ حجر الأفعى، وهو حجر كبير له وجه الأفعى وذنب السمكة.

- وتسير في الممر الترابي حتى تقطع الإشان الأحمر، وتبدو لك صخوره شديدة الاحمرار من جهتها الخلفية. وتجد أمامك لوحاً من البردي طافياً تستخدمه للعبور في مياه الدرب الضيق.

«كنت أدون كل ذلك الكلام بدفتر صغير جعلته مسودة، لما سأكتبه في السجل الرئيسي فيما بعد“.

وأخذ يصف لي مكان الكنوز، وقد أمسكني من ذراعي الحرة بعد أن شد على جبهتي خرقة خضراء، لتعرف الجن القادم بصحبته. وهؤلاء الجن -كما أخبرني- هم الذين يحرسون كنوز



الحفيظ، وعليهم أن يتعرفوا على القادم مع «الحافظ».

وطوال الطريق المضي، الذي يتراوح بين المشي على أرض صخرية في قلاع مهجورة وركوب مشاحيف وطوافات بردي لبلوغ تلك المسافة الخضراء النائية ووسطها، وقفنا. كما أشار لي الملا وداعة، ومدّ يده باحثاً في العشب الطري عن شيء لا يُرى. فتبدل المناخ فوق تلك البقعة المباركة فجأة. وهمس الملا في أذنه:

- سبح ياولدي.. سبح بحمد الله مائة مرة! فأنت الآن فوق بقعة مباركة من بقاع الجنة. الملائكة والجان يرونك ولا تراهم. ويسمعونك ولا تسمعهم!.

ثم أضاف «هنا فوق هذه البقعة لا صيف ولا شتاء، إنّها الربيع الدائم، فهي بقعة مباركة بحق. لا يعرف مكانها غير الحافظين، ومن قريتنا لا يعرفها إلا أنا وأنت. احفظ المكان جيداً لتجيء مع الحفيظ الجديد بعد أن أموت».

ويتابع قائلاً:

— يقول أجدادنا فيما يقولون، إنّها بقعة لا توجد على الأرض! هي في حقيقة الأمر سن ناتئ يقع في بداية السماء السابعة. وإننا طرنا إليها دون أن ندري وبقوة الله القوي. وكل خطوة خطوناها منذ خروجنا من بيتنا في القرية، هي في حقيقة الأمر بين النجوم والمجرات، حتى بلغنا برازخ الجنة! فسبح بحمد الله المنجي وأشكره..».

وكرر من جديد:

— احفظ المكان جيداً، لتجيء دليلاً للحافظ الجديد عندما أموت لتؤدي أمانة الناس بحمل أموالها إلى هذا المكان، حتى يحين موعد خروجه جعل الله ذلك في أيامك. فإذا خرج من غياهبه الطويل في أيامك، قد يجعلك من جنوده أو لا يفعل، فإن فعل فقد كرمك! وإن لم يفعل، فهو أدرى بما يريد ويفعل، وله السمع والطاعة! فقد قربت أيام ظهوره، إنني أكاد أن أرى لحظة خروجه إلى العالم!

«ثم سَبَحَ سبْعاً وسبعين مرة وحمدل مثلها، فانفتحت في الأرض المكسوة بالعشب كوة فدخلها، وسارا إلى تحت الأرض على سلم كان يتدهور إلى الأعماق بالتواء شديد. وكلما نزلا درجة إلى أسفل الأرض امتلأ المكان بالضوء الباهر، وتلاشت العتمة! كأنما في عمق الأرض شمس أخرى غير الشمس التي نعرفها!».

وما أن هبطنا آخر درجة في ذلك الدرج المنحني حتى امتلأت عيوننا برؤية مساحات واسعة مزروعة بأشجارعمالقة مثمرة، لم يقع نظري على مثل لها من قبل. أثمار ملتمة بالضوء واضحة النضوج. وبرزت بحيرة صغيرة ساكنة شديدة الزرقة، وشمس مضيئة في الأفق تنعكس فوق مياهها، وهمس ملا وداعة:

- إنّها ليست الشمس التي نراها في القرية! انظر إليها، فيها شق في الوسط لا يندمل إلا بظهوره عليه السلام! كما أن التحديق فيها لا يؤذي البصر، وتلك رحمة من الله عز وجل! ودهشت مما رأيته، فلست في حلم بل أنا في عالم آخر، وبدأ الخوف يتملكني وأخذت أرتجف، ولكن ملا وداعة كان يشجعني. ويطلب مني أن أمضي معه إلى الطريق الصخري الذي ظهر لنا. فولجته على مضض، وخوف لا مثيل له، حتى أفضى بنا إلى كهف عملاق نُحت في الجبل. وقد خُفرت فوق أحجاره آيات القرآن كلها، واسم الرسول الكريم، وأسماء شهداء آل بيت الرسول، وشهداء المسلمين جميعاً عليهم الصلاة والسلام، منذ عهود الإسلام الأولى، وحتى يومنا الحاضر، وتوهجا في ذلك المكان بنورين.

كان يرى إلى ملا وداعة، فيراه محاطاً بهالة من الضياء! فاعتصره الخوف أول الأمر ولم يفتن إلى الضياء الذي أحاط به أيضاً، فصرخ منذراً، فقال له الملا، ويده تمتد في حنو لتمسد شعر رأسه:

- لا تخف، هذا نور الأولياء والشهداء قد أحاطنا! ولو كان غيرنا في هذا المقام لاحترق من هذا الوهج الذي لا تحتمله الأبدان. إنه النور الذي سيأتي من السماء فجر ظهوره من غيبته، الذي يوقف كل شيء متحركاً! ويحوّله إلى حديد لا معنى له ولا فائدة ترجى منه!

وروى له كيف كانت -فوق هذا المكان- الطائرات الإنكليزية تتوقف محركاتها وبوصلاتها، ويغيّم بصر طيارها، فلا يعرفون مكانهم إلا بعد تجاوزهم هذا المكان!». ورأى إلى نفسه فرأى وهجاً مشابهاً لما حول الملا وداعة يحيطه كالسوار، فسَبَحَ بحمد الله مثلما يفعل صاحبه، وكله خوف أن لا يُقبل تسبيحه وهو اليساري السابق، الأبق! ولكن بقدرة قادر هدأت نفسه. وزال عنه الخوف. وتبع الملا وداعة، حتى تجاوزا قبة الكهف المنقوشة.

وانفتح أمامهما باب حجري، بعد أن صاح صاحبه بصوت أجش «يا حامي المكان قد جئت بمن سيكون مرافقاً لحافظ بعدي، فقد أزفت الساعة، واقترب الموعد بلقاء الأحبة. فما أن يجيئك بعدي حتى تفعل معه، ما كنت تفعله معي من حفاوة، وتكريم ورعاية!».

ومس رأسي بكفه المعروقة، فأخذت أبكي بحرقة، وأنا أشعر أنّ البكاء -ربما سينقذني من ذنوبي- وأخذ يده بالكف الأخرى، وأدخلها في كوة في الباب الحجري، فانفتح الباب الثقيل بصرير مخيف، ودلفنا إلى داخل الكهف.

ونظرت إلى بدائع المكان وروائعه من الدرر المضيئة، والمرجان والجواهر المرصعة بالياقوت، وأكداس من الذهب والفضة. ورأيت ملابس مزركشة معلقة في شمعدان كبير من الذهب،

الوقت! الذي يبدو لساكني الأهوار، وضافف النهر من القرى والمداشر ليلاً كبركان النار الحمراء، التي لن يهتدي إليها أحد. نار كبيرة حمراء وسط الهور الشاسع، كلما سعبت إليها ازدادت عنك بعداً، وكلما نأيت عنها اقتربت منك، وأشعرتك أنّها قريبة منك، وعلى قاب قوسين أو أدنى من ذلك، ولن تطال شيئاً من قريبها أو بعدها عنك، فقط هي تذكر الناس بإلحاح مدهش باليوم القريب القادم!

منذ ذلك اليوم وأنا باق في هذه القرية بعد أن مر زمن طويل بانتظار قدوم الحافظ الجديد لأصطحبه إلى كنوز الشعية. لكنني بعد سنوات من الانتظار عرفت أنّ الحافظ الجديد لـ«الكنوز» الذي عينته العشيرة «ليس إلا أنا» بعدما رأيته بعيني صدق ما كنت أعتبره من قبل «ميتافيزيقياً» وأساطير، وخرافات.

عرفت بعد ذلك كم كنت دنيوياً. كنت أريد أن أعيش كمخلوق بشري يقضي حاجاته، ويحلم بمجتمع يوفر له بشريته، ولا يوفر له إنسانيته، التي لا تتم إلا بما هو أعلى من امتلاك شروط الحياة الدنيا. التي نظن أنّها تحقق سعادتنا. وهي في الحقيقة لا سعادة تامة في هذه الحياة. لقد تطهرت من ذنوبي. وأمضيت أيامي في صوم وصلاة. وذقت شظف العيش مع هؤلاء الناس الفقراء. وشاظرتهم مصاعب حياتهم في الكد والترحال. وابتليت بأمراضهم العديدة.. ولبست ملبسهم وتطبعت بطباعهم، وصرت واحداً منهم، أحزن لحزنهم وأفرح في أفراحهم، وأردد دائماً «يا لها من حياة قصيرة، الكبد فيها أكثر من الراحة».

هوامش:

(1) صريفة: كوخ من قصب البردي.

(2) المظال: دمن الأبقار والركائب يجفف ويستخدم كوقود في

جنوب العراق.

(3) عرق زحلاوي: نوع من الخمر شائع في العراق في الستينات

والسبعينات.

(4) قرية الدين: قرية نائية من قرى هور الجبايش جنوبي العراق.

(5) فالة: أداة يدوية تستخدم لصيد السمك.

(7) عراضة: نوع من استعراض العشيرة في جنوب العراق، لإظهار

قوة العشيرة، وبأس أفرادها، وتقال خلال «العراضة» قصائد تمجد

بطولات العشيرة. ويتخلل ذلك إطلاق نار من البنادق والمسدسات

في الهواء.

وإلى جانبها على منضدة من الفضة «درة الزمان» التي من حملها في يده انفتحت أمامه الأبواب، والنوافذ، والمسالك الموصدة، وتساقطت الأقفال، وذاب الحديد، والبرونز والنحاس بإذن الله وقدرته!».

وفي قراب من الجلد نُقش عليه بماء الذهب اسم الله العظيم واسم الرسول الكريم «ص» وأسماء آل البيت عليهم السلام أجمعين، وغلق سيفه، الذي سيحارب به أهل الكفر، وأعداء الإسلام، ويحق -عندها- الحق ويطلب بثأر جده الحسين، وآل بيته عليهم السلام، الذين قتلوا ظلماً. وينشر السنة النبوية، ويجعل الناس تنطق الشهاداتين، وتصلي للواحد الأحد في مشارق الأرض ومغاربها.

وأخرج صاحبه من جيبه الصرة التي تحوي ذهب المتبرعين، وفتح صندوقاً كبيراً نُقش على غطائه بزخارف جميلة، وصرع بأصداف، وكُتب عليه بماء الذهب، وبخط كوفي قديم: «لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار». وأفرغ صرته من القطع الذهبية في داخل الصندوق، فأحدثت صوتاً مكتوماً في ذلك الصمت المهيّب. وأعاد غطاء الصندوق إلى وضعه السابق، وتساءلت مع نفسي «ما قيمة ما جلبناه من ذهب قليل، لهذا الكم الهائل من الثروات؟».

وهمس صاحبه، وقد تورّد وجهه بالنور، وذبلت عيناه من ذرف الدموع:

— يا بني أخفض بصرك ولا تحدق في أموال المسلمين لئلا يطمع قلبك! أخفض بصرك، ولا تعلق نفسك بما هو موجود! فإن هذا الجود له وليس لبشر!».

وبعدها قرأ سورة البقرة، ورددت بعض آياتها مستمتعاً برائحة البخور، التي ملأت الكهف من جهة مجهولة لم أستطع تحديدها. وخرجنا من الكهف، وشدت الصخرة بقدرة قادر، وسلطنا في طريق الخروج، الذي جننا منه أول مرة. ولكم كانت دهشتي عظيمة حين اكتشفت أنّ ما رأيته حين جننا يختلف تماماً عما أراه الآن ونحن نغادر المكان، فقد خرجنا إلى أرض صخرية غابت عنها الشمس، واختفى عشبها وتحول مناخها الربيعي، وعادت إلى قيظها اليومي اللاهب، وعاقولها الساخن، الذي يخز الأقدام، وراح صاحبي يرشدني إلى طريق الرجوع إلى القرية، ويحدد لي الاتجاهات الصحيحة، لئلا أضيع في المرة القادمة حين أقصد المكان مع الحافظ الجديد لإرشاده للمكان لأداء الأمانة بدلاً عنه.

ورحت أحفظ الطريق بعينين مدهوشتين، وقلب غُمرَ بفيض الإيمان، وشفنتين تسبحان بحمد الله، والصلاة على رسوله الكريم وآل بيته الطيبين الأطهار...

قال صاحبه وهو يسترد أنفاسه:

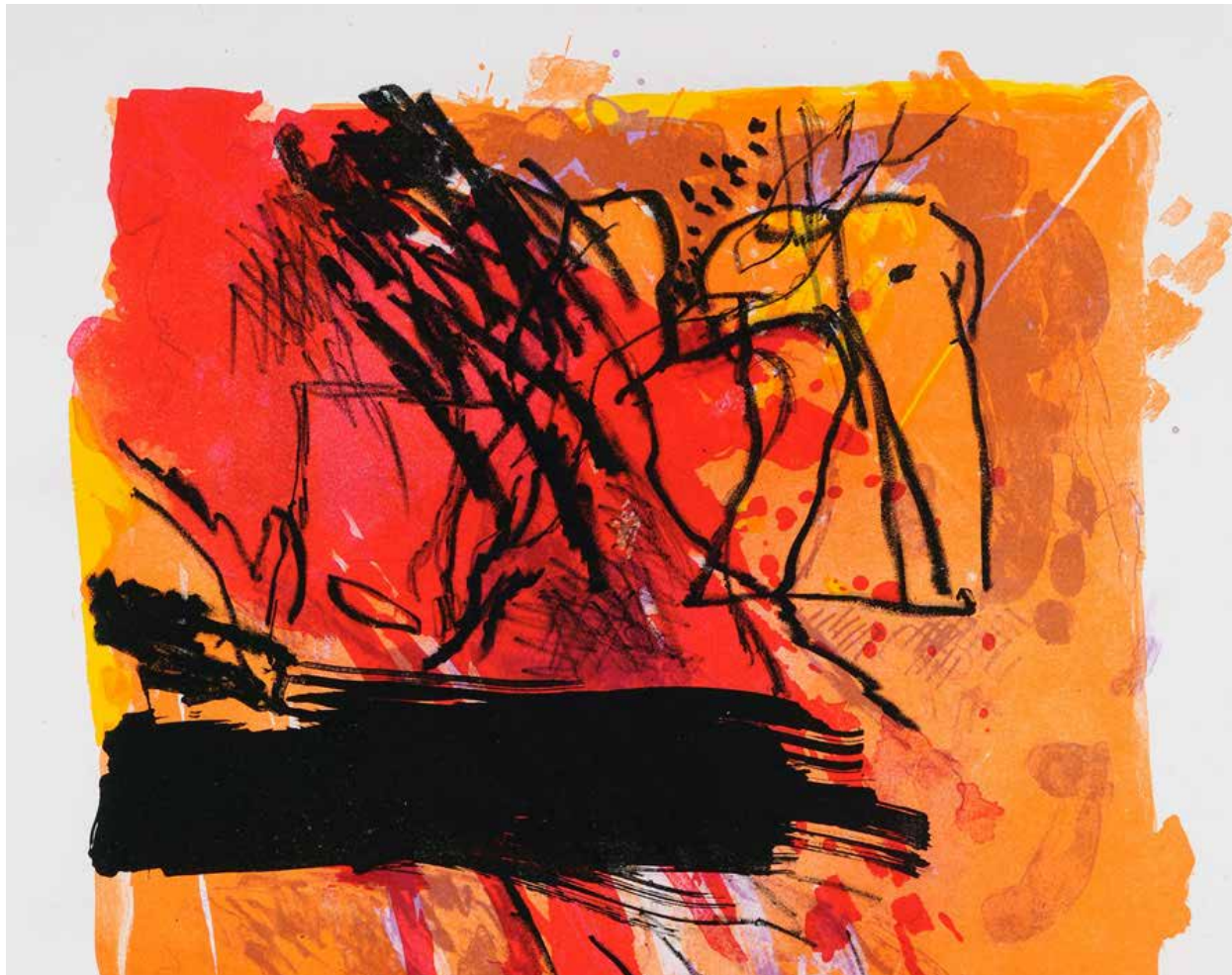
- هذا هو الحفيظ يا ولدي. قريب من الناس وبعيد عنهم بذات



# الرجل الذي قُتل

## لؤي حمزة عباس

ضياء العراوي



تعبّر النافذة وتسقط على أرض الغرفة، انحنى من فوره ليرفع بندقيته المسندة إلى الجدار، كان يستعيد حركة طالما ألفها: أن ينحني رافعاً بندقيته، ربما كان صياداً خبيراً، أو حارساً ليلاً، أو ضابطاً دخل حرباً طويلة قاسية لم يتصوّر أنها ستنتهي يوماً، ربما يكون أيّاً منهم فهم جميعاً يألفون الانحناء القليل لالتقاط بندقية مسندة إلى جدار.

ضجيج أقسام البندقية كان كافياً ليلفت اهتمام رجل الحصى، رفع رأسه من جديد ناظراً نحو نافذة الغرفة، مستغرباً للصوت الذي كسر صمت المنزل، وفي اللحظة التي حاول فيها أن يستدير وقد أقنع نفسه بأنه لم يسمع شيئاً، أي شيء، سدد الآخر بندقيته وأطلق النار لتستقر رصاصتها، بإصابة ذكية، فوق حاجب العين اليسرى، تماماً، مخلّقة نقرة صغيرة لا تبيّن، لحظات هيّنة مرّت أغمض الثلاثة بعدها أعينهم، المرأة المريضة المستلقية على سريرها وقد ارتجفت أجفانها للمرة الأولى منذ زمن بعيد، ورجل الحصى الذي لم يفكر بعد باكتمال مهمته الصباحية، ورجل البندقية.

عينها لحظة واحدة، فكر في بداية الأمر أن التعب وحده كفيل بأن يرمي بها في مهاوي النوم، لكنها لم تكن تنام أبداً، كلما مرّ بها الوقت كانت عينها تتحجران، قال ذلك للطبيب الذي التفت للمرأة كأنه يراها للمرة الأولى.

- تتحجران، لا لا، إنهما مفتوحتان فحسب.

ذلك ما قاله قبل أن ينصحه بالابتعاد عن كل صوت.

- أي صوت، مهما كان خفيفاً، يؤزق المرأة ويزيد من مرضها. وافق الزوج على الانتقال إلى المنزل بعد أن تأكد، وقد زاره أكثر من مرّة، من انقطاعه عن كل صوت.

فتح نافذة الغرفة مكسورة الزجاج، الغرفة التي دخلها في المرّات السابقة مستغرباً تناثر الحصى على أرضها، في الليل حينما حمل بندقيته إليها لم يكن يتصوّر وجود حصى بهذا الكم داخلها، كان يتحرّك في الظلام كما لو كان يسير على درب غير معبّد، اقترب من النافذة ثم رجع فور رؤيته رجل الجسر قريباً من سياج المنزل، وأخذ يراقبه من بعيد، رآه يُخرج يده من جيب بنطلونه، يفرك أصابعه ثم يميل بجسده ويرمي شيئاً ما نحو النافذة، يا إلهي إنها حصاة، حصاة نظيفة سوداء

طيشانها على الجدار هو النقطة الأخيرة على سطر جولته، يعود بعدها وقد تخفف من ثقل يوم كامل بنهاره وليله، لم يكن يفكر فيه بغير اللحظة التي يرمي فيها حصاته على النافذة. فور استدارته سمع صوتاً بعيداً، ليس صوت الريح التي تحمل الرائحة إنما هو صوت محرك سيارة، أصاخ السمع فتأكد، محرك سيارة حقاً، أضاف مع نفسه بأنها سيارة حمل، ربما، شاحنة متوسطة الحجم طالما رأى بعضاً منها تخطف من بعيد، على الجسر أصبحت الشاحنة بمواجهته، كلّ منهما على ضفة، ها هي إذن، انحرف إلى الجانب، فور صعوده الجسر، متكنّاً على سياج الحديد تاركاً لها أن تمرّ، من النافذة رأى امرأة تنظر نحوه، رأسها يستدير باتجاهه مع مرور الشاحنة، عيناها واسعتان كأنهما مفتوحتان منذ زمن بعيد، يرتسم أسفل كل منهما قوس رمادي باهت مثل هلال مقلوب، وشعرها مشدود إلى الوراء. رجعت المرأة برأسها كما لو كانت قد اكتفت من رؤيته، وأطلّ وجه رجل بشارب كثيف ولحية خفيفة بيضاء يقود الشاحنة، كان ينظر له هو الآخر.

استغرب رجل الشاحنة أن يرى رجلاً على الجسر أول الصباح، فهو لم يوافق على السكن في المنزل إلا بعد أن تأكد من تحقق شرطه الوحيد: أن يكون المنزل بعيداً عن كل صوت، لكن رؤية الرجل وقد استند إلى سياج الجسر حدّثته أنه سيرى آخرين يمكن أن تتعالى أصواتهم في كل وقت.

في صباح اليوم التالي خرج الرجل، كعادته، في حوالي السادسة صباحاً متبوعاً برائحة الليمون، يعتمل في نفسه الإحساس نفسه بأنه يمرّ جوار بستان فاكهة، متوجّهاً بخطواته الهادئة وحذائه النظيف نحو الممشى القريب، التقط حصاة نادته وارتاحت لها نفسه، وضعها في جيب بنطلونه ومضى يعبر الجسر.

لم ينم الرجل ذو الشارب الكثيف واللحية الخفيفة البيضاء ليلته، منذ أن مرضت زوجته وهو لا ينام، يخطف غفوة قصيرة في أي وقت يعود بعدها لينظر لزوجته لعلها أغمضت عينيها، يقترب حافياً منها، خطواته لا تكاد تسمع، ينظر لوجهها وهو يزداد شحوباً كل يوم، منذ أن أصابها المرض وهي لم تغمض

كان هناك رجل يخرج من منزله كل صباح، في حوالي السادسة أو السادسة والنصف، بعد أن يحلق ذقنه وينقّط على راحة يده قطرات من كولونيا كثيفة ذهبية اللون، يمسح بها على خديه، يشعر لذوعتها ويعيش رائحة الليمون الخفيفة، مع اللذوعة وأنفاس العطر يُحسّ بأنه يمرّ جوار بستان فاكهة يبدد رائحته الهواء، يرتدي بعدها حذاءه النظيف، اعتاد أن يمسحه بالفرشاة كمهمة أخيرة قبل النوم، ثم يخرج بخطوات هادئة، في الشتاء تصادفه الشمس في أولى لحظات شروقها، وفي الصيف تكون قد أنارت كل شيء، يلتقط حصاة من الممشى القريب، في أول الأمر كان ينتقي حصاة بعينها بعد أن يحمل بعضاً منها، يقلّبها بين يديه ثم يختار واحدة تناديه وترتاح لها نفسه، يضعها في جيب بنطلونه وهو يتحسسها بين وقت وآخر، ملمسها الصامت يضيف راحة على نفسه ويمنحه تكوّرها الصلب إحساساً بأنه يحمل شيئاً نادراً وثميناً، شيئاً لم يكن يُنقص إحساسه به أن يكون حصاة ملتقطة من ممشى قريب.

يعبر الرجل جسراً قصيراً بسياج حديد ليصل إلى أرض تنقطع فيها رائحة الليمون ويخفّ بريق حذائه وهو يواصل مشيه الهادئ على ترابها حتى يصل قريباً من منزل وحيد بطابقين، له شرفة دائرية واسعة ونوافذ عريضة بمظلات خشب كالحة اللون، طالما تصوّره بيتاً صيفياً مهجوراً لصاحب مزرعة كبيرة، أيام كانت الأرض مزروعة بأشجار عالية فاتنة الخضرة.

يقف قريباً من سور البيت الحجري، ينظر إلى شرفته بأعمدتها المديدة المتصدعة، ويُخرج حصاته من جيبه، يتلمسها للمرة الأخيرة، يدوّرها بين أصابعه قبل أن يميل بجسده ليلقيها، بكل ما يعتمل في نفسه من شعور بالوحدة، نحو نافذة محددة كان قد كسر زجاجها منذ زمن بعيد. غالباً ما يُصيب هدفه فيسمع لسقوط الحصاة صوتاً مكتوماً داخل الغرفة، وفي أحيان متباعدة يخطئ هدفه، يحدث أن ترتجف يده أو تهون قواه، لسبب ما، فتضرب الحصاة حافة النافذة أو تطيش إلى الجدار.. لن يغيّر ذلك من شعوره شيئاً فمهمته الصباحية قد اكتملت على كل حال.

سقوط الحصاة في الغرفة، أو اصطدامها بحافة النافذة، أو



# شهریار

محمد مزید

(قوات المقداد)، ثم أبيض ربع الجيش العراقي في تلك المعركة الخائبة.

بعد ثلاثة أشهر نزلنا إلى بيوتنا بسيارة «الإيفا». وفيما الجنود الذين معي في الإجازة يغنون أغاني «يا ويلي على حبي» كنت حزينا، بعد أن فقدت أصدقاء كانوا يطبخون لي الطعام ويعدلون منامي، ويسمونني «المسقف»، أي المثقف. نزلت حزينا بسبب فقدان لأصدقائي، وفي الوقت نفسه فرحاً بلقاء حبيبتي، حيث مُنحت إجازة عشرة أيام، كانت كافيةً لكي أرتب شؤون الخطوبة والزواج بها.

منذ أن وصلت إلى البيت اتصلت تلفونياً بحبيبتي، وبلهفة سلّمت عليها وحدثتها كيف خرجت من الموت بأعجوبة. كنت أتكلم وحدي وهي صامته، قلت لها «غداً عند الصباح نلتقي كالعادة في كافيتيريا حوار»، فقالت «أوكي».. وجاء الصباح، وتهندمت وتعطّرت، ووصلت إلى الكافيتيريا قبلها. وبعد لقاء الأحبة من الأصدقاء الشعراء والصحافيين والرسامين دخلت الحبيبة، ومعها صديقي، ففرحت بهما.. كانا يمشيان معاً، لكن على وجيهيهما ثمة وجوم، وغيوم سود.

جلسا أمامي، كانت تلصق فخذها بفخذها، دون مراعاة لمشاعري، ولاحظت أنها تحاول إخفاء يدها اليمنى، كما يفعل صديقي مثلها أيضاً.. ففهمت كل شيء، وضحكت منهما، بعدها ضحكت على نفسي ضحكةً سمعها كل الحاضرين في الكافيتيريا.. ولم ألن شهریار السخيف لأنه كان يقطع رؤوس النساء بسبب خياناتهن.

أعجبي

أحبته

هاهاها

والاو

أحزني

أغضبني.

جلسا أمامي، كل واحد منهما عند طرف من الأريكة، حبيبتي وصديقي، في الغرفة التي أعمل فيها داخل الجريدة. قلت لصديقي «اسمع، هذه الفتاة التي تجلس بجانبك هي حياتي، هي نبض قلبي، أريدك أن ترعاها أثناء غيابي في الجبهة وتجعلها مثل أختك، وتوفّر كل ما تحتاج إليه».

ثم قلت لصديقي، ضاحكا، «انتهت المقابلة معك، يمكنك الانصراف إلى أقرب بار.. وسنلتقي في اتحاد الأدباء مساءً لنكمل بقية السهرة التوديعية مع الصحب».

أخذتها إلى شارع أبي نؤاس، وسرنا بين أشجار اليوكالبتوس حتى وصلنا إلى تمثال شهریار، حيث كانت خيوط غروب الشمس تكلل عمامته. جلسنا على القاعدة المرمرية، وقالت «أنت ما تتعب من المشي.. تعال استرح».. بقيت واقفاً في مكاني أنظر إلى صاحب التمثال بضغينة، خاطبت شهریار «بلله بشرفك من أجل ماذا قطعت رؤوس النساء الحلوات».. أطلقت حبيبتي ضحكتها التي أعبدها، وفكرت: هل يمكن لأيّ موسيقى في العالم أن تتمثل أنغام تلك الضحكة؟ قالت وهي مازالت تكرر بذلك الصوت الناعم «يعني لو كنت مكانه هل تقبل بالخيانة؟».. أخذتني العزة بالرجولة «لا طبعاً».. ثم همست في أذنها «بس يمكن أسامحها إذا كانت بارعة الجمال مثلك»، فأطلقت ضحكتها ثانية.

في اليوم التالي التحقت بالوحدة العسكرية، أخذونا إلى معسكرات التدريب في التاجي، وبعد أسبوع نُقلنا إلى معسكر طارق في أبو غريب، وبعد أسبوعين نُقلنا إلى مدرسة ضباط صف المشاة في الموصل، وهناك بقينا ستة أشهر نمارس تدريبات ليس مثلها قسوةً في أي معسكر، حتى تخرّجنا نواب عرفاء (معلمي تدريب).. وطوال هذه الفترة كنا نزل بإجازة بائسة يومي الخميس والجمعة لا يتسنى لي خلالها مقابلة حبيبتي، ونكتفي هاتفياً بأحاديث غزلية لا تنتهي حتى الصباح. وجبتنا التي كان يجب توزيعها على معسكرات التدريب لتكون معلمين فيها لم تحظ بهذا الامتياز، فقد اشتعلت جبهة شرقي البصرة، واحتلّ الإيرانيون بحيرة الأسماك، ووصلوا إلى نهر جاسم، فنقلنا دورتنا كلها إلى الجبهة في قاطع الفرقة 11



## جنات في نعيم

## ميسلون هادي

صيا، العزاوي



- يله تعالي تأخرنا.

- هسه أجي. يواش.

ظلت جنات تقلب الأكياس في عالمها اليومي الجميل بحثاً عن الفردة الأخرى للنعال. كانت له زهرة بيضاء بتويجات صفراء اللون، وقد عثرت على الزهرة الثانية بمفردها دون أن تعثر على الفردة الأخرى للنعال. الوردة متقنة إلى درجة أن الخيط مع المتك مع الميسم تم تجسيهما بلون أصفر داخل زهرة نرجس مفتوحة فوق كأس من النايلون مقطوع عن مكانه الأصلي في مقدمة النعال.

بدأت الشمس بالتوازي خلف غيمة كبيرة داكنة اللون. قالت جنات لنفسها «ما أكبر هذه الغيمة، لقد جعلت رائحة الهواء تتغير، والظلام ينتشر». نادى أخوها الذي كان يرتدي كاسكيتة حمراء:

- ماذا تفعلين هناك، لقد تأخرنا.

- يواش، هسة أجي.

- الدنيا صارت ظلمة.

- شي يهكم، صار عندك كاسكيتة ومناظر.

لم يتبق لها سوى كيس واحد صغير تبحث فيه عن فردة النعال الثانية، أما باقي الأكياس فكانت تستطيع أن تميزها جيداً من أشكالها وألوانها، وبحاسة شقها القوية تستطيع معرفة أصحابها الذين أعطت لهم أسماء وهمية في خيالها: هذولة بيت العصفور، وهذولة بيت البزون، وهذولة بيت الجاهل الذي يملأ الأكياس بالحفاظات. وكلهم يأكلون السمك والدجاج، ويرمون الرؤوس والذبول إلى الزبالة.

- ها.. فضيها عاد. هل لقيت الفردة الثانية؟

- لا لم أعثر عليها بعد. عثرت على الوردة فقط.

- الدنيا راح تمطر.

- لن أترك هذا المكان حتى أعثر على ذلك النعال.

- بنت النعال مو الدنيا راح تمطر، والأكياس راح تصير تشريب.

- أنت روح، وسأتي بعدك.

- هل تريدان أن تضربني أمك؟ المعسكر قريب من هنا، وإذا اكتشفوا وجودنا سيقتلوننا.

بدأت قطرات المطر تتزايد، والطيور المتجمعة على الأكياس

تبتعد وتختفي، ولم يتبق سوى الخروف والبقرة والحمار.

- إذا لم نرجع الآن ستحصل مصيبة.

- وهل النصف دينار مصيبة. عثرت على نصف دينار ممزق

ويمكننا لصقه بالبيت. أبي سيفرح به.

- هه.. وسيفتح به مطعماً للكباب.

- وعثرت أيضاً على موبايل؟

- موبايل؟

- نعم موبايل.

جاء أخوها وهددها بأن يضربها بالحجارة إذا لم تترك الموبايل من يدها، ولما تركته اتضح أنه ليس إلا غطاء يستعمل لتغليف الموبايل. أخذ يلعنها، ويقول إن الظلام قد حل، وأمهما الآن تدور حول نفسها كالمجنونة مخافة أن يكون الجن قد خطفهما. ما إن سمعت جنات باسم الجن حتى نهضت بسرعة، وحملت في عبا غنيمة ذلك اليوم الغائم: نصف دينار، وفردة نعال، مع الوردة المقطوعة للفردة الأخرى، وغطاء موبايل، ومملحة على شكل «زار» انمسحت وجوهه الخمسة، ولم يتبق منها سوى

خانة إليك. تجنبت مع أخيها الاقتراب من المعسكر الذي يمران به كل يوم، وتحاشيا الصعود إلى الهضبة الترابية للجنود، وهي الهضبة التي تطل على مخيم مترامي الأطراف يضم الكثير من أولاد الجيران والأقرباء مقن تركوا بيوتهم المهدامة بقذائف الهاون، وجاؤوا إلى هذه الخيم المصنوعة من القماش الأبيض. كانت الطيور قد اختفت، ومعها البقرة والخروف. أما الحمار فظل في مكانه، وقد انتفخ بوقت سريع نسبياً نظراً لأنه هناك منذ ثلاثة أيام فقط، ويمكن لجنات أن تخمن بأن محتوياته الدسمة قد اجتذبت عدداً مهولاً من الديدان، وصغارها المولودين حديثاً. ما عدا دودة واحدة صلبة الجسم قوية الأرجل استدلت بحاسة شمها القوية على قطعة حلوى ملتصقة بكعب قنينة مياه معدنية بعيدة عن ذيل الحمار. ولم يكن سهلاً حتى لهذا الخبر أن يبقى طي الكتمان، وانتشر بسرعة البرق بين باقي الدود والنمل والذباب، فتولت مهام شاقة توزعت بين القنينة والحمار، الذي لم تكن جنات تستطيع النظر سوى إلى

ذيله.

ظلت تمشي مع أخيها لفترة طويلة حتى أظلمت الدنيا تماماً، وسرعان ما سمعت أصوات إطلاقات نارية تتردد من بعيد، وأصبحت الأرض نهياً لعجلات السيارات.

- ماذا جرى.. ما هذا الضرب الشديد؟

- هذه الإطلاقات كلها بسببك. الجنود سيقتلوننا.

- أي جنود؟ لقد ابتعدنا عن الجنود.

كان المطر قد توقف، فخلع عبود نظارته الشمسية، وأرجع كاسكيتته الحمراء إلى الخلف، وقالت جنات لتبدد خوفها من الجن:

- هل تكون هذه الأصوات هي بسبب خروج الجنية من تحت الأرض؟

- ماكو جنية؟ أكو بس جني.

- أنا أخاف من الجني.

- الجني الكبير أو الجني الصغير؟

- ليش هو أكو جني صغير؟

- أي أكو.. هذا الذي يقول شببك لبيك عبدك بين يديك.

- يعني شنو لبيك شببك؟

- يعني من الممكن أن يعطيك جائزة؟ تريدان جائزة؟

- جائزة مالتيش؟ هاي أول مرة أشوف جني يوزع جوائز.

- على أساس أنت ضاربة خاشوكة وي الجن. يله قولي شتريدين

إذا طلعك الجني؟

- ضاربته ليش، والخاشوكة مالتيش؟؟

- خاشوكة مال أبويه اللي خلفني. فضيها عاد شكك تلغين.

شتريدين تطلبين من الجن؟

يبدو أن جنات قد فهمت أخيراً، فلم تتأخر في جوابها، وقالت على الفور:

- أريد فردة النعال الأخرى.



# لعبة الدمى البشرية

## نهار حسب الله

صبياء المزاوي



(1)

مضت أكثر من عشرين عاماً على الحادثة، ولم تتمكن أمي من الخلاص من ذكرى ذلك الصبح الأسود المثقل بالشؤم الذي حل بعائلتي..

يومها كنت مجرد قطعة لحم عالقة في أحشائها، ولكنني حفظت الحكاية بتفاصيلها الهامشية عن ظهر قلب على لسان أمي التي رسمت لي صورة والدي، عامل البناء، المعدم، المتلاشي الذي اختفى من دون سبب، وضاع أثره ما بين الموت والفقدان..

تحول إلى أقاويل تلوكها الألسن.. منهم من قال وقتها إنه دهس تحت سيارة، وقال أشخاص آخرون إنه اختطف.. وردد غيرهم أنه مسافر أو رهن اعتقال السلطة، أو أنه دفن في إحدى المقابر الجماعية...

لم تصل أمي (سعاد) لنهاية قصتها الحزينة، ذلك أن فكرها ظل سجين الانتظار..

وعلى عكس ما يرسمه الواقع.. رفضت ارتداء السواد والقبول بموت زوجها وغيببت فكرة الارتباط برجل آخر غير ذاك الذي لم يمت في قلبها..

تجاوزت الأربعين من عمرها إلا أنها كانت تنسج جمالها من الصبر.. لم ينل الشيب من شعرها الأشقر أو يجعد الزمن وجهها القمري.. كانت تبدو وكأنها في عمري أنا ابن العشرين عاماً..

وعلى الرغم من أن ملامح وجهها كانت ترسم ابتسامة عفوية تليق باسمها، إلا أنني لم أرصد وجهها الناصع البياض وهو يضحك ضحكة صادقة طوال حياتي، مثل ذلك اليوم الذي أنهيت فيه دراستي الجامعية بتقدير جيد جداً..

يومها رقصت وضحكت بجنون.. قلبت خزانة ملابسها بفوضوية لم أعرفها في سلوكها من قبل، وأخرجت لي بدلة رجالية سوداء إيطالية الصنع وربطة عنق حريرية حمراء، قالت إنها تعود لأبي ولم تلامس جسده سوى ليلة عرسهما، وكانت هدية باهظة الثمن من رجل ثري أخلص أبي في بناء بيته.. ويلىق بي أن ارتديها اليوم بوصفي عريس هذا الصباح..

من يومها.. انشغلت بتصفيف شعرها وارتدت فستاناً قصيراً سمائي اللون ووضعت بعض مساحيق التجميل التي لم تلامس

وجهها منذ زمن بعيد.. وبدأت كما لم أرها من قبل.. كانت مثل ملاك هبط من السماء أو حورية قدمت من الجنة لمشاركتي فرحتي..

حفل التخرج حضرته نخبة من الأوساط الجامعية والعلمية وعدد من رجال الدين والسياسة إلى جانب شخصيات بارزة في المجتمع..

كانت العيون تتبعنا في الحرم الجامعي.. أو تتبع جمال أمي تحديداً.. ولكن أغلبها كانت نظرات لا تتعدى الإعجاب، إلا نظرات ذلك السياسي الجالس في الصف الأول، المحاط بعدد من عناصر الحماية المثيرة للريبة والحدري..

كان يرتدي بدلة خبرية اللون، مظهره يميل نحو الوقار والتقوى، احتلت وجهه لحية مهذبة متوسطة الطول أفسد سوادها بعض الشعيرات البيضاء، وشارب خفيف وبقعة داكنة أعلى جبينه، فيما سكنت الخواتم خنصر وبنصر يده اليمنى، وقبضت ذات اليد على سبحة فضية تتقلب حباتها بين أصابعه بانفعال لا ينم عن عبادة أو ذكر خالق..

كنت أتابع نظراته الوقحة وهي تعزّي أمي من ملابسها.. وتغوص فيها آلاف المرات..

انشغل الجميع بالفرح إلا أنا كنت احترق وأذوب بصمت مثل شمعة.. وأنا أتابع سلوك صاحب العيون الوحشية وهو يجدد رغبته بالتهم أمي ويعرض شفتيه تارة ويحدث أحد حماياته تارة أخرى..

تنهت لذلك الشخص الذي كان يتلقى الأوامر من السياسي وهو يقترب من أمي ويدس في كفها ورقة صغيرة ويحدثها في أذنها..

التفتت أمي إلى السياسي وابتسمت فسال لعبه ككلب يتضور جوعاً..

اجتمع الحرج والخوف والاضطراب في داخلي وهو الأمر الذي أفسد عليّ فرحة عمري.. مما دعاني لسحب أمي ومغادرة الحفل..

(2)

تألمت لفساد فرحتي.. وعزلت نفسي عدة أيام، إلى أن كاشفتني

خصوصاً وأن وضعنا الاقتصادي يتطلب منا أن نكون أقوياء لنيل الفرص..

زرت وأمي مقرّ ذلك السياسي وقبعنا في قاعة الانتظار التي كانت لوحدها أكبر من بيتنا والبيت المجاور له..

وبعد انتظار لم يطل أكثر من نصف ساعة، تلقينا الإيعاز بالدخول إلى غرفة مستطيلة مفروشة ومؤثثة على نحو فاخر..

أمي بحقيقة تلك الورقة التي كتب فيها السياسي جملة واحدة «راجعوا مكنتي في القريب العاجل للحصول على وظيفة تليق بابتكم»..

رفضت الأمر وفضلت البطالة والشقاء على لقاء ذلك الشخص مرة أخرى.. غير أن أمي كانت تتوسلني أن نذهب إليه، بوصفه أملنا الوحيد في ظل واقع محاط بالبطالة والإحباطات..



كان السياسي يجلس نهاية الغرفة خلف مكتبه، نظر إلينا من تحت نظارة القراءة التي بدت طارئة على وجهه، وسرعان ما مَثَّل علينا دور المنهمك بقراءة الأوراق المبعثرة على المكتب.. أوعز لنا بالجلوس بحركة يده من دون أن ينطق كلمة واحدة، وظل يحرق في أوراقه المبعثرة..

كنت أراقبه لئلا يسرقنا بنظراته الدنيئة كما فعل في اللقاء الأول.. غير أنه بدا شخصاً آخر تماماً.. لم يرفع وجهه بوجه أُمِّي ولو بالصدفة..

وبعد دقائق انتظار متعبة، رفع رأسه تجاهي وبدأ يشيد بتفوقي وحرصني على النجاح.. وضغط على زر بقرب يده على الطاولة.. ففتح باب الصالة ودخل شاب بمنتهى الأناقة ظل ثابتاً بانتظار الأوامر..

وبلهجة أمرة قال السياسي:

• رافق هذا الشاب ليبدأ العمل في المكتب الخاص.. وكن مهتماً بتعليمه تفاصيل عملنا فهو من أقاربي..

توزّد وجه أُمِّي، واحمَرّ وجهي تأثراً بالمفاجأة... خبست الكلمات في فمي رغماً عني، فيما كسرت أُمِّي صمتها وانطلقت تشكر موقف السياسي الإنساني وتحيطه بالدعاء والثناء..

(3)

بعد أسبوع واحد من مباشرتي بالعمل في المكتب الخاص.. أوعز السياسي بإيفادي إلى مدينة الموصل لإيصال بعض الملفات السرية..

حاولت جاهداً عدم ترك أُمِّي لوحدها ولكن الأمر كان واجب التنفيذ..

كانت مهمتي تتلخص بتسليم مغلف مغلق إلى شخص يدعى «حجي أكرم» كان اسمه ورقم هاتفه الشخصي مطبوع على المغلق..

أقلتني سيارة مصفحة رباعية الدفع من ماركة تويوتا تعود لموكبه الشخصي من بغداد إلى مدينة الموصل.. من دون أن تتوقف في أي سيطرة على الطريق.

كان السائق صامتاً طوال الطريق، مثيراً للريبة والقلق والإزعاج، مما جعل الرحلة متعبة ومملة..

وبعد أكثر من ثلاث ساعات ونصف من الجلوس في السيارة، نطق السائق بجملته الوحيدة:

• سيدي لقد شارفنا على دخول مدينة الحضر وما هي إلا نصف ساعة حتى نصل إلى مركز المدينة..

نسخت رقم هاتف الحاج أكرم من على المغلف ووضعت في هاتفي المحمول واتصلت به، ومن أول رنة، رد علي صوت شاب وحدد موعد اللقاء قرب المحطة العالمية لسكك الحديد عند مدخل المدينة، وقال إنه سينتظرنني هناك بسيارة سوداء كتلك التي تقلني الآن..

وصلت على مقربة من المحطة وعند الطريق الدائري تنبعت لسيارة تشبه سيارتنا تنتظر هناك..

وقف السائق بالقرب من السيارة وأوعز لي بالنزول.

ترجل من السيارة الأخرى رجل لم يتجاوز الثلاثين من العمر، قرويّ اللهجة، كان ضعيف البنية طويل القامة مائل إلى السمرة ذو لحية شعثة غير مهذبة طويلة لدرجة أنها تخفي عنقه بالكامل، كان يقبض بطارف شفّتيه على مسواك لتنظيف الأسنان، يرتدي دشداشة قصيرة ترتفع إلى ما تحت ركبتيه..

عرّفتني بنفسه على أنه الحاج أكرم واستلم المغلف وأنهى اللقاء على عجل.. وانطلق بسيارته مسرعاً..

طريق العودة كان متعباً كتلك الأسئلة التي بدأت تتضخم في رأسي عن الحاج أكرم وعلاقته بالسياسي وعن المغلف الذي ندمت لأمانتي التي منعني عن كشف محتواه..

عند المساء وصلت متعباً إلى بيتي ببغداد وفوجئت بالسياسي يجالس أُمِّي في غرفة الضيوف بمفرده من دون أيّ حمايات.. كان وجه أُمِّي يتلون بعدة ألوان في اللحظة الواحدة.. اصفرّ من الخوف، واحمَرّ من القلق.. وازرقّ من التوتر.. وخليط من الألوان ينتظر ردة فعلي..

تحدثت إليّ أُمِّي بلهجة متلعثمة:

جاء سيادته قبل قليل وأصّر أن ينتظر عودتك..

قاطعها السياسي:

كنت أنتظر عودتك أيها البطل.. فلاأستطيع مقابلتك في المكتب في مثل هذه الساعة من الليل، أنت بطل حقيقي يا بني..

يوم غد سينتقل سكنكم من هذا القبر الذي تعتقدون أنه بيت إلى مكان يليق بوضعكم الجديد..

نهض وصافحني وسلمني رزمة من الدولارات فئة المئة دولار.. وقال هذه مكافأة بسيطة لقاء الجهد العظيم الذي قدمته اليوم.. وغادر من دون أن ينتظر إجابتي..

(4)

قررت الارتباط بفتاة أكثر جمالاً من ضياء الشمس، كنت قد أعجبت بها أيام الدراسة، ولكن العوز كان يشكل حجراً ثقيلاً يسكن فوق لساني، فلم أحدثها إلا عندما تغير الحال..

تزوجت وعملتُ جاهداً على تحقيق حلمي بتكوين أسرة كبيرة، عساني أنسى عالم الوحدة الذي تركني فيه والدي..

هجرنا حياتنا القديمة بؤسها اللامتهي.. تركنا الناس التي لازالت تحكي قصص فقدان والدي، ابتعدنا عن الفقر، وبيتنا أو غرفتنا العجوز البالية..

تغيرنا.. أو غيرتنا عيون ذلك السياسي التي صرت أشكر انبهارها بأُمِّي من دون إدراك..

مرت الأيام عجولة، وسرعان ما تحولتُ إلى شخص فاعل في حياة السياسي.. يده اليمنى أو مدير أعماله الخفية.. وتطورت

وجهات إيفادي إلى محافظات العراق كلها، ومن بعدها إلى دول كنت أخاف النظر إليها على الخارطة..

علمني سيادته أن لقب الحاج لا يطلق حصراً على من حج بيت الله الحرام، وإنما يُخَصُّ به أشخاص من عينة الحاج أكرم والذين يقطنون المحافظات الشمالية.. ولقب السيد لا ينحصر بالذين يعود نسبهم إلى رسول الله وإنما يقصد به أشخاص من المحافظات الجنوبية، من أمثال السيد هيثم الذي التقّيته في مدينة البصرة، كان أصلع الرأس ضخّم البنية أسمر البشرة عابس الوجه، حاد المزاج، شفّته لا تفارق السجّارة، ويده لا تفارق السبحة السوداء..

كنت قد تواصلت معه ونقلت إليه أكثر من رسالة مغلقة كما فعلت مع الحاج أكرم في مدينة الموصل وعدد من الحجاج في المحافظات الشمالية والغربية... وعدد آخر من السادة في المحافظات الجنوبية..

إلا أن فضولي فضح لعبة ذلك السياسي وأولئك الذين يتخذون من مسمياتهم الدينية غطاءً لإدارة البلاد على نحو غامض.. وذات يوم وفي إحدى سفراتي كنت قد فتحت أحد المغلفات الواجب إيصالها إلى مدينة الموصل..

احترق فكري وارتجف جسدي من هول الصدمة وأنا أتابع حروف رسالة كتبها السياسي بخط يده إلى الحاج أكرم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

قوله تعالى: (وإن جندنا لهم المنصورون)

في الوقت الذي أبارك لكم انتصاراتكم في العمليات السابقة.. أدعوكم لتصفية الجماعات المتفق عليها على نحو كامل وتطهير مدينة الموصل الحدياء وأطرافها.. لتبقى عامرة بوجودكم..

طياً قائمة بأسماء الشخصيات الواجب تصفيتهم في القريب العاجل..

وستصلكم المواد والأموال اللازمة للجهاد عن طريق معتمدين تعرفونهم حق المعرفة.. والله الموفق..

كاد قلبي ينخلع من صدري بسبب اضطراب النبض الناتج عن الخوف والارتباك..

أعدت ترتيب الرسالة في المغلف وكأن شيئاً لم يكن..

وتابعث عملي وأنا أفكر في أسلوب الخلاص الآمن من مشاريع الموت التي صرت شريكاً بصناعتها..

ولكنني كنث مثقلاً بالرسائل المغلقة، من الموصل توجهت إلى الفلوجة ومنها إلى بغداد ومن ثم إلى الديوانية والبصرة عند السيد هيثم..

كنت أفتح الرسائل كلها وأدوّن المعلومات بسرية تامة.. وفي الرسالة التي وجهها السياسي إلى السيد هيثم رصدت ما يناقض رسالته إلى الحاج أكرم، حيث جاء فيها:

السيد المجاهد هيثم حفظه الله

تحية جهادية لمناصري العقيدة

قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

وردتنا معلومات خطيرة عن نية البعض للقيام بعمليات اغتيال منظمة ضد الرموز العقائدية في المحافظات الغربية والشمالية.. لذا تقتضي الحاجة للدفاع عن النفس والعقائد والمقدسات.. ونرى أنه من الواجب تحريك رجالك الأشداء إلى المناطق التي تختلف معنا وتصفية ما يمكن تصفيته منهم..

أقدّر شحة السلاح والعتاد لديكم، ولكنني أعدكم بإيصال ما تحتاجونه وأكثر خلال اليومين القادمين..

والسلام عليكم ورحمة الله..

(5)

كان الخوف ينتابني.. مع إدراكي أنه حالة إنسانية طبيعية، ولكن ما يعتريني اليوم أكثر تشعباً من مفهوم الخوف..

لم أكن خائفاً من مصارحة السياسي بمعرفتي حياكنه خيوط الطائفية في المجتمع، وإنما كنت مرعوباً على مصير أُمِّي وزوجتي ومولودي الذي ينتظر الحياة بعد أيام قليلة..

أوقفت أعمالي على نحو كامل لعدة أيام مما دعاه لاستدعائي في مكتبه.. ومن أول نظرة عرفت أنه كشف ما أخفي.. وحدثني بلهجة هادئة ساخرة:

• أنت لاعب ذكي في لعبتنا هذه ولكن قانون اللعبة يؤكد على أن من يكتشف خطط اللعبة وأسرارها، عليه مغادرة الملعب.. ولكن يا بني قبل أن تغادر أريدك ألا تقلق بشأن والدتك العزيزة، فهي من اليوم تحولت إلى عروسي، متعتي المؤقتة، بما شرع الله، أما بخصوص زوجتك فسيأتي دورها قريباً.. ومن ثم نعتزم مكافأة الحاج أكرم والسيد هيثم بجمالهن الأخاذ..

سحبني أفراد الحماية إلى خارج المكتب ومن ثم إلى السيارة المصفحة وانطلقوا بي إلى طريق صحراوي..

توقفت السيارة على جانب الطريق وترجل منها أحد أفراد الحماية وسحبني كمن يسحب خروفاً إلى المذبح..

ابتعدنا بضع خطوات عن الشارع الرئيس، وإذا به يسحب مسدسه ويوجهه نحو رأسي.. عندئذ صار العالم من حولي ضبابي المظهر ولم أعد أسمع إلا صوتي وأنا أخاطب نفسي:

• لا صورة في ذهني بهذه اللحظة سوى صورة والدي، ربما نتشابه بذات المصير.. ربما سيبقى مصيري مجهولاً بنظر ابني، الذي سيسمع حكايات طويلة من ألسنة الناس عن ضياعي.. كما سمعت أنا عن أبي..

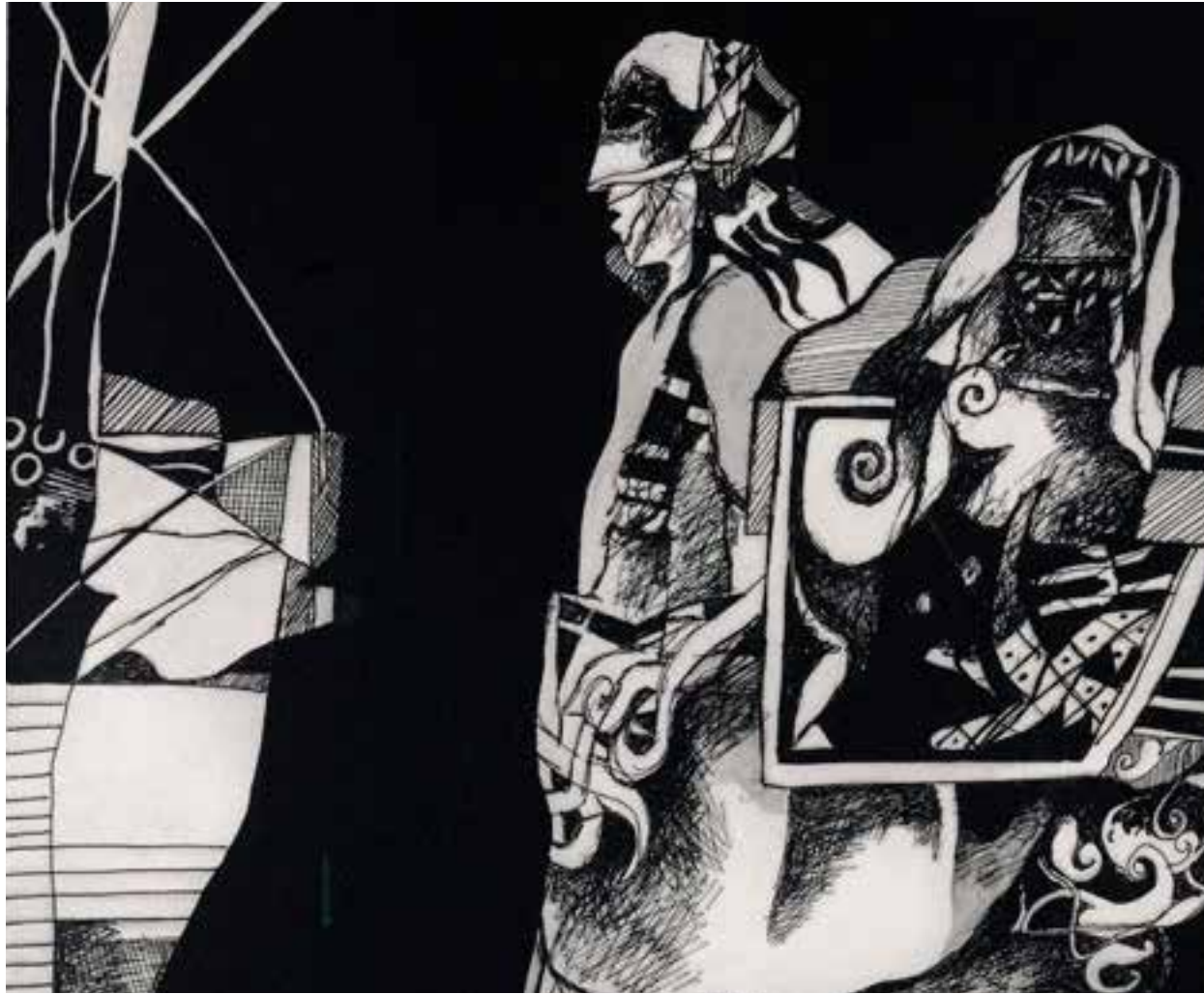
لست نادماً على موتي.. ولكنني أتمنى ألا يحرك ابني لعبة الدمى الدموية.. وألاً تتكرر معه ذات حكاية..



## لوحة باهتة لسمااء بعيدة

### نهى الصراف

شباب العراوي



الشارع الرئيس لمركز المدينة حيث يقضي صباحاته فيها منذ سنوات لم يعد يتذكر عددها، كان يعمل بدخل غير معقول في الصباح وبدخل لا بأس به في ورشة لتصليح السيارات مساءً، وبين هذا وذلك، يقضي وقتاً طويلاً في الجلوس إلى مقهى الحي الشعبي ليبدد نصف دخله في تذوق أقذاح الشاي الحبري وتدخين علب السجائر المهزبة ومساعدة بعض المحتاجين في الخفاء، وكان يقطع نصف الساعة الأخيرة بتقليب صفحات كتاب قديم مغلف بعناية بمجلد سميك حرص على أن يخفي عنوانه عن نظرات الفضوليين، مدعياً الاستغراق بالقراءة بين دفتيه باهتمام كانت تعززه عقدة حاجبيه الغضبي. أما أحاديث السياسة التي عكف الناس على تبادلها بصوت خافت، فكان يدير لها ظهره ويتظاهر بتدخين ما تبقى من عقب السجاجة الأخيرة، قبل أن يغادر إلى منزله وهو يحمل بفخر كيساً من الخضراوات الذابلة ونصف دجاجة.

تبقى أمه العجوز في انتظاره كل يوم لحين عودته، لتسكب له ما تيسر من طعام يأكله على مضض فيمضي صامتاً إلى

عالية. القصص التي أدار لها ظهره ولم يسمح لها يوماً بأن تعكّر مجرى أيامه التي كانت تمضي بوتيرة واحدة. ذلك الماضي الذي لفظه، لا يمكنه أن يعود مجدداً بعدما حدث.

في المدينة الجنوبية وفي شارع السعدون، الذي استعار اسمه نكاية به، كما صرّح أكثر من مرة لرفاقه من رواد المقهى، تسنى للولد الجميل أن يهذر بأصناف متعددة من الحديث الذي يجمعه أحياناً على الرصيف بعمال المسطر الطارئيين الذين لم يتسنّ لهم الوقت لفك طلاسم الكتابة والقراءة بسبب الفقر. كان يجمعهم حوله بخفة ظله وسخريته اللاذعة كلما سمح لهم بذلك الوقت الممتد بين فترة عمل وأخرى. وهو يفعل ذلك بسهولة توازي السهولة التي تستطيع فيه قطعة حلوى لزجة أن تجمع أعداداً من الذباب الكسول حولها.

درس سعدون في المدارس الابتدائية والثانوية حتى امتلأ رأسه بالضجيج، فتوقف عند مشارف الجامعة متلكناً واختار أن يعمل ويعيل أسرته الصغيرة المكونة من أم سعدون العجوز وولدها سعدون. موظف في دائرة البريد التي تقع في زاوية

إليه من بعيد وهي غير مبالية، وما زالت أصوات رجال ببّرات عسكرية تتداخل مع ضجيج الأفكار التي تتصارع داخل رأسه.. الأصوات فقط هي التي برزت في وسط المشهد، وكان هناك صوت صامت لدماء ساخنة وعطر جسد مسجى إلى جانبه، حيث يختلط العرق برائحة الموت، الرائحة التي تعزف إليها سعدون للمرة الأولى في حياته. لم يتسنّ له -حتى في تلك اللحظات المضيئة التي تومض في قلبه بين الحين والآخر- التحقق من هوية أصحاب الدم أو من احتمال أن تكون دماؤه هو نفسه قد وجدت طريقها إلى الحفرة أو تشبثت بحدود ملامحه، مثلما فعلت الدفقات الغريبة لأصحاب الأجساد الساكنة.

استعاد القليل من وعيه متداركاً وقت الظهيرة. آه.. لو استطاع أن يعدل قليلاً من وضع جسده.. هل كان خوفاً الذي عقد أطرافه ومنعها من الحركة؟ أم كان عجزاً بسبب إصابته أو خوراً في أعصابه بسبب الدماء التي أهدرها؟

إنه لا يملك إجابة واضحة على كل هذا الكم من الأسئلة الغريبة التي تدور في رأسه المتعب، ولم ينجح أيضاً في إزاحة الغشاوة الحمراء عن أطراف عينيه. وبدلاً من ذلك، قاده حسّه الأمني إلى إغلاق عينه الأخرى كإجراء احترازي.. فماذا لو رجع صاحب البسطة المعقر ورصد مظاهر الحياة في ملامحه؟! هكذا أفضل، فالموت مرة واحدة يكفيه في الوقت الحاضر، (كان سعدون يحدث نفسه من دون أن يحرك شفتيه ويكؤرها كما اعتاد أن يفعل في الماضي القريب، تحاذقاً).

\*\*\*

في الماضي الذي قطع أيامه ولياليه مهرجاً لا مبالياً.. كان سعدون مجرد عابر سبيل، يمرّ بجانب الأشياء من دون أن يسمح لها باجتياز الحدود التي رسمها حول نفسه. وفي لجة الأحداث الكبيرة التي كانت تقع إلى مسافة غير بعيدة عن المقهى الذي تعود قضاء فترات الظهيرة الطويلة فيه، كان يستمع بضجر إلى القصص الرهيبة وحفلات الإعدام الجماعي التي يموت في نهايتها الناس من دون جريرة. القصص التي حسبها خيالاً منقفاً يحسن البعض حياكة تفاصيله بحرفية

سعدون، الولد الكبير، المهرج، المتصابي، المتحاذق، الوسيم، صاحب الصولات والجولات، زير النساء، الموظف الكسول، المثقف الفاشل، الفقير إلى الله. ما الذي يفعله هذا الكائن الجميل في هذه الحفرة الوسخة المغمسة بالدماء؟ كان مقيداً، غائب الذهن، تطوّقه أجساد مثقوبة بالرصاص ما زالت تطلق دفقات من دماء ساخنة، فلم يتسنّ له تلافي لزوجتها وهي تتور على وجهه، بين الحين والآخر، من أجساد تلفظها ولا تريد أن تستعيدها. بدا المشهد الأخير مشوشاً، فبعض الدماء على زاوية عينه اليسرى غمت تفاصيل المسافة التي كانت تفصله عن الأقدام الملتفعة بالبساطيل والتي أنجزت مهمتها الرهيبة توأ وتلكأت في طريق العودة.. ولأنها ترددت كثيراً في الذهاب والإياب مجدداً إلى الحفرة الجماعية في محاولة لإفراغ ما تبقى من عتاد البنادق في الأجساد الساكنة، تسنى لسعدون أن يرى واجهة البساطيل وقفاه تتبادلان الأدوار أكثر من مرة.

كيف وصل الولد الكبير إلى هذه الدائرة التي انبثقت فجأة من أعماق الجحيم، الدائرة التي ابتلعت هذا العدد الكبير من الجثث وتركت سعدون لمصير آخر لا يقل جحima عن الموت بالرصاص؟ أمر الإعدام الجماعي كان موثقاً في الورقة السمراء الباهتة التي انتهى من تلاوتها قبل دقائق أو دهور، أحد العساكر قبل أن يسمح لرفاقه بتفريغ شحنات غضب بنادقهم في الأجساد الفتية.

- «هيا.. تحركوا.. يا مظهر، هل انتهيت.. أعني تفقدتم الجثث؟ لا نريد مزيداً من المشاكل، تذكر ما حدث في المرة السابقة. ما نريد وجع رأس!».

- «لا سيدي، اطمئن».

كانت أصواتهم تصل إلى مسامعه، مقطوعة أحياناً وموصولة أحياناً أخرى، تماماً مثل الطريقة التي كانت تعبر فيها الدماء الدافقة عن نفسها منذ زمن حسبه طويلاً جداً، زمن اللحظات أو الدقائق التي كانت تفصل بين الأمس واليوم، بين الحياة التي كان يعيشها قبل ساعات والموت الذي احتضنه قبل لحظات. ما زالت شمس الظهيرة تتوسط لوحة باهتة لسمااء كانت تنظر



سريه استعداداً لحلم جديد يفضله على مقاسه ويتركه على حافة السرير بعض الوقت، لحين إتمام طقوس النوم بارتداء (الدشاشة) وأداء بعض التمرينات وطققة فقرات ظهره المتعب، وبهذا يقطع الطريق على محاولات الذاكرة المستميتة لسحبه إلى وقائع أحداث اليوم.

يستغرق سعدون في نوم عميق بعد أن يرتدي حلمه بثوان معدودة، حتى يتمدد صوت شخيرته مثل بالون حلزوني فيصيب بشظاياه غرف المنزل المجاورة ويقض مضجع العجوز المسكينة، فتكتفي بالاستغفار من ربها وتدعو بالهداية لهذا الولد (الوكيح) الذي يستمر في تعكير حياتها حتى وهو في نومه.

\*\*\*

بدأ سعدون ذلك اليوم، كعادته، مازحاً مع الموظفين في دائرة البريد، لكنه في الفاصل الزمني الممتد بين عمله الأول والثاني وهو في طريقه إلى المقهى، تعثر بمسيرة هائجة من جموع المارة الذين كانوا يقطعون الطريق بين بداية الشارع ونهايته بخطوات متعجلة ومرتبكة، تطاردهم مجموعة من البزات العسكرية وهي تدك بساطيلها في الأرض كمطارق مجنونة، في محاولة للحاق بهم. لم يرق له المشهد المعفر بالضجيج والتراب، فبدأ بتوزيع السباب بالتساوي على المارة ومطارديهم. وحين توقفت شاحنة نقل الخضراوات الفارغة في رأس الشارع، قطعت الطريق على البعض، ما أتاح الفرصة للعسكر تحت تهديد السلاح- لغرف مجموعة من الأجساد ودلقها على عجلة في خلفية الشاحنة كما يغرف الدلو الماء من بركة، وسرعان ما امتلأت الشاحنة بالرؤوس والقمصان والبناطيل والدشاديش والعمائم والعباءات الرجالية وسحبت في طريقها قميص سعدون وبنطاله وشحاطته، وكان ما يزال يتلفظ بكلماته النابية محاولاً التخلص من تدافع الأجساد ومشمئزاً من روائحها المعقدة، حتى كتمت صوته ضربة عصا غليظة تلقاها خده الأيمن وشربتها نظراته الزائفة، وهي تحاول للحاق باليد التي تمسك الطرف الآخر من العصا من دون جدوى.

وجد الولد المهرج نفسه ومن دون مقدمات، وسط جموع من البشر لا تربطه بهم سوى خيوط المفاجأة ومشاعر الخوف من المجهول، داخل شاحنة الخضراوات التي قادتهم بجنون بين شوارع المدينة الجنوبية إلى لا مكان. ووسط الذهول ومطبات الطريق، تسربت إلى مدارات سمعه بعض الحوارات الخافتة التي كانت تدور بين ركاب الشاحنة المرتعبين وكانت أشبه بهذيان مريض بالسرطان يراقب باستسلام أذرع الموت وهي تسحب روحه ببطء إلى مكان بارد؛ ذكر بعضهم حادثة مقتل بعض من عناصر حراس مركز التوقيف قبل ساعات وهروب سجناء سياسيين في اللحظات التي تلت ذلك، ثم

انسلاهم خلصة بين الجموع و.. الفوضى التي عمّت الشارع المقابل لدائرة البريد ثم، الفضول الذي حشد بعض السابلة في الوقت والمكان الخطأ.

تذكر سعدون، وسط هذه الحمى، الحكايات المرعبة التي كان يتداولها رؤاد المقهى والأسرار المسزبة من دهاليز السجن المركزي للمدينة، الذي كان سيبتلع الدفعة الأخيرة من الموقوفين قبل أن يتسنى لهم الهرب، ذلك السجن الذي غذته خيالات البسطاء من الناس بالدماء حتى كاد يشبه قلاع العصور الوسطى حيث تمارس جرائم قتل شنيعة بحق السجناء، وتصر الكرامة الإنسانية من دون أسباب معروفة. وبعد أن تبيست مفاصله بفعل الخوف والوقوف الطويل، بلغت الشاحنة مفترق طرق يؤدي إلى مشارف المدينة فتنبه البعض منهم إلى ضجيج أبواق السيارات التي تمّ مباغته أصحابها بمسار الشاحنة المسرع، ثم اجتازت عربة الجنون المفترق الأخير بحركة سريعة وعشوائية في اتجاه الطريق الصحراوي.

\*\*\*

لم يتذكر سعدون، بعد مرور أيام طويلة على هذا التاريخ.. وهو يتأمل الضباب المتصاعد من قذح الشاي الموضوع أمامه في المنزل، التسلسل المنطقي للأحداث التي تلت وصول الشاحنة إلى المنطقة النائية في عمق الصحراء. كانت ذاكرته معبأة بخزين من الرمال التي عقرت أقدام رفاق الشاحنة ومذاق ركلات بنادق العسكر التي كانت تدفعهم إلى حلقة الموت، ثم لكنه نائب العريف اللزجة وهو يتلو الحكم المتعجل وأصوات أزيز الرصاص التي أعقبتها.. رائحة العرق والدماء.

لم يكن ذاك الحلم على مقاسه أبداً.

كان قد تسنى له تلك الليلة الخروج والابتعاد عن الحلقة المدماة، بعد أن سكن هسيس الموت وتلكأ أصحاب البساطيل في العودة لإتمام مهمتهم ودفن الجثث في الحفرة ذاتها. خرج سعدون من الحفرة وغادر حدود الكابوس، ليعود ببساطة إلى منزله في المساء خالي الوفاض، فلم يكن يحمل -كعادته- كيس الخضراوات التالفة ونصف الدجاجة.

لم تلاحظ الأم أي تغيير في ملامح الولد، عدا أن ملابسه في هذه الليلة كانت متسخة أكثر من المعتاد. ذهب سعدون لتوّه إلى السرير ونسي أن يستبدل قميصه الملوّث ببقع الدماء الممتزجة بالعرق والطين، وسرعان ما غرق في نومه حتى تمّدد صوت شخيرته مثل بالون حلزوني فأصاب بشظاياه غرف المنزل المجاورة ليقض مضجع العجوز المسكينة، التي استغفرت ربها ودعت لهذا الولد (الوكيح) بالهداية.

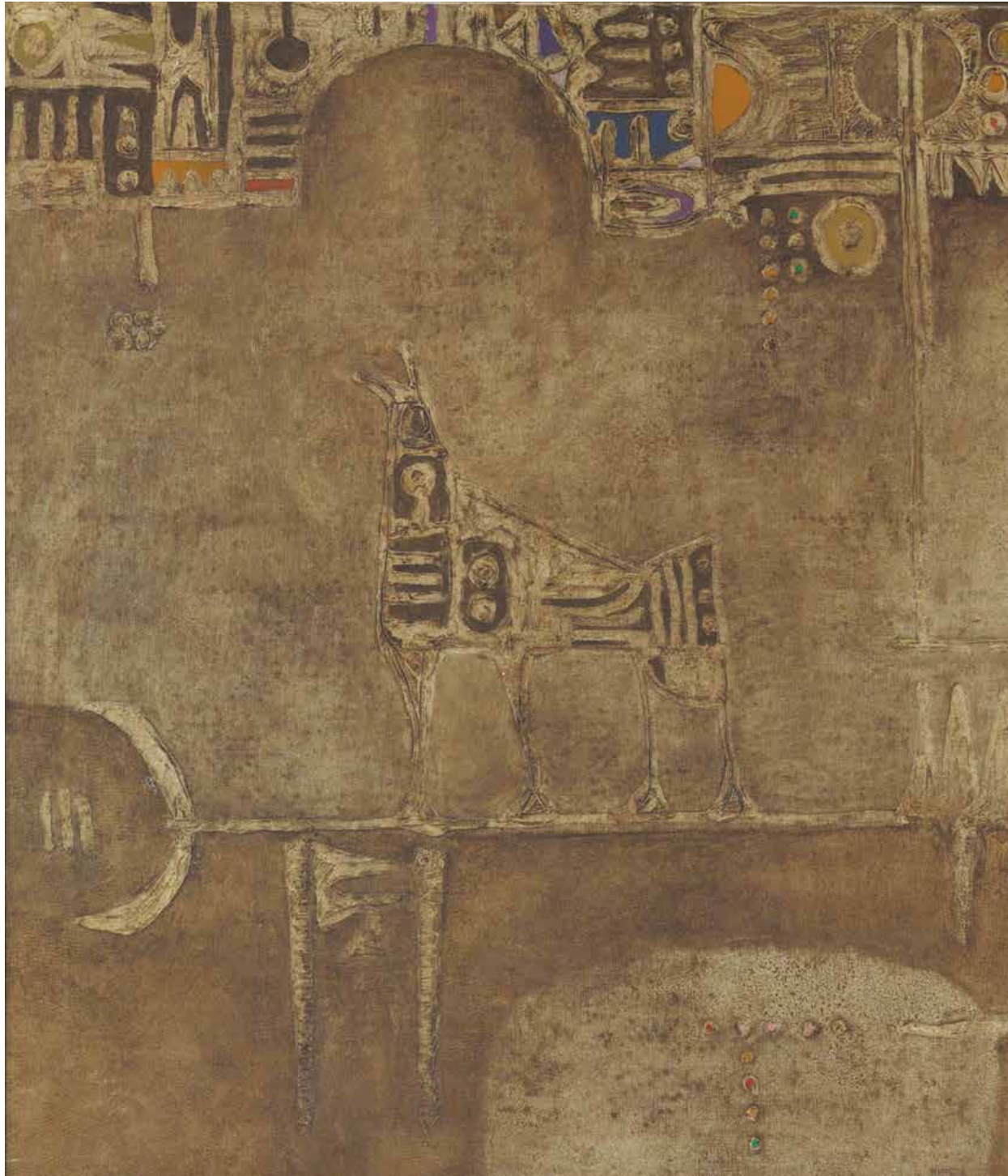
ضياء العزاوي



## تفاصيل فقط

### يحيى السعيدى

صيا، العزاوي



أي شيء آخر سيء يمضغه طفل يزحف. كلهم واضحون، غارقون في القهقهة، وهم يغمسون أصابعهم بوحل رخيص جداً. هذا مقطع طولي من يومي يتكرر كل مرة، نسخة مشوهة التفاصيل لأوقات ماتت ولم تدفن بعد، في حضرة بؤسها الباذخ، استنشاق مرارة مؤكدة الملامح، لا طائل من التوقف أو قول كفى. كما لا جدوى من الغمغمة أثناء اكتراء عبث بارد.

النساء قطعان شاردة تصلح للمضاجعة، وتصلح أيضاً كفيلم سينمائي ناجح، ربما يتلأأ البطل في لحظة المشهد الساخن مبرراً فعله بأن النهايات المطلقة هي أجمل بالطبع. لا يعرف لم كتب هذا الجزء، لكنه لم يهتم كثيراً، بعدها غادر سرب اللاواقع، فتحررت نوازع داخلية للخروج إلى حيث «الجماعة»، طبختهم السياسية لم تكتمل بعد، تأجل الاجتماع إلى وقت غير معلوم، لكن بنيوية موضوع البحث مازالت قائمة، إذ هم إزاء مراجعة شاملة لأساليب التبشير السياسي، واستبدال بعضها بهزّ لمراكز الأزمة كما تهزّ صديقتهم «الكاولية» بطنها. كان هذا اقتراحه بالذات، لاقى لغطاً بين مؤيد ومعارض، إلا أنه نجح أخيراً في جعلهم يلتفتون إليه لأول مرة منذ أشهر.

عادت له «سولة» التفلسف الزائد: سعيد بولادة الحدث الأصغر، وإن كان قيصرياً. العالم لم يعد يطيق نسخاً مكررةً من الكوارث. أغلب الذين يعانون من ثقل السمع -وأنا منهم- ابتهلوا إلى الله أن يكون ذاك الحدث فاتحة خير لحياتهم عبر تكديس كرات اللهانة في غرف النوم. أخرجه من سبات الاحتدام وقتها معترض حقود، أراد أن يخرجه أمامهم، شخّص سبائته وهو يسرد تفاصيل تلازم الممكن السياسي مع الواقع المرئي؛ مستشهداً باقتران الظلمة والضوء تلازم حاجة وأثر. الغثيان بدأ يسري في عروقه، يكاد يلتقمه بتلذذ. اكتفى من «البحلقة» في الصورة التي أمامه، القائد الوسيم الذي نذر عمره من أجل الجماعة، وسع دائرة آمالهم واشتهاءاتهم، وجعلهم يرتدون -إلزاماً- بدلات داكنة وأربطة عنق حمراء في كل اجتماع، غير ذلك فهو لم يفعل شيئاً سوى إرهاب المسامير بصور ساذجة.

الشعور بأنه إصبع زائد في جسد أيدلوجياتهم بدأ يتفاقم، رئة مخرومة، رأس فارغ، جسد مجوف،

أنا الآن في غير موقعي، الاتجاه مغارة تبتلع يقيناً مكسور المجداف. تعوّد أن يكتب خواطره مستنّة الحواف على قصاصات ثم يهملها مثل سكير قديم. هكذا يزدرد ما تبقى من يومه تحلباً على مؤخرة صارمة مرت من أمامه، أو نهدين متوحشين سدا عليه الطريق، أو حتى كلمة بذينة مثيرة تختبئ تحت طي ذاكرته المبلولة. يقتطع من وقته ورقة، أي ورقة، يقبل بعلبة السجائر خاصته تكون رحماً لتزواج كاثوليكي مع الكلمات، يرص القلم - الرفيق- في ضلع ما تبقى من «سيلفون باكيته». أخالني سألد الآن، المخاض يخرم الجهاز الودي لدماعي فيحتجزه رهن المداعبة.

لم أكمل سرد تفاصيل ألمي لتذهب أيها المحتقر! العذراء التي أعجبها توقيعي، أرادت تذييلاً على نهدها! كنت قد طلبت منها أن تتزوّجني متعة. أتعرف ماذا قالت؟ بصقت في وجهي.

يستمر نهاره في هدنة مع ليله، في غالب وقته يكون هادئاً، مسالماً، ميالاً إلى سكب ترهاته قرب أي بالوعة، لكنه يصير أحياناً متمرداً، رعديداً وحتى غير منصف مرات أيضاً. كان ذلك إذ طلب منه زميله رأياً في فائدة «الولدان المخلدون»، انبثق من صلبه مارد كاسر، تذكر الولد المليح الذي ذهب ضحية صديقه، بعد حادثة ابتدأت بمزاح وتحرش ثم اغتصاب ودماء. تسيل من مؤخرة غضة جداً، وقتها أجبر نفسه على التقيؤ، ابتلع سبائته بالكامل ليخرج قيح سنين من العادة السرية. لن أضمن لنفسى رتبة أدنى من التي احتكرتها تلك الوسوسة الناعمة، فوقعتني داخل بيت من كارتون بلا نوافذ حتى، أكتفي بحفنة هواء متسخ، وقضمة آمال زائفة.

إذا أردت أن تنصحنى بالصبر انصح، لكني سأنتهز أول فرصة لأقول إنك تكره الرئيس. امتلأت خزائنه بأعقاب السكائر والتفاهات عينها المكتوبة بحروف منتفخة.

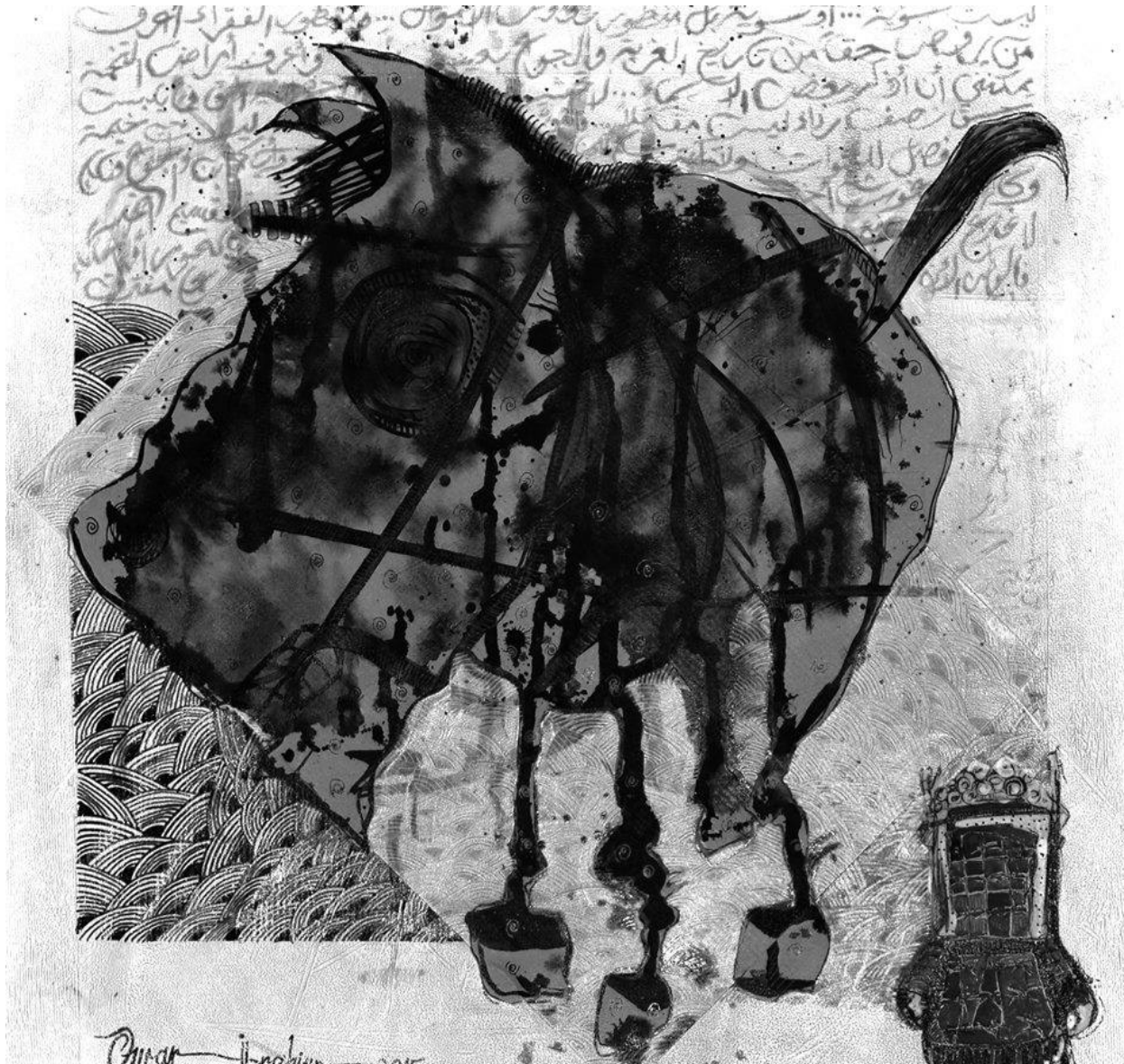


# السرد والهيمنة الأبوية

## التفكر في حراثة المفاهيم

هشام الماحوزي

عمر إبراهيم



قاهرة تمثل هوية الأيوبيين أو أحدهما، أو بشكل أكثر دقة -استيهاماتهم (fantasm) وتطلعاتهم- تلك الهوية المهمشة التي تمثل الذات يخبرنا عنها إدوارد سعيد في كتابه «خارج المكان» الذي سرد فيه طفولته ومراهقته وعلاقته مع أبويه قائلاً «ثمة موضوعان ضامران في كتابتي هذا الكتاب، أولهما: انبثاق ذات ثانية كانت مدفونة لمدة طويلة جداً تحت سطح خصائص اجتماعية غالباً ما تُكتسب بواسطة العادة والإلزام وتنتمي إلى تلك الذات التي حاول أهلي تركيبها، وأعني بذلك 'إدوارد' الذي أحدث عنه

لتعلم أصول الحراثة (التفكير والنقد والخيال الخلاق) ولم يكن له الخيار في بذر البذور فنتج عنه محصول (مُستزرع) لا ينتمي إلى (طبيعة ذاته)، محصول يحمل هويةً وخصائص مختلفة عن خصائص الابن (المزارع الأصلي)، ومع أوان موسم الحصاد سيكتشف الفرد (الابن/ة) مع مضي الزمن أنه يحمل هويتين، هوية تخصه بذاته مخفية ومغطاة من قبل الهوية التي شكلها الأيوبيين أحدهما أو كلاهما، هما هويتان تنازع كل منهما الآخر، هوية مكبوحة تمثل الابن، وهوية منتصرة ظاهرة عينية

إن هذه حقوق معترف بها، بينما تلك الموازية لها لم تزل حقوقاً مغيبة متوارية وفي عداد اللامفكر عنه. \* (انظر كتاب الباحث والناقد السوري إبراهيم محمود في حديثه عن غلواء هذه الأيديولوجيا في علاقتها مع الجسد الأنثوي في كتابه: الشبق الفحرم؛ أنطولوجيا النصوص الممنوعة- رؤية للنشر والتوزيع، ط2، 2016).

ما حدث في مثال الحراثة والحقل أنه لم يُنح هناك المجال لنمو علاقة طبيعية بين الحقل الخصب والمزارع صاحب الحق في حقله (الابن)، لم يتم التمهيد للابن

كل فرد مجبول على الحرية. وبما أن المسارات الأبوية التي تفرض على الأبناء -أيًا تكن أهدافها حسنة النوايا- فهي على الضد من اعتناق الفرد مفاهيمياً، وتحقيق ذاته بعيداً عن الظل الأبوي الذي أحاطه. والمقصود بالمسارات الأبوية هنا هو الحمولة المفاهيمية التي كونها الأب عن الحياة والوجود واشتباكات الواقع مع الفرد والتي تسيل إلى لاوعي الابن خلال فترة القيمومة الأبوية، مشكلة نظرتة الأولية (أي الابن) لأبسط أموره اليومية والمعيشية. سيكون السرد العضوي المرتبط بذات الإنسان والنابع من ذاته لا المفروض من الخارج هو الوسيلة التي بها تُخبر الذات عن حالها في خضم صراعها مع الحياة والواقع، في محاولة لتحرير محل النزاع بين الرغبات المفروضة وإرادة الفرد وحريته.

لا تشكل الهيمنة الأبوية ومحاولة كسرها مجرد محاولة عبثية للتمرد والإنكار، بل هي أحد أشكال ردّ الجميل والبرّ للرعاية الأبوية عبر الخروج من النسق الذي رسم حياة الابن طيلة فترة نضجه، خروج من هذه الشرقة يمثل المنعطف الأول لكبح جموح طموحات الهيمنة التي لا ينبغي لها أن تمتد لتحيل صورة الابن مسخاً أو صورة تكرارية لاستيهامات (fantasm) وطموحات الفهمين غير المتحققة، وروح العصر التي طبعت وصبغت النزعات والرغبات والميول الأبوية النفسية والفكرية والحالة المزاجية، واستزراعها في أرضية بكر خصبة (أرضية الابن) لجبر آمال لم تستطع تحقيقها الهيمنة الأبوية إبان شبابه، وقد يكون للمفارقة أن يكون العصيان الفكري أقصى تجليات البرّ وردّ الجميل عبر تحرير النوازع العقلية والخيارات الشخصية وذائقة الفرد. هكذا تمرّد وعصيان إذن غير موجه إلى ذات الأب بما يمثل كرمز للكيان الأسري، وإنما هو تمرد موجه نحو تلك الاستيهامات التي يرغبها الأب ولا تنتمي بالضرورة إلى

رغبة الابن وهواجسه وميوله الذاتية. إذن وكنتيجة مقابلة لهذا العصيان يكون الانغماس في الهيمنة الأبوية (الهيمنة هنا هي ما تمثله النزعات والميول الأبوية ونظرتها للحياة وطريقة قراءتها وتعاطيها مع الواقع) شكلاً مفزَعاً من أشكال العقوق، حيث تكون الملكة العقلية وملكة النقد معطلة في ظل الاستمرارية في الكنف الأبوي مع تفتق الوعي وإمكانية الخروج إلى الأفق الأرحب الذي تُمارس فيه الذات المفكرة رسم خياراتها، وتقييم مسارها وفقاً للملكة العقلية التي كانت في حالة ضмор ولن يكون بمقدورها النمو طالما كانت تلك الملكة غير مفعلة وخاضعة لهيمنة علوية ما.

### الحقل الخالي

يمكن تشبيه العلاقة الموجودة في ظل الهيمنة الأبوية بين الأب والابن بمثال الحقل الخصب من جهة والحارث أو المزارع من جهة أخرى حيث يضاهي عقل الابن وتاريخه حقلاً خصباً لكنه غير ذي زرع، حقلاً ذا قابليات متفاوتة وقدرات مختلفة في انتظار استكشافها



هنا بين الحين والآخر. وثانيهما: هي الكيفية التي أدّى بها عدد متزايد جداً من المغادرات إلى زعزعة حياتي من بدايتها الأولى.

يحلل الناقد العراقي عبدالله إبراهيم الطبيعة السردية لكتاب سعيد أنف الذكر عند حديثه عن علاقته مع ذلك المحض الأبوي الذي نشأ فيه إدوارد سعيد وما تحكيه سرديّة سعيد هنا تتقاطع في الكثير من جوانبها مع نوعية العلاقات القائمة بين الأب العربي وابنه وإن اختلفت حدتها فيقول «رسم سعيد المحض التربوي الأبوي الذي اختلق شخصيته وهو محض خُزب البراءة الأولى وشئت السوية الطفولية حينما أخضعها لمعايير أبوية معدّة سلفاً فلم يكن المهم أن ينمو طفلاً على البدهة ويتفتح مكتسباً خبراته بالتدريج من الوسط الأسري والاجتماعي، إنما ينبغي عليه أن ينمو ممتثلًا لشروط تلك المعايير الجاهزة وما كان مهما أن تنمو له شخصية خاصة، إنما أن ينصاع إلى سلسلة لانهائية من الرّوادع والنواهي. وبهذه الطريقة اخترعت شخصيته وتحدّدت علاقته بالأمكنة التي عاش فيها، .....» (انظر: السرد، والاعتراف، والهوية - عبدالله إبراهيم-المؤسسة العربية للدراسات والنشر-ط 2011).

#### العادات والتجارب

في ظل ثقافة ترسخ مفاهيم مثل إحياء التراث والأخذ بتجارب الآباء وحكمتهم في الحياة وأسبقيتهم، يتم نكران حق الأبناء-بطريقة ضمنية لا تصريحية- في خوض تجاربهم وتشكيل وعيهم من التجربة عوضاً عن التقليد وركوب سيرة الآباء الأولين، أو كما في عبارة إمبرتو إيكو الطافحة بالدلالات «..... قوة التقاليد أكثر أهمية من التجربة الفعلية».

(انظر:On Literature-Umberto Eco-Vintage books,edition 2006).

الأمر كذلك يصبح من الصعوبة على الأبناء كأفراد أو الشباب كجيل تحقيق ذواتهم ورغباتهم والحصول على استقلاليتهم، يحدث ذلك في ظل كون الآباء في أيّ مجتمع لديهم عادة سيئة ألا وهي شرعنة آرائهم عبر إحالتها إلى خبراتهم، مراكمتهم (accumulation) لتجارب حياتية ملموسة، والتي بديهيّاً هي أكثر مما راكمه الشباب، وشرعنة الآباء لتجاربهم في الحياة وخبراتهم بها يتم عبر سرد قصصهم، والتي تصبح بحكم الأسبقية كالقدر المسلّط الذي يجب على الأبناء مسايرته، وما أن يحدوا عنه سوف تتم إحالتهم عليها لإثبات صوابية الآباء وخطيئة الأبناء في بحثهم عن الجذّة ومحاولة تشكيل قصصهم ومروياتهم (انظر:Walter Benjamin-Selected writings, volume 1:1913 Cambridge, University press).

#### العصيان مصدراً للاختلاف

لا تمكن ممارسة الحياة بطريقة آلية كالتي توجد في إعدادات التشغيل لجهاز كهربائي ما، كما أن التجارب والخبرات الحياتية لأيّ فرد ما هي لصيقة بالمحيط الاجتماعي والحالة النفسية والبيئة الجغرافية والنزعات والميول الذاتية، فهي ليست وصفات جاهزة يتم من خلالها صقل الذات وملكانها. هناك فقط مصهر الحياة الذي فيه يكون الوضع الطبيعي الذي منه تستقي الذات تجاربها ومنها تخوض وتشكل وتقاسي مساراتها وفيه تصهر شخصية الإنسان وكيانه عبر اكتساب التجارب الشخصية الحسية والذوقية والعقلية، تلك التجارب هي التي ستصوغ ذاتاً مختلفة، ذاتاً هجينة بعيدة عن التكرار والتقليد.

#### زراعة الذات

لا نقاش هنا حول مقاصد تلك الهيمنة، لكن محلّ النقاش هنا تجليات وآثار

تلك الهيمنة التي لا يمكن كبجها بمجرد إرجاعها إلى القصدية (intentionality) الأولية للهيمنة مقابل غض الطرف عن تجلياتها وآثارها التي تترسّخ وتترسّب في وجدان الابن، ولهذا تعد الكتابة السردية الشكل المضاد للرغبات الأبوية، هي الخطوة الأولى لكتابة مسار مختلف، مسار ينبع من الذات بالأصالة، كتابة لم تُملَى من قبَل سلطة عليا تمارس القيمومة على الذات وصياغة المتن الحياتي لها، إذن هو السرد الذي يشكل أداة فاعلة أولى يستطيع معها الانبثاق ومعاينة الذات، السرد الذي يروم ذلك الجوهر الذي جُبلت عليه الذات وغيّبت عنها- الحرية-، سردٌ يمارس فعل المقاومة ضد(الرغبات الأبوية المناسبة خلال فترة الهيمنة) ويزيحها ليحل محلها مرويته التي ستكون الوجه المرآوي لتطلعاته ورغباته ودهشته وانعكاساً أصلياً (authenticity) لكنونته المتفردة، حيث نستشف أن مبادرة الذات لأخذ زمام سرد كينونتها هي وظيفة حيوية طبيعية-بيولوجية- من الخصائص التي تتصف بها ذات فاعلة واعية لتاريخها وكيفية تشكيله ونشوءه ورسم ملامحه خلال مسار الحياة اليومي، بينما عندما تكون الذات مسرودة لا ساردة-مفعولاً بها لا فاعلة- فهي حالة باثولوجية (pathologic) مرضية لا تتواءم مع خاصية الذات الحرة التي تعي أهمية نفسها. لهذا إن كان للسرد وظيفة بيولوجية كما يقول أرسطو ألا وهي رواية قصة ما «فإن تلك القصص التي نرويها هي الطريقة الرئيسية التي بها نضفي معنى على الأشياء سواء عبر التفكير عن حيواتنا كتنطور يؤدي إلى مكانٍ ما أو عبر إخبار عما يحصل في العالم» (انظر: Literary theory, A very short introduction - Jonathan Culler Oxford University Press).

كاتب من السعودية



# الطيش والغياب

## في حال النقد الروائي العربي

### هيفا نبي

حين كتب سارتر مقاله الصادم «ولن أقول اللاذع كما قيل آنذاك» ضد فرنسوا مورياك بعنوان «السيد مورياك والحرية» سببت كتابته تلك فوضى كبيرة وألماً لمورياك الذي رغم جمال وشهرة أعماله الأدبية إلا أنه لم يكن يزل بعد ضمن الخط الكلاسيكي للرواية. كان الأمر صامداً بسبب ما جاء في نص المقال من رفض ونسف كل البنية التحتية لأدب مورياك ولكن وخاصة بسبب أن سارتر لم يكن بعد سوى كاتب صغير غير معروف في الوسط الأدبي، بينما مورياك في أوج مسيرته الأدبية التي كانت قد ابتدأت منذ 1909.

**في** تلك المقالة التي لا زالت تحتفظ ذاكرة المهتمين بها بالعبارة الشهيرة فيها «الله ليس صاحب موهبة فنية، مورياك ليس كذلك أيضاً» انتقد سارتر سيطرة مورياك على شخصياته الروائية وعدم اعترافه بحريتها في خوض تجاربها الخاصة بعيداً عن خالقها مورياك، فكتب «هل تريدون أن تحيا شخصياتكم الروائية؟ اجعلوها حرة إذن». هذه الحرية ليست كلمة تقال بالنسبة إلى سارتر بل قضية حياة مقابل الموت الذي يرى سارتر أن رائحته تنبعث من أفضل الأعمال النفسية الأدبية.

ما انتقده سارتر بشدة في أعمال مورياك وخاصة في روايته «نهاية الليل» هو نظرة مورياك الإلهية لكائناته، نظرة العالم المطلق بالكون وخفاياه. فالروائي هنا هو من يقرر، من يرى داخل وخارج شخصياته، من يرى ظاهر وباطن أجسادها ونفوسها، من يصنف ويشرح ويطلق أحكاماً، وبالمختصر من يتصرف بأنانية تجاه عالمه الروائي. إضافة إلى أن كل تلك الوسائل ما هي إلا تشييء للكائنات الروائية التي يتوجب عليها أن تبدو حية وحرّة في أفعالها لتكون مقنعة للقارئ. وتعدى الأمر إلى اعتبار سارتر

كلام مورياك ككلام الكتاب المقدس بالنسبة إلى المتدينين وهو ما كان أشد إيلاً على مورياك. ما انتقده سارتر في مورياك وبعده كان نقداً للتراث التقليدي للرواية خاصة بعد اجتياح الأدب الأميركي من دوس باسوس ووليم فوكنر لفرنسا واستخدام تقنياتها الروائية من قبل غيرهم من الروائيين في الغرب. تلك الضجة التي أحدثتها هذه المقالة المنشورة في (NRF) شباط/فبراير 1939 جرّت الكثير من الجدل حول أحقية سارتر أو أحقية مورياك. فمن انضم إلى صف سارتر اندفع نتيجة اعترافه بمبدأ الحرية التي هي أساس التجربة الإنسانية للإنسان والعمود الفقري لأعماله الإبداعية. ومن وقف في صف مورياك دفاعاً عنه فقد اعتبر أن تلك الطريق التي سلكها مورياك هي طريقته في التعبير وليست بالضرورة خطأ تقنياً، مضيفين فيما بعد إلى صحة آرائهم الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها سارتر نفسه في أدبه الروائي ومنها إخضاع أدبه في سبيل بث أفكاره وتوجهاته الفلسفية (كما قال عنه كونديرا لاحقاً). كما اعتبر آخرون أن انتقاد سارتر لمورياك هو نوع من محاولة

بعد. ما كان هو حدثٌ مرٌّ وعَبْرٌ ولكلا الفريقين استحقاقاتهما العابرة للزمن والواضحة لحاضرنا نحن. لكن ما بقي لنا أو ما كان الأكثر رسوخاً هو الدفع القوي للرواية بجرحها ذلك الجرح الذي ارتكبه سارتر وعانى منه مورياك. في ذلك الجدل تشكلت حلقة نقاشات لا تنتهي، لكن كلها نقاشات تصب في مصلحة الرواية، ومن أجل هذه المصلحة بالذات كان يجب على أحد ما أن يتكلم. كان يجب على أحد ما أن يتكلم إذن! وتكلم سارتر. لكن من يتكلم هنا والان في عالم الرواية العربية (أو المكتوبة باللغة العربية)؟ من ينظر للرواية على أنها ميراث تجب الغيرة عليه لدرجة حمايته وليس التشجيع على ممارسته فحسب؟ من يقنع المتخوفين من الانتقاد والنقد أن تطور الرواية لا يقف عند حد وأن جمالها يعني تجديدها على الدوام وأن أي فكرة تطويرية صغيرة يمكنها أن تحدث فرقاً كبيراً في الثراء الأدبي الروائي بمجمله. في عالم الرواية العربية (الرواية وليس

الشعر) لم نزل نفتقد الأصوات التي تنتقد عملاً روائياً بنية دفعه إلى الأمام، وهذا لا يعني بالضرورة أن الآراء غير مكتملة في الأذهان بل إن التصريح من الصعوبة بحيث أن كل ذي رأي يبتلع رأيه ويقوّي نفسه على الإنصات والسكوت بدل أن يقويها على النقد والارتقاء في المغامرة. إضافة إلى أن كل نقد يجب أن يصحبه تفريق بين النقد كفن وبين المديح والذم كطيش لا أدبي. سؤال النقد اليوم، كما كان على الدوام، هو قضية بناء. لا يمكن لشيء إنقاذ الرواية وتدعيم بنائها ودفعها إلى الأمام وإزالة الشوائب العالقة بها سوى النقد ونظرياته، خاصة مع صعود الروايات المسبّسة بشكل مخيف وتوفّر الخلفيات الجاهزة لكتابة الروايات في متناول كل يد. مهمة النقد الأدبي العربي لفن الرواية لم تزل خجولة، فخارج التأثير الملهم من النقاد الغربيين وخاصة الفرنسيين في القرن العشرين لا نكاد نرى أي

اتجاهات مثمرة وفاعلة. كما أن العناية بالنقد الروائي كفنٌ بحد ذاته تكاد تكون معدومة، فلا جلسات نقدية مدعمة إعلامياً، ولا مؤتمرات دورية خاصة به ولا جوائز للكتابات النقدية البارزة (إلا ما ندر) ولا ترجمة وافرة للأعمال النقدية العالمية إلا القديم منها مع تطبيقاتها في مجال الشعر أكثر من الرواية. بعد سنوات طويلة صرح مورياك بأن توقّفه عن كتابة الرواية كانت بدرجة كبيرة نتيجة الصدمة التي خلفتها مقالة سارتر ضده فقال «إن واحدة من رواياتي تم إيذاؤها من قبل سارتر، الذي لم يكن كاتباً شاباً فحسب بل كذلك فخر جيله كاملاً». سيعترف الفُساء إليه بمكانة المسيء إذن، وسيبقى لنا نحن -القراء والمتذوقون للفن الروائي- فهم المبتغى من الصراعات النقدية التي لن تتوانى عن الاعتراف بذلكنا، فتقديم الأفضل لنا على الدوام

كاتبة وأكاديمية سورية مقيمة في ألمانيا

علاء شاري







## إسفنجة الكلام

محمد ميلاد

لم يكن شاعرا جوالاً أو شاعرا غنائياً أو تراثياً أو مجدّداً،

بل إنه لا يعتبر نفسه شاعرا أساسا، هو الذي لا يَجْرُؤُ على التلفظ باسمه حتى ولو كان عارياً...

لكنه داس سهوا إسفنجة الكلام، ولم ينفجر من مسامّها سوى الصمت. في رُعاء القتلى خبأ عظامه ولم يعرف كيف يجدها، ربما لم يَفْطَنُ إليها وقد تحوّلَتْ إلى رماح لا تصيب. استبدل اسمه بمرآة مشروخة ليتلصّص منها على وجهه، وأفرط في التلويح بيده حتى استحالت جناحا،

وبما أنه لم يكن يحلم بالطيران، أخذ يراوغ الغيوم ورنين الكلمات. كان من السهل عليه أن يسرق جُمْلَه المعطلة في مجرى الحدّس من زهرة ذابلة أو نهر نصّب قبل أن يبلغ البحرَ ويَصْفِقَ دَقَّتِي كتابه... لكنه عندما أُرْهَف سمعه للأرض يتأكل جذوعَ أشجار بعيدة،

محا سطوره كي تظلّ راعفة في صدره، ثم اندسّ في غليان موجة لا تصل إلى مكان.

### السَّمَامَة

(السمامة واحدة السّمائم: هي ضرب من الطير كالخطّاف لا يُقَدَّرُ على الوصول إلى بيضه؛ وعليه قول العرب «كلّفتني بيضَ السّمائم» أي ما لا يكون أو لا يُسْتَطاع) [المنجد في اللغة والأعلام]

ما إن تنبثق من السماء تُجَقِّلُها الأرضُ ولا تعرف كيف تؤوب. لا تُرى إلا عابرة، عبورها خاطف، كأنها سهمٌ ترافقه قوسه، لكن إلى أين؟

في رحلتها لا يعيقها طيرانها عن النوم أو السّفاد، ولا تحتاج إلى ذكرياتٍ تستعيدها في زعيقها. تتشرّد في الجوّ بلا موطن فهي لا تعرف كيف تخطو برجليها الصغيرتين على التراب، لكنها قد تحط فجأة على شجر في الخيال، كأنها الزمان!

### الجذور

مثلما يتقدّم البياض الظاهرُ في أصل الظفر، تتقدم الجذور في التراب بصمت، لتقتات من الظلام البكر كالديدان، تحفر تحت الأسبجة وتلتفّ حول كل ما يعترض سبيلها ناسجة بخيوطها التي تستدقّ حتى تغدو كالشعيرات شبكاتٍ من المحال الكشف عنها دون أن تُفصّ بكارثتها.

لكنها من فرط امتدادها قد تصبح جذاميرَ فتتية عن جذوعها بحيث لا تُمَيِّز بدايتها من نهايتها... تحاول عبثاً أن تتذكر مركزها، فتجرّر معسكراتها على السواحل وفي الوديان والمستنقعات وتفتحم المياه كاشفة عن رُكَبِها المتورّمة لا يُغويها سوى جَسّ الطين اللين من مكان إلى آخر، لا تعرف هل هي تبحث عن نبض الأرض أم نبض الماء.

ما إن تتلمّس مَجَاسّها طريقا حتى تتحوّل عنه خشية أن تتشابه، لا تشغلها على السّطح حتى الفروع، أمّا الأوراقُ فلا يَضِيرُها أن تتكرّر بما أنها آيلة للسقوط. من الصّعب أن يُشْفَى الشعراءُ من فتنة التشبّه بجذور الصّبار التي لا يَرُويها عطشٌ فلا تورقُ إلا أشواكا بلون الأظفار التي تنبثق من اللحم.

ومن فرط انبهارهم بأشكال الصّباريات الغريبة: مثل القامات اللّحيمَة الشائكة بأطرافها أو المبتورة الأطراف، والصواري العالية التي تتوسّط أوراقا طويلة تنتهي

بنصال سُود،

والأكفّ الثخينة المتلاحمة

بأصابعها المزهرة التي ستستحيل ثمرا، يعتقدون أنها آلامهم الغائرة وقد تجسّدت... أما زارعو صّباريات الأصص فغالبا ما يَكونون من هواة استعراض المشاعر المصطنعة...

وبما أنه يتعذر تدجين الصّباريّات الكبيرة، تُساق بعض أنواع الشجر إلى الحواضر عنوة لتصطف في الشوارع، إنها تمدّ طوعا أغصانها للتشذيب، أما جذورها فهي قويّة أحيانا إلى درجة أنها تفجّر الأرصفة تحت أقدامنا. سأترك نباتَ الفطر وشأنه فهو بلا جذور، فضلا عن أنه سريع التّلف خلافا للطفيليات التي تستبسل جذورها في حين أنها تمتصّ نسجَ نباتات أخرى، ولنبات النّجيل الذي يذهب ذهابا بعيدا ويصعب استئصال عروقه بكاملها.

ليس من الحكمة الاستخفاف بالطحالب التي تنفرش كالْبُسْط على سطوح البيوت وعلى الأحجار وجذوع الأشجار، فرغم أنها لا ترفع رؤوسها في الهواء، ولا تتشبث بجذور حقيقية قد لا تكون سوى هلوسات، إلا أنها تفتت حتى الصخور بما تفرزه من الأحماض، كمثّل الصّد الذي يتأكل الحديد، وتظلّ مستديمة الخضرة، لا تموت ولا ترتفع، كأنها لم تولد أصلا... قد لا تكون الكلمات في النهاية سوى طحالب!

شاعر من تونس



## نهاية الإنسان

مريم الساعدي

أشعر بالمرض، بذلك الوهن في الروح من شدة البشاعة في هذا العالم. بالكاد أقوى على حمل الجسد للنهوض وبدء الأيام في كل يوم. كيف أستيقظ في الصباح وأستمع لصوت العصافير والأغاني المحببة على روائح الخبز الساخن والقهوة المحمّصة، وأتأمل في حفيف ورقة شجر، كيف أفعل ذلك وقد وصلني للتوّ خبر عن انفجار في مدينة مكتظة بالسكان، عن إعدام جماعي لشبان تحت أنصال السكاكين الحادة، عن سيوف اخترقت أكباد أطفال بعد أن فُيدت أيديهم وأرجلهم، عن قتل فتيات صغيرات عقاباً لذهابهن إلى المدرسة، عن رصاصات اخترقت أجساد نسوة وأطفال وعجائز لانتمائهم لفئة دون أخرى من البشر، عن أشلاء تناثرت في مقهى بعد أن اطمأن زوّاره للحياة فاستراحوا إلى كوب شاي ليشرّبوا بدلاً من الشاي دماءهم وشظايا الزجاج. كيف يعيش الإنسان بشكل طبيعي، كيف ينهض خفيفاً مقبلاً على الحياة وهو يستقبل في كل صباح أخبار التوحش وقد تخطى كل منطق وكل حدود.



ملف

## إدوارد سعيد ثلاث محطات

يضم هذا الملف ثلاث مقالات عربية تقرأ وتستعيد تجربة إدوارد سعيد (1935-2003) في ضوء أعماله وسجلاته الفكرية، بعد أربعة عشر عاماً على رحيله الذي تحل ذكره في هذا الشهر. المقالة الأولى لخلدون الشمعة «إدوارد سعيد وثنائية الأنا والآخر». وهي دراسة متعمقة للكيفية التي تحولت معها القراءة الاستعمارية للآخر إلى ثنائية إثنية تنهض على مقدار من الاستعلائية الغربية نحو الآخر متعدد الأوجه يلبي في المحصلة فكرة القوة والإخضاع. المقالة الثانية لسعد القصاب «استعادة صورة ملتبسة بين مفكرين» تسترجع وتستجلي السجل الذي دار بين المفكرين صادق جلال العظم وإدوارد سعيد حول نظرية الأخير، انطلاقاً من النقد الذي قدمه العظم لأفكار إدوارد سعيد تحت عنوان «الإستشراق معكوساً». المقالة الثالثة لحسونة المصباحي «إدوارد سعيد والأحكام المتجنبة» تستعرض كتاباً صدر مؤخراً في باريس ويضم ثلاث حوارات أجرتها مع سعيد مابين الثمانينات والتسعينات مجالات أنغلوساكسونية يعيد فيها المفكر الفلسطيني بلورة أهم الأطروحات التي اشتهر بها، والمتصلة بالإستشراق والإسلام وعلاقة الشرق بالغرب، والمنفى اللغوي والجغرافي ■

قلم التحرير

**البارحة** ذهبت إلى السينما، فيلم «سوبرمان في مواجهة باتمان»، قلت لنفسني: أتسلى في فيلم سخي، وربما أضيع في إثارة الحركة والصورة، والله وحده يعلم كم كنت بحاجة لأن أنسى نفسي، فإذا بذلك المخلوق البشع الهائل التي تخيلته عقليّة صناع الفيلم للشيطان يثير في نفسي مشاعر التقزز المقيتة التي لذت بصالة السينما هرباً منها. أخرج من السينما وأنا أشعر كم أشتاق للحياة العادية، للأيام العادية، حين كان أسوأ خبر يصلنا وفاة جار في التسعين.

أكثر ما نستيقظ عليه هذه الأيام أخبار قتل وتفجير وحروب وإرهاب وذبح وخطف. لذلك صرت أنام كثيراً؛ من يريد أن يستيقظ على هكذا عالم؟ نعم، وجدت الجريمة على مدى التاريخ الإنساني، ولكن ليس بهذا الشكل المنظم المكثف المستمر على مدار الساعة، وكأنها العمل الرسمي والهواية العادية للبشر. وكأن فتيلة الإحساس، تلك التي كانت تجعل الجاني يتردد قليلاً قبل الإقدام على ذبح طفل، قبل أن يضغط على زر قبلة تحرق المدن العامرة والقلوب النابضة والمشهد الحي للأيام، تلك الفتيلة التي تجعل العين ترمش واليد ترتجف ولو للحظات، في إشارة إلى ضمير يتعذب وندم إنساني يصارع، قد انثزعت في الإصدار الجديد للإنسان الحديث.

كاتبة من الإمارات



# إدوارد سعيد وثنائية الأنا والآخر

## خلدون الشمعة

نقد إدوارد سعيد لمشروع «الاستشراق» وعلاقة الأنا بالآخر، يمكن اختزاله في استعارة «المانوية» الثقافية التي طرحها عبد الرحمن جان محمد في محاولته تطوير فكرة جنينية لفرانز فانون تؤكد على الطبيعة الضدية في ثنائية النور والديجور، وهي الثنائية التي سبر من خلالها عملية «الشيطنة» التي يتعرض لها الآخر باستمرار.

### هذه

الاستعارة هي بمثابة مفهوم مفتاحي يحتل موقعاً مركزياً في النقد الذي يطلق عليه مصطلح «نقد ما بعد الاستعمار» (post colonial criticism).

ولعل من المفارقة القول أن إدوارد سعيد الذي يعد من أبرز مؤسسي هذا الضرب من النقد الذي تأخر الاعتراف المماسس به كمنهج مؤثر في البحث حتى التسعينات، لم يتطرق إلى مصطلح «نقد ما بعد الاستعمار» بالذكر في أي من كتابيه «الاستشراق» الصادر عام 1978 و«الثقافة والامبريالية» الصادر عام 1993.

ولكن من المحقق أن «الاستشراق» هو في المآل الأخير، العمل الذي دشّن ظهور هذا الضرب من النقد التعددي المنزع Interdisciplinary بمقارباته التي تمتح من معين أنظمة معرفية تسعى إلى سبر المركزية الأوروبية وإمالة اللثام عن دورها في صناعة الآخر.

ولاشك في أن استبصارات «فوكو»، وفي طليعتها تشديده على نفي براءة المعرفة، واعتبارها وثيقة الصلة بمفهوم السلطة، قد أسهمت بنويماً في بلورة أطروحة نقض مؤسسة الاستشراق وتحديد معالمها المنهجية وتفكيك استراتيجيتها المعلنة والكشف عن غاياتها المستترة.

فهذه الأطروحة تحدد قبل كل شيء المدى الذي يمكن أن تعد فيه معرفة «الآخر» أو

«الشرق» الذي اخترعته أوروبا وروجت له، مجرد كيان أيديولوجي مصنوع، نشأ وترعرع على نحو ملازم لنمو الكولونيالية، فأصبح ماثلاً على المستوى الأنطولوجي باعتباره خطاب كينونة جوهراي يكرس أسطورة الطبايع الثابتة من جهة، وعلى المستوى الإستمولوجي باعتباره حصيلة معرفية لدراسات تصدر عن نزعة مركزية أوروبية متجذرة من جهة أخرى.

وبهذا المعنى يمكن القول أن الكتاب لا يدور حول الثقافات غير الغربية بل حول تمثيلات الغرب لهذه الثقافات وبخاصة نظام الاستشراق الذي أقيم بواسطة أنظمة معرفية متعددة كفقّه اللغة والتاريخ وعلم الإناسة والفلسفة والأركيولوجيا والأدب.

ويكشف سعيد كيف أن صناعة الآخر «الشرق» أو أسطرته بواسطة النصوص الأدبية والثقافية، هي التي عززت طرق وأساليب النظر إليه وأسهمت بالتالي في إدارة جهاز السلطة الكولونيالية، يقول:

«هذه النصوص قادرة ليس على خلق المعرفة فقط، بل الواقع الذي يبدو أنها تصفه. وبمرور الزمن تنتج هذه المعرفة وهذا الواقع تراثاً، أو قل خطاباً على حد تعبير فوكو، لا يكمن حضوره المادي أو أثره في أصالة مؤلف بعينه، فضلاً عن كونه الخطاب المعتمد في النصوص التي تصدر عنه».

2

ويحتاج سعيد في عرضه لأطروحة «الاستشراق» التي تدشن نهجاً جديداً غير مسبوق في دراسة «الكولونيالية»، بالقول ان تمثيلات الآخر و «الشرق» تحديداً في النصوص الأدبية الأوروبية، وأدب الرحلات، والكتابات الأخرى، هي التي عززت فكرة الثنائية الضدية الجوهراية الطابع والتي تكرر مفهوم القطيعة بين الأنا والآخر على المستويين الأنطولوجي والإستمولوجي.

كما يبين كيف احتل مفهوم القطيعة موقعه المركزي في تكوين الثقافة الأوروبية، وتمكن بذلك من تعزيز الهيمنة Hegemony بالمعنى الذي يطرحه «غرامشي».

هكذا يبدد سعيد دخان الهالة المحيط بمفهوم «المعرفة» وموقعها من تراتبية الدرس الثقافي الأوروبي، فتبدو الخطوط التي تفصل بين ما هو أيديولوجي وما هو موضوعي متداخلة يصعب تمييزها. وحتى في الحالات التي تتشكل فيها العلاقة بين الأنا والآخر في إطار من علاقة يتعايش فيها الحب والكراهية Ambivalence تجاه الشرق، كما هو الشأن في أعمال ريتشارد برتون مترجم «ألف ليلة وليلة» ورباعيات الخيام، فإن التحيز الأيديولوجي كما يراه سعيد، يبدو معنعاً في ممارسة عملية إقصاء البحث

أسامة النصار



الموضوعي باستمرار.

واللافت ان ترجمات برتون التي كان يحشوها بالعبارات الجنسية المكشوفة التي يعبر بواسطتها عن الكبت الذي كان يعاني منه المجتمع الفيكتوري، لم تلبث أن صارت جزءاً لا يتجزأ من وصفه الوهمي لكيان أيديولوجي مصنوع هو الشرق، يكتسب ملامحه من إستمولوجيا الاستشراق التي لا بد أن تمر عبر مصفاة ثقافية متحيزة، تؤكد على أن «دراسة» الشرق ليست موضوعية، بل هي على حد تعبير إدوارد سعيد: «رؤية سياسية لواقع يعزز بنيته الاختلاف بين المألوف (أوروبا، الغرب، نحن) وبين الناشئ (الشرق أو الآخر)... وعندما يستخدم الباحث مقولات كالشرقي والغربي باعتبارها نقاط البداية والنهاية في التحليل والبحث ورسم السياسات العامة... فإن الحصيلة هي حدوث استقطاب يصبح الشرقي بموجبه أشد شرقية، والغربي أشد غربية، فيضع

ذلك حداً للتلاقي بين مختلف الثقافات والأعراف والتقاليد والمجتمعات».

وهذا الاستقطاب أو الثنائية الضدية كما يراها سعيد، ضرورة جداً في عملية تصور الذات الأوروبية لنفسها في مواجهة الآخر الشرقي. ذلك لأنه لو كان الشرق المُستعمر غير عقلاي فإن معنى ذلك أن يصير الأوروبي هو العقلاني. ولو كان الشرقيون همجاً وشهوانيين وخاملين (حسب خطاب الاستشراق) فإن أوروبا ستبرز بالمقابل، باعتبارها الحضارة القادرة على ضبط شهوات أبنائها الجنسية والانتصار لقيم العمل الشاق على حساب عادات الكسل والخمول. بل لعل القول إن الشرق يتسم بالثبات والجمود هو الذي يعزز القول بأن الغرب متحول باستمرار. وهكذا تكشف هذه الثنائية الضدية عن مانوية ثقافية ذات طبيعة جوهراية، يصير الشرق فيها مؤثلاً لكي تتمكن أوروبا من لعب دور الذكر المتسم بالفحولة.

3

هذه المركزية الأوروبية يمكن إدراجها ضمن نزعة أشمل منها هي المركزية «الإثنية» ونعني بها الميل إلى الحكم على خصائص الحضارات الأخرى من موقع المجموعة الإثنية التي ينتمي إليها المراقب.

وغالباً ما تكون الأحكام الثقافية (الحضارية) التي يسفر عنها هذا التقويم للآخر سلبية إلى حد الحط عمداً من شأن الثقافات المغايرة.

وبهذا المعنى فإن المركزية الأوروبية تصبح شكلاً من أشكال هذه المركزية الإثنية، تنطلق من فكرة تكريس أوروبا مركزاً للعالم، وتعد ثقافتها متفوقة على الآخرين تفوقاً على مستوى الكينونة.

ولعل من أبرز الأمثلة على الفكر الذي تتحكم فيه النزعة المركزية الأوروبية زعم «هيجل» أن أفريقيا لا تشكل جزءاً من تاريخ العالم، وزعم ماركس بعده





بسنوات أن الهند ليس لها تاريخ وان من مآثر الاستعمار البريطاني أنه سيدخل شبه القارة الهندية في التاريخ الأوروبي. بإلغاء التاريخ المغاير إذاً، توفر النزعة المركزية الأوروبية للمستشرق فرصة اللجوء عن وعي أو لاوعي إلى كل ما يراه من السبل لإلغاء الآخر المغاير وترسيخ سلطته عليه.

وبهذا الإلغاء الذي يبدأ بحق القوة ليتحول إلى قوة الحق، يضفي المشروعية على تصوره للآخر، ويظهر هذا التصور باعتباره حقيقة ثابتة على مستوى الكينونة. ولعل من أبرز مؤشرات المركزية الأوروبية كما يبين خوسيه راباسا أن خارطة العالم التي رسمها الرحالة والجغرافيون الأوروبيون أكدت أن هذه القارة هي مركز ومصدر المعنى الحضاري فضلاً عن المعنى المكاني للعالم بأسره.

فهؤلاء الرحالة هم الذين يطلقون الأسماء التي تروق لهم على مختلف بقاعه، وبالتالي فإن الاسم الجديد يكتسب دلالة الخلق من عدم.

ويمكن القول إن فكرة أوروبا التي تمثل وحدة حضارية جامعة مانعة تمثل مركز العالم وتدل على تفوق المركز على الأطراف، وفقاً للتصور الاستشراقي، تبلورت واكتملت في بريطانيا خلال القرن الثامن عشر. وقد تعززت هذه الفكرة على نحو تزامن مع نجاح حركة الاكتشافات الجغرافية والاستعمار والتجارة وما رافق ذلك من رسوخ السلطة الفكرية والمؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات التي أنشأها المركز الأوروبي في الأطراف، فتمكن بذلك من إحلال القيم الأوروبية محل القيم المحلية.

وقد كانت صناعة «شرق» مغاير للغرب، يمتلك خصائص عنصرية تتسم بالثبات والاستعصاء على التغير، إحدى نتائج الأنثروبولوجيا الثقافية الاستشراقية التي كشف عنها إدوارد سعيد الذي انطلق من فكرة علاقة شرعية المعرفة بالقوة، مبرزاً

خطل مفاهيم شائعة مثل: «العقل العربي» و «النفسية العربية» و «العقلية العربية» وغير ذلك من المصطلحات الجوهرانية التي تصطنع نقاط المغايرة اصطناعاً وتفسد البحث الذي يزعم لنفسه نشدان الموضوعية.

#### 4

هذا التحليل القائم على سبر العلاقة الجدلية بين مفهومي الغرب والشرق، مستمد من تفكيكية دريدا، وبالتحديد نقده لمفاهيم «المركز» و «الهامش» و «الأنا» و «الآخر». ولهذا فإن سعيد يحاجج بالقول إن «هامش» الشرق يسهم في تحديد «مركز» الغرب. كما يرى أن «الآخر» الشرقي ليس سوى انعكاس لوجهة النظر الغربية التي صنعته. ومع ذلك لا يتردد سعيد في انتقاد تركيز دريدا الشديد على بؤرة لسانية تكاد

تدور في حلقة مفرغة.

كما لا يتردد في التصدي لأطروحة الناقد البريطاني ماثيو أرنولد(1822-1888) الذي يعتبره ليونيل ترلنغ: «المؤسس الحقيقي للنقد الحديث في العالم الناطق بالانكليزية».

ففي كتاب أرنولد «الثقافة والفوضى» تلعب الثقافة دور الكابح لانتشار الفوضى. غير أن سعيد يدلل كيف أن الثقافة لا تكبح جماح الفوضى بل تعمل في خدمة الإمبريالية. وأما الاستراتيجية التي يطورها من أجل الكشف عن النزعة الإمبريالية في النصوص التي يشتغل عليها فيلخصها مصطلح «القراءة الطباقية» Contrapuntal reading وقد ابتكر سعيد هذا المصطلح المستعار من الموسيقى بهدف الكشف عن ملابسات النزعة الإمبريالية الثاوية وراء نصوص تنتمي إلى الأدب الانكليزي. وهو يقترح قراءة تستجيب للنص المقروء بحيث تكون طباقاً له، أو قل لحنأ ملازماً (بلغة الموسيقى) يضاف إلى اللحن الأصلي. وهكذا يتمكن الناقد من إمطة اللثام عن أبعاد كانت ستظل مستترة وراء النص. إن قراءة رواية «مانسفيلد بارك» لجين

أوستن، قراءة طباقية، هي النموذج التطبيقي الذي يقدمه سعيد من أجل اكتشاف مدى اعتماد الطبقات العليا في المجتمع الانكليزي على المزارع التي كانت تملكها في جزر الهند الغربية لتحقيق حياة الرفاهية التي ترفل بها، وبالتالي إبراز قضية استغلال الشعوب المستعمرة وطرحها على بساط الجدل.

وهكذا فإن التأكيد على العلاقات الفرعية Affiliated الكامنة وراء النص المقروء، وأصولها المتجذرة في الواقعين الاجتماعي والثقافي، بدلاً من علاقات القرابة Filial التي تربطها بالأدب الانكليزي نفسه، وبالقيمة التي تمثلها في العرف الأدبي السائد Canonicity، هي التي ستتيح للناقد فرصة اكتشاف الملابسات الثقافية والسياسية الثاوية والتي لا تتكشف للقارئ منذ الوهلة الأولى. وبهذا الصدد يقول إدوارد سعيد في «الثقافة والامبريالية»: ما أن نمنع النظر في الأرشفة الثقافي حتى نبدأ عملية إعادة قراءته، ليس على نحو أحادي المعنى، بل على نحو طباقي».

#### 5

آية ذلك كله أن إدوارد سعيد الذي نقض مؤسسة الاستشراق وانهماكها في ممارسة مانوية ثقافية تنتهي بشيطنة الآخر واستقطابه في موقع تراتبي يجعله طرفاً في ثنائية ضدية لا تناظرية Non Symmetric تؤكد هيمنة المركز الغربي على الهامش الشرقي، يرفض أن يكون مشروعه النقدي سياسياً بالمعنى المبتذل لهذه الكلمة.

فهو يمثل نموذجين متباينين للمثقف في إهاب كاتب واحد: نموذج العربي الفلسطيني المكرس لقضية واحدة، ونموذج الكوزموبوليتي الرافض لمصطلح العولمة Globalism بدلالته القائمة على الإكراه، ليقترح بدلاً منه مصطلح الدنيوية Worldliness بدلالته القائمة على حرية الاختيار والانفتاح على العالم والحضور

فيه والانتماء إليه انتماء يكرس مفهوم التبادلية المطلقة بين الثقافات. وهذا يطرح بدوره السؤال التالي: هل ثمة من تناقض بين هذا التكريس لقضية محددة وبين ذاك الانفتاح على العالم!. يقول سعيد في كتابه «العالم والنص والناقد» (1984):

«إذا كان من غير الممكن اختزال النقد إلى عقيدة أو مذهب سياسي حول مسألة معينة، وإذا كان حاضراً في العالم ومدرراً لذاته في الوقت نفسه، فإن هويته تكمن في اختلافه عن الفعاليات الثقافية الأخرى وأنظمة الفكر وطرائقه. إن النقد بريته تجاه المفاهيم ذات النزوع الشمولي، وقلقه إزاء المواضيع المُشْبة، وبُرمه بالمصالح والاقطاعات الخاصة، وبعادات الفكر المتصلبة، يصح في وفاق مع نفسه.. على الفكر أن يعتبر نفسه فعالية تعزز قيمة الحياة وتناهض في جوهرها جميع أشكال الطغيان والتسلط».

هذا الموقف الذي يطرح السياسة من منظور نقدي عقلاني هو الذي يحول دون أن يُختزل النقد إلى سياسة والفكر إلى أيديولوجيا والصوت إلى بوق.

هكذا برز نقد «ما بعد الاستعمار» الذي احتل موقعه كأحد فروع نظرية الأدب وفرض نفسه بقوة في أواخر الثمانينات. وإذا كان كتاب «معذبو الأرض» لفرانز فانون مَعْلماً بارزاً من معالم هذا النوع من النقد فإن كتاب «الإستشراق» هو الذي بلوره ومنحه بعده الفكري المتميز والمصقول.

بل لعل تميزه يكمن في كونه يجادل نظرية النقد في الآداب الغربية، ويفككها بأدواتها المنهجية نفسها. ولا شك في أن التأثير النوعي الصاعق الذي أحدثه الكتاب في نظرية النقد والدراسات الإنسانية عموماً جعل من الممكن الكلام عن نقد يمثل مرحلة ما قبل «الاستشراق» وآخر يمثل المرحلة التي أعقبت ظهوره. فقد كشف عن تمثيل الشرق تمثيلاً سلبياً من قبل

الكتاب الغربيين الذين اعتبروه «الآخر» الصامت الغائب أو العاجز عن تمثيل نفسه. من هنا يخلص إدوارد سعيد (بعد نقضه لأطروحة المركزية الأوروبية) إلى حكم مفاده أن: «التجربة الثقافية بل كل شكل من أشكال الثقافة هو في حقيقته شكل خلاسي».

وبعبارة أخرى فإن الثقافة كما يتصورها، ليست تعبيراً ساكناً بل صيرورة مستمرة مثلها في ذلك مثل الهوية. الثقافة صيرورة تأخذ وتعطي أو تتبادل مواقع التأثير والتأثير مع الثقافات الأخرى. وهي بذلك ترتبط فيما بينها بعلاقة «تتافذ» Permeability وبعبارة أخرى فإن جميع الثقافات وفي طبيعتها الثقافة الأوروبية التي تسيطر عليها النزعة المركزية ثقافات خلاسية. وهذه ليست سمة سلبية تنفي «الأصالة» بل سمة إيجابية تنفي «الجوهرانية». ومن هنا لا يمكن للثقافة الأوروبية أن تزعم لنفسها علاقة تراتبية مع الثقافات الأخرى، أو علاقة تحددها معايير القوة بين مركز مسيطر وأطراف تابعة.

ويبرر إدوارد سعيد أطروحته الحدائية هذه بنقض مفهوم «الأصل» Origin، إذ يرى انه يمكن العثور دائماً على «أصل» أقدم من أي «أصل» تعتبره الثقافة أساساً لها.

وبهذا الاعتبار فإن من الأفضل الكلام عن بداية «Beginning» أو عن بدايات، بدلاً من الكلام عن أصل أو أصول. وتعليل ذلك هو أنه في حين يعتبر «الأصل» مفهوماً بيولوجياً ملزماً ينبغي استبعاده، فإن «البداية» تظل مفهوماً ثقافياً مجازياً قابلاً للاستبدال نظراً لأنه ليس مفهوماً يفرض نفسه بدعوى وجود قرابة محكومة بقانون الحتمية البيولوجية الوراثية.

ويطور إدوارد سعيد هذا المفهوم في كتابه: «بدايات: القصد والمنهج» Beginnings: Intention and Method الصادر عام 1975، أي قبل صدور كتاب

«الاستشراق». فهو يتحدث عن علاقيتين تربطان بين الإنسان والثقافة: العلاقة الأولى تستعير سماتها من البيولوجيا ويطلق عليها مصطلح علاقة البنية Filiation أو قل علاقة الإبن بالأب، ولهذا تكون علاقة وراثية لا خيار فيها.

بل إنها تفرض نوعاً من الحتمية الميكانيكية لورثة التراث لا تسمح لهم بحرية الاختيار. وأما العلاقة الثانية فإن إدوارد سعيد يطلق عليها مصطلح علاقة التبني Affiliation. ومفهوم التبني قائم على حرية الاختيار. كما أن الاختيار بدوره مفهوم حدائي قائم على حرية التصرف. وهو بهذا المعنى مفهوم مجازي أو استعاري. ونتيجة ذلك هي أن الأب الثقافي (المجازي) يحل محل الأب (البيولوجي).

آية هذه الحاجة التي يطرحها إدوارد سعيد بقوة مدعومة بجهاز نقدي شديد العقلانية، أنه يجد نفسه قادراً باسم النزعة الحدائية التي تقترح كوزموبوليتية جديدة، على تضمين مفاهيم مستلة من صميم الثقافة العربية الإسلامية في بحث يخصه لتعريف مفهومه للنقد الأدبي.

وأحد الأمثلة على ذلك تطرقه إلى أفكار لإبن حزم وابن جني وابن مضاء القرطبي والمدرستين الظاهرية والباطنية في التفسير، في دراسة يعقدها في كتابه «العالم، النص والناقد» باسم تبادلية ثقافية حرة.

هكذا تصير الثقافة، أي ثقافة، صيرورة مستمرة، أو تكويناً معرفياً خلاسياً مفتوحاً على أفق تبادلي وتعددي.

وهنا يصبح الأب المجازي (الإستعاري) أباً حقيقياً مشروعاً للإنسانية كلها.

ناقدم سوريا مقيم في لندن



# استعادة صورة ملتبسة بين مفكرين

## جدل التفاضل ما بين المعرفة والسلطة

### سعد القصاب

أسهم المفكر صادق جلال العظم (1934-2016)، في ثمانينات القرن الماضي، في النقاش والسجال الذي دار حول مفهوم الاستشراق الذي أسس له المفكر إدوارد سعيد (1935-2003) بعد صدور كتابه «الاستشراق» (1978) الذي حمل الاسم ذاته. كان أحد تمثيلات ذلك السجال اصطلاح «الاستشراق معكوسا» الذي أوجده العظم، والذي يمكن القول أنه بات يرادف استشراق سعيد، ليس بصفة التضامن لكن بصيغة النقد، ولعديد الافتراضات المعرفية التي قدمها المفكر الأخير في كتابه التأسيسي ذاك.

### «الاستشراق

والاستشراق معكوسا» هو

عنوان مراجعة قام بها المفكر العظم في العام 1980 لكتاب «الاستشراق»، والتي وصفها سعيد في كونها تحليلا «مشغولا بعناية فائقة، ويقدم... وثيقة مقنعة ومثيرة للإعجاب»، لكنها أيضا، لم تلق إعجابا كافيا منه بسبب ما أسماه بقراءة «حرفية جدا، وغير حرفية كفاية». وهو ما اتضح تاليا، من خلال رسائل تبادلها معا، حينما رغب العظم بنشر المراجعة تلك في مجلة «دراسات عربية» والتي كان يشرف على تحريرها سعيد إضافة إلى كتاب آخرين.

دراسة العظم، أو تحليله لجهد إدوارد سعيد، ضمها فصلا في كتابه «ذهنية التحريم».

الاستشراق في نظر سعيد هو شراكة بين النص الخطابي والأرشفيف والسلطة. ويعرفه باعتباره «خطاب منظم، وبناء عليه فإنه معرفة مكتوبة، لكن كونه في العالم وعن العالم مباشرة فهو أكثر من مجرد معرفة، إنه سلطة». الاستشراق، هو كذلك، مؤسسة وحقل دراسات أكاديمية تناهت ارتباطاتها بالمصالح

الاقتصادية والتجارية والسياسية والاستراتيجية للغرب التي اخترقت نطاق الشرق الجغرافي وتوسعت فيه وأخضعته لها، واتخذت مع مرور الزمن شكل توجهات فكرية وأيديولوجية. انطوت على فرضيات نظرية وتفسيرات وتصورات ومن خلال نتاج علمي وفكري، أدبي وسياسي تم التعبير عنه عبر هذه المؤسسة. حتى أصبح، كما يبين سعيد، «مذهبا معرفيا عن الشرق، شبكة مقبولة تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين».

موضوع الاستشراق، الذي بدأ منذ عصر النهضة الأوروبي حسب تحديد إدوارد، وستتم إزاحته من قبله إلى عصر الإغريق، كان يدعي البحث عن حقيقة الشرق أثناء دراسته لمجتمعاته ولغته وثقافته وعقائده. وهي قراءات جاءت بالنسبة إلى المفكر الفلسطيني بصورة أحكام تقويمية تنطوي على مواقف عنصرية وتصورات اختزالية تدعي

تفسير واقعه، كما لا تخلو من مزاعم الاستقلالية الفكرية وموضوعية الحياد العلمي. والنظر إلى هذا الشرق بوصفه صورة ثابتة خضعت لخرافة الطبيعة

الثابتة، لذا هي صورة غير متميزة تنطوي مشهدياتها الرتيبة والساكنة على خصائص جوهرية خامدة وذات طبيعة غير متحولة. ذلك ما جعل الشرق يستبعد عن وجوده أثناء زمنه المديد فكرة التحول حتى أثناء حضوره ضمن شروط تاريخية متغيرة.

رغم ذلك، لم ينتقص المفكر إدوارد سعيد من جهود مستشرقين في مجالات عدة منها تحقيق المخطوطات ودراساتها وجهود ترجمتها التي انبروا لها للتعريف بأهميتها، وعملهم الدؤوب في الاكتشافات الأثرية التي قاموا بها للكشف عن الموروث المادي للحضارات التي سكنت هذا الشرق.

لقد جاءت ملاحظات المفكر جلال العظم بسياق نقدي يفسر إشكاليات عدة خضعت لها تحليلات إدوارد سعيد التي تم افتراضها من قبله بصفة تأكيدات تعبر عن واقع الاستشراق وتساند حقائق ثابتة عنه.

من تلك الاعتراضات التي أعلنها العظم على أطروحة سعيد، اعتبار الفكر الغربي ومنظومة الاستشراق بمثابة خط مستقيم يبدأ من نقطة هوميروس

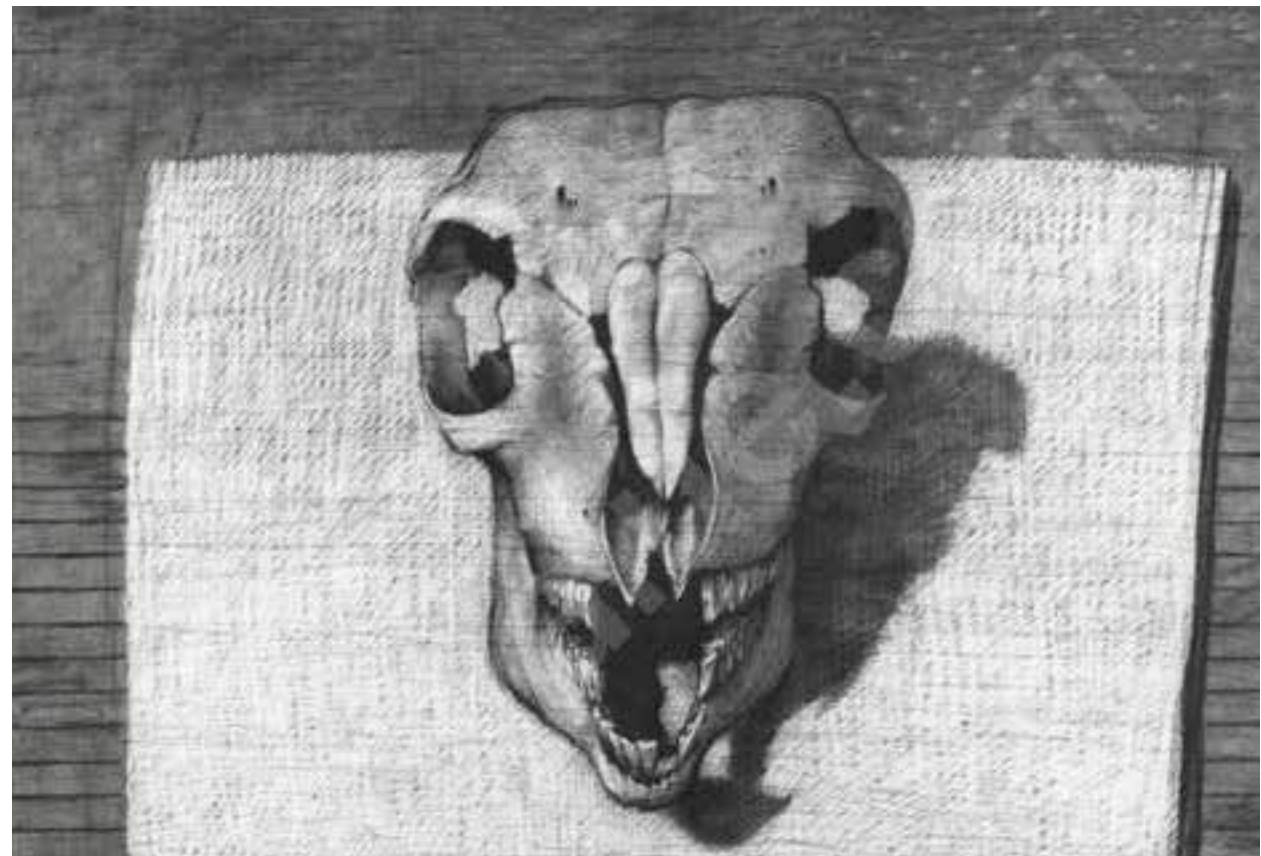
وينتهي إلى نقطة كارل ماركس وكأنه «يتصف بنزعة متأصلة لا يحيد عنها لتشويه الآخر(الشرق) وتزييف واقعه وتحقير وجوده، كل ذلك في سبيل تمجيد ذاته والإعلاء من شأنها وتأكيد تفوقها».

اعتراض كان قائما على عدم القبول، جراء النظر إلى فكر الاستشراق بكونه أداة للتوسع الأوروبي نحو الشرق ومنظومة اهتمامات سياسية واقتصادية واستراتيجية، تم إنشاؤه بأثر تراكم النتاج النصي المعرفي الذي قدمه الاستشراق الثقافي، الأكاديمي، بإطاره المعرفي الخاص، وتحويل الوعي به إلى ممارسة فعلية. أي ما كان وعيا تأمليا لنصوص قد تحول إلى وعي اقتصادي وعسكري وجهاز تنفيذي إداري، والذي أوجد بدوره شخصيات شهيرة، أمثال نابليون بوناپرت، واللورد كرومر وأرثر بلفور ولورنس العرب. وهو

تفسير وطريقة صياغة فكرية، كما يذكر العظم، تمنح «الأهمية العظمى والأولوية الحاسمة لكل ما هو ذهني وخيالي ومثالي وانفعالي وتصوري في مقومات الفاعلية البشرية»، لتحل محل الواقع الخام بمصالحه ودوافعه وتعليقاته الفظة وكأن الواقع بات مادة النصوص ونتاجا عنها.

يعمل المفكر العظم في حوار أخير قبل رحيله «مجلة الجديد، عدد 19»، من أن دراسته «الاستشراق والاستشراق معكوسا» كانت نوعا من التنبيه والتحذير للشرق للمضي في صناعة صورة مشوهة عن الغرب. بذلك يطالب بالرجوع إلى الذات «لنرى ما حقيقة هذا الشرق كما نعيشه ونحياه نحن أولا كشرق وبمعزل عن الصورة التي يقدمه الغرب لنا».

إجابة العظم، في ضفتها الأخرى، ستحتل كذلك التباسا في تأليف الصورة المرتجاة عن الشرق، مرة، أثناء



يوسف عبدالح

تخطيه للنقد الذي وجهه لسعيد، حينما تحفظ على قدرة أي خطاب وصفي كان أم متخيلا، في أن ينشئ واقعا حقيقيا، أي استعادة تمثيلات النص المتخيل والخطاب السردى كمعرفة قابلة على إنتاج الواقع بوصفه حقيقة. ومرة ثانية كيف يمكن لهذه الأحداث المصرية الفاجعة التي تجري في الشرق الآن، والتي بدأت منذ سنوات عدة، أن تتحول إلى مناسبة مهمة لإنتاج معرفة بلغة جديدة عن هذا الشرق، الذي بات متداعيا، وبأسباب مجادلة الغرب من موقع القوة.

استدعاء هذا الالتباس يظهر بأن منظومة الاستشراق لا زالت مشروعا مفتوحا لم يكتمل بعد، حاملا معه أزمة شديدة الالتباس لتلك العلاقة التي لم يؤكد لها التاريخ بعد، والقائمة على جدلية التفاضل ما بين ثنائية المعرفة والسلطة. كاتب من العراق مقيم في تونس



## إدوارد سعيد والأحكام المتجنبة

### حسونة المصباحي

مؤخراً قرأت كتاباً صدر بالفرنسية عن دار «بايو» بعنوان «في ظل الغرب». وهو يحتوي على ثلاثة حوارات مُسَهبة أجرتها في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي مجلات أنجلو-ساكسونية رفيعة مع المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد (1935-2003). وفي الحوارات المذكورة، هو يعيد بلورة وصياغة أهم الأطروحات التي اشتهر بها، والمتصلة بالاستشراق والإسلام وعلاقة الشرق بالغرب والمنفى اللغوي والجغرافي.

كما تحدث إدوارد سعيد في الحوارات المذكورة عن جوانب تتعلق بحياته الخاصة وبالتأثيرات التي فعلت فيه على المستوى الفكري والفلسفي. وهو يقر بأنه عاش دائماً قلقاً واضطراباً بشأن هويته. فهو عربي إلا أنه ليس مسلماً. وقد أمضى سنوات طفولته ومراهقته في مصر دون أن يكون مصرياً. وهو كتب مجمل أعماله بالإنكليزية، غير أنه لا ينتمي إلى الثقافة الإنكليزية. وعلى مدى ثلاثين عاماً درس في جامعة «كولومبيا» بنيويورك من دون أن يكون أميركياً. كما يقر إدوارد سعيد بأن وعيه بمأساة فلسطين، ووطنه الأصلي، جاء متأخراً. مع ذلك أمكنه أن يعرّف بالقضية الفلسطينية في الأوساط الأميركية، وأن يدافع عنها في المنابر الكبيرة متحدياً اللوبي الصهيوني ووسائل الإعلام المتعاطفة مع إسرائيل. ومثلما فعل في كتابه الشهير حول الاستشراق أكد إدوارد سعيد من جديد أن الشرق لم يوجد إلا في أحلام الغربيين وذلك انطلاقاً من القرن الثامن عشر. كما أكد أن الأبحاث والأعمال التي أنجزت حول الشرق لم يكن لها هدف ثقافي وحضاري بحسب ما ادعى ذلك أصحابها، وإنما كان لها دور فعال في تركيز الهيمنة الإستعمارية وتبرير الجرائم التي شرع الغرب في ارتكابها في العالم العربي انطلاقاً من بداية القرن التاسع عشر. ومعبراً عن تشاؤمه إزاء حدوث توافق بين الشرق والغرب قال إدوارد سعيد في حوار أجري معه عام 1996 «أعتقد أن الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد آخر. ويمكن أن أقول بأنه لا يكاد يوجد أميركي شمالي واحد يعرف العالم الإسلامي. فهذا العالم هو بالنسبة إليه بعيد، وصحراوي. وفيه عدد كبير من الخرفان والإبل وأناس بسكاكين بين أسنانهم يقومون بأعمال إرهابية. من ناحية أخرى ينظر المسلمون إلى الأميركيين وكأنهم مهووسون بالجنس، ولهم أقدام ضخمة وبيباغون في الأكل. والنتيجة أن هناك فراغاً عوض أن يكون هناك حضور بشري، وعدم وفاق عوض أن يكون هناك توافق، وتبادل آراء».

مع ذلك يرى إدوارد سعيد أنه لا بد من مواصلة العمل لكي يخف الصراع بين الشرق والغرب وتتقلص الخلافات بينهما لأن في ذلك ضماناً للسلام العالمي. وفي الحوارات المذكورة قدم إدوارد سعيد تحليلاً معمقاً لأعمال أدبية وفنية مشهورة مثل «في قلب الظلام» لكونراد و«الغريب» لألبير كامو و«روبينسون



جمال الجراح

قد يكونا بريئين منها. فالكاتب الحقيقي هو الذي يصوغ الواقع انطلاقاً من تعقيداته وتشعباته، وليس انطلاقاً من أيديولوجيات تزعم أنها تنتصر للقيم الإنسانية السامية ولحرية الشعوب في تقرير مصيرها!

ولا يرى إدوارد سعيد في الاستشراق سوى الوجه البشع للهيمنة الاستعمارية. فلأن كل المستشرقين عملاء لأجهزة الاستخبارات ومستشارون عسكريين للجنرالات والقادة العسكريين الذين غزوا بلدان الشرق. ونحن لا ننفي أن الإمبراطوريات الاستعمارية استفادت كثيراً من أعمال المستشرقين. لكننا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننكر القيمة المعرفية لهؤلاء، ولا أن ننزع عن أعمالهم وعن بحوثهم أهميتها البالغة. بل نقدر أن نقول إن هؤلاء المستشرقين هم الذين وفّروا للعرب فرصة اكتشاف ماضيهم من خلال إزاحتهم غبار النسيان عن كنوز الثقافة العربية في مجال الشعروالنثر والفكر والفلسفة. أليسوا هم من اكتشف القيمة الأدبية العالية لـ«ألف ليلة وليلة»، و«رسالة الغفران»، ولآثار عديدة أخرى؟ أليسوا هم من عرّف بالحلاج وبابن عربي وبكثيرين آخرين. كما أنهم أشادوا بالدور الكبير الذي لعبه الفلاسفة العرب في التعريف بالفلسفة اليونانية. وعليها ألا ننسى أيضاً أن هناك مستشرقين أدانوا الهيمنة الاستعمارية وناصروا نضالات شعوب الشرق من أجل الحرية والتقدم. لذلك أعتقد أن إدوارد سعيد أفرط كثيراً في تقييمه للاستشراق، وأسقط أفكاراً خاطئة على أعمال كتاب كبار من أمثال فلوير وألبير كامو وجوزيف كونراد وآخرين. وكأن لا هدف له من خلال كل هذا سوى إقناع القارئ العربي بأن الغرب لا يمكن أن يكون سوى العدو الواحد والأبدي.

كاتب من تونس

أحيانا عن الفكر في جوهره الصحيح، لينقاد إلى الأيديولوجيا التي غالبا ما ترى غير لونين: الأبيض والأسود، غافلة عن بقية الألوان ومهملة لها. واعتماداً على هذه الأيديولوجيا هو يسمح لنفسه بإصدار أحكام قد تكون قاسية وفتحية وأحادية الجانب وخالية من الموضوعية. وهذا ما تبينته من خلال انتقاداته لكل من كامو وكونراد. فقد أهمل إدوارد سعيد المستوى الفني والأدبي والإنساني لأعمال هذين الكاتبين، ليسقط عليها أطروحات سياسية وأفكاراً أيديولوجية

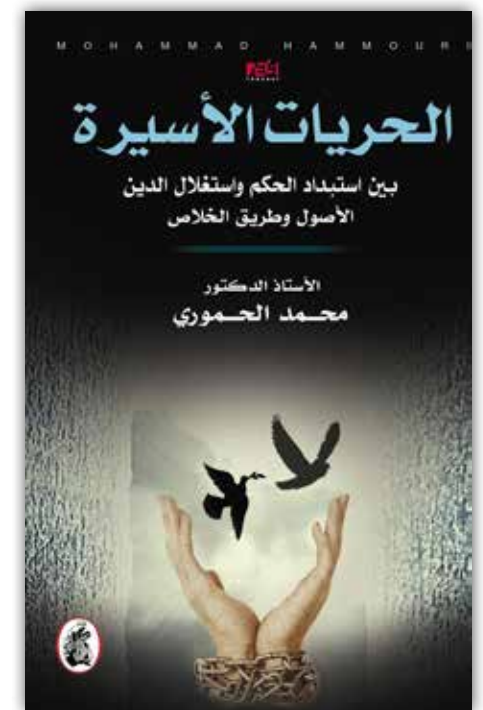
رفضه للقومية العربية في مفهومها الأيديولوجي الضيق، والذي يضيف عليها مسحة شوفينية. كما يبدي نفوره من نظرية «تصادم الحضارات» التي صاغها المفكر الأميركي صامويل هنتنغتون في التسعينات من القرن الماضي، أي في الفترة التي احتدت فيها المواجهة بين الشرق والغرب بسبب الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأميركية ضد نظام صدام حسين في العراق. وما أستنتجته شخصياً من هذه الحوارات هو أن إدوارد سعيد يتخلّى



## الحيات الأسيرة

### بحث محمد الحموري في جذور وتجليات النكوص العربي

نادر سرور



«الحيات الأسيرة بين استبداد الحكم واستقلال الدين- الأصول وطريق الخلاص»، لمؤلفه محمد الحموري هو كتاب موسوعي يتناول واقع الأمة العربية والحال المؤلم والمأساوي الذي وصلت إليه، وأسباب السكوت على استبداد الحكم وتسلبه على حقوق الناس وحياتهم، ومدى أثر التراث والحكم باسم الدين الذي مارسه دولة الخلافة خلال القرون الماضية على قبول الأوضاع الظالمة، حتى في ظل الدساتير التي نصّت على أن للناس حقوقاً وحرّيات، وكيف استمر صاحب السلطة حتى الآن في استخدام الدين لمصادرة حكم العقل والمنطق تبعاً لمصالحه.

**صدر** الكتاب عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت» و«دار الفارس للنشر والتوزيع-عمان» ويقع في 504 من الصفحات، وزعه مؤلفه على فصل تمهيدي بعنوان «مقدمات للدخول إلى الموضوع» وأربعة فصول أولها «الإسلام السلطاني والاستبداد والإرهاب» وثانيها «تزاوج المستورد والموروث وإنتاج المولود السلطوي الغريب فجّر ثورات الربيع العربي» وثالثها «الحرية وديمقراطية الشورى بين الإسلام القرآني وبين فكر الحاكمية وفقه السلاطين» ورابعها «الإسلام بين محاسبة السلطة وعصمة الحكام وما ينبغي أن يعرفه الناس» ثم خاتمة للكتاب بعنوان «مسير من يعاند حركة التطور بعد انكسار حاجز الخوف».

مؤلف الكتاب محمد الحموري، هو بروفييسور في الفكر القانوني والسياسي وفقه الدساتير تخرج من جامعة كيمبردج في بريطانيا ودرّس في عدد من الجامعات العريقة في العالم، وله مؤلفات وأبحاث أغنت المكتبة العربية في مجال القانون والسياسة ومجالات التقاضي المختلفة.

#### المواجهة الفكرية

عرض الكاتب لنماذج من الدول التي حكمت باسم الدين في أوروبا وتغوّلت على الإنسان وكأنه واحد من قطيع يساق وهو صابر على الظلم، ثم كيف بدأت شعوب أوروبا في الانفجار في وجه الظلم منذ ثلاثة قرون واستردّت حقوقها وحرّياتها.

كما عرض الكاتب للكيفية التي تم فيها تسخير الدين في الوطن العربي لخلق منظمات تكفيرية للقتل والذبح والتدمير لخدمة أغراض سياسية، تحالف من أجل تحقيقها السلطان الأميركي مع الأتباع من أهل الثراء والسلطان المطلق في أمتنا، وطرائقهم في إسكات الشعوب والقبول بالذل، رغم أن الكثير من أبنائها تعلموا في دول وعاشوا بين شعوب فرضت الديمقراطية وانتزعت حقوقها وحرّياتها من يد السلطان المطلق منذ أمد بعيد.

ومن أجل تشخيص الأسباب وصولاً إلى علاجها غاص المؤلف في تاريخ دولة الخلافة والفقهاء السلطاني الذي استندت إليها سلوكيات الحكم، ليتبين أن ديمقراطية الشورى التي جاء بها القرآن الكريم كمبدأ في موضوع اختيار الحاكم والحدود التي عليه عدم تجاوزها تم تغييبها منذ بداية العصر الأموي حتى انتهاء الخلافة

داؤد حسن داؤد



السلطاني تم ترويض عقل المواطن في دولة الخلافة وضبط نهجه السلوكي على النحو الذي يقبل فيه بالسلطان المطلق للحكم، ليصبح ذلك جزءاً من التكوين العقدي، وأو الذهني، وأو النفسي لشعب دولة الخلافة.

#### المولود الشاذ

إذا كانت الثورة العربية الكبرى قد أخرجت الأمة من حكم دولة الخلافة العثمانية وقامت بريطانيا وفرنسا بتمزيق أرض الأمة إلى دول ودويلات، فإن الدساتير التي أخذت بها أغلب هذه الدول على النمط الأوروبي ونصت على ديمقراطية وحقوق وحرّيات، لم تجد من يحميها ويفرض تطبيقها، لأن المواطن كان أسير الموروث في تكوينه، فاستمر من يتولى الحكم في الممارسة الفعلية لسلطات الخليفة القادمة من التراث، إضافة إلى ما نصّت عليه الدساتير، وبهذا تزاوج المستورد مع الموروث وأنتج مولوداً سلطوياً شاذاً غريباً لا مثيل له في الماضي وفي الحاضر عند

أيضاً، خطب في الناس ليؤكد أنه يرث الخلافة عن الرسول محمد من خلال جدّه العباس عمّ النبي، كما يورث المتاع، لأن العم يحجب ابن العم علي بن أبي طالب وأنسأله في شرع المسلمين، وأنه رأى في المنام أن الرسول قال له تقدم يا أبا الخلفاء، الأمر الذي أعلن معه المنصور، أنه ظلّ الله على الأرض. وتنازل من ظهر أبي جعفر المنصور 54 خليفة عباسياً، كل واحد منهم أو من الأعاجم الذين سيطروا وأصبحوا يمارسون الحكم باسمهم، كان ظل الله على الأرض. وكان على الناس أن يسكتوا باسم شرع المسلمين. ثم ورثت الخلافة العثمانية ذات النهج العباسي في السلطان المطلق باسم الإسلام لمدة 400 سنة. وعندما عقد مفكرو العقد الاجتماعي في أوروبا خلال القرن الثامن عشر مبدأ الشعب مصدر السلطة عقد الفقهاء السلطاني العثماني مبدأ الشرع مصدر السلطة.

وهكذا، فعلى مدى ثلاثة عشر قرناً منذ العهد الأموي حتى انتهاء حكم الخلافة وتغييب الفقهاء الشرعي الذي يتصدى للفقهاء

العثمانية وحلّ مكانها حكام يستمدون شرعية وجودهم وسلطانهم المطلق كأولياء أمر من الدين. ورغم أن العلماء المسلمين برعوا وأبدعوا في جميع العلوم وأنواع الفكر والمعرفة، إلا أنه كان عليهم في مجال علم السياسة وشؤون الحكم عدم التعرض لشرعية وجود الحاكم وتجاوزاته، فعذب من حاول منهم ذلك ونكل به ليسود بعد هذا الفقه الشرعي السلطاني الذي يجعل جذور الحكم المطلق لصاحب السلطة مغروسة في السماء.

فمعاوية بن أبي سفيان، على سبيل المثال، فرض مذهبه الذي يؤكد أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كم سنة سوف يعيش علي بن أبي طالب وأنه سيموت مقتولاً، ومكتوب أيضاً أن معاوية سيتولى الخلافة وأنه سيورث ابنه الحكم، ومن يعترض على ذلك، فإنه يخالف حكم القرآن ويخرج على شرع المسلمين، وبهذا ساد مبدأ الجبرية طيلة العهد الأموي. وأبوجعفر المنصور، المؤسس الفعلي للدولة العباسية، كمثل



الأمم، وبلغ هذا المولود السلطوي حتى الآن قرناً من الزمان وشعوب الأمة ترزح تحت عبء سطوته، وظلت نصوص تلك الدساتير مجرد ديكورات تظهر أمام العالم الخارجي، ولا شأن لها بالواقع المعيش، إذ السلطة في الدولة، استحوذ عليها رئيسها، ملكاً كان اسم موقعه أو رئيس جمهورية، وحوله عائلته وبطانته، وعلى الناس أن يتسابقوا لإرضاء من يحكمهم والدعاء له بطول العمر، لأنه أصبح مصدر المال والجاه والسلطان، وزاد سوء حال الناس عما كان أيام دولة الخلافة. ومع الأيام، تراكم فقه دستوري سلطاني مضافاً إلى الفقه الشرعي السلطاني يعلي من شأن الحاكم ويجعل المساس به جريمة في الفقه الشرعي السلطاني وجريمة في القانون وفقاً للفقه الدستوري السلطاني الذي أريد له أن يسود وتغفد مبدأ حكم الأشخاص داخل الدولة بدل حكم القانون.

وأمام ما سبق ظهرت الدعوات لإصلاح الحكم وتمثّلت هذه الدعوات في توجيهين، أحدهما مدني يطرح شعار «الديمقراطية هي الحل» والآخر يطرح شعار «الإسلام هو الحل». وتساعد الخلاف والالتزامات بين التوجيهين: المدني يتهم الإسلامي بالرجعية، والإسلامي يتهم المدني بالعلمانية الملحدة، وأفادت سلطات الحكم من ذلك وأخذت أجهزتها تغذّي الخلاف بين الفريقين.

#### المسار المنحرف

يرى الحموري أن الاختلاف بين الفريقين قد استتبع جهوداً منهما جعلت المسار المطلوب للإصلاح ينحرف عن التوجه الذي كان ينبغي أن يسود عند الفريقين معاً. فمن ناحية ليس هناك دولة دينية في الإسلام القرآني إذ كل ما طرحه القرآن الكريم هو مبدأ الشورى في اختيار الناس للسلطة التي تحكمهم. لكن الواقع التاريخي الذي غيّب مبدأ الشورى منع تطوير آليات لاستخدامها في تطبيق المبدأ، وبالتالي

من حق أبناء الأمة أن يعتمدوا ذات الآليات التي طورها الفكر الإنساني في تحقيق الديمقراطية، إذ الشرط القرآني في الاختيار أن يكون «أولي الأمر منكم»، أما كيف يكون «منكم» فالجواب القرآني «وأمرهم شورى بينهم»، والضمير في كلمة «منكم» وكلمة «بينهم» يعود على الأمة، وهو الضمير الشوري الديمقراطي في شرع المسلمين. ومن ناحية أخرى، فإن السلوك الفردي والجمعي في الاختيار/الانتخاب وفقاً للمبدأ الشوري الديمقراطي تحكمه قيم الصدق والنزاهة والاستقامة والعدل



**تحالف من أجل تحقيقها  
السلطان الأميركي مع  
الأتباع من أهل الثراء  
والسلطان المطلق في  
أمتنا، وطرائقهم في  
إسكات الشعوب والقبول  
بالذل، رغم أن الكثير من  
أبنائها تعلموا في دول  
وعاشوا بين شعوب  
فرضت الديمقراطية  
وانتزعت حقوقها وحرّياتها  
من يد السلطان المطلق  
منذ أمدٍ بعيد**



التي استهدف القرآن الكريم زرعها في النفوس والوجدان، وأوجب على صاحب السلطة الالتزام بها، وبغير ذلك فمن حق الأمة تغييره وفقاً لآليات الديمقراطية أيضاً.

#### حكم السماء

لاحظ المؤلف أن هناك حركات إسلامية ظهرت واستقر منهجها ليصبح مذهباً متطرفاً يقوم على أساسه حكم يستمد سلطانه من السماء، ويجعل مخالفة الحاكم خروج على إرادة رب العباد. ورغم أن البشرية تخلصت من هذا النوع من الحكم إلا أنه لا يزال قائماً ينتهج التطرف لخدمة بعض دول الوطن العربي. وهناك نوع آخر من الحركات الإسلامية ظهرت لتكون دعوية لإرشاد الناس إلى السلوك السليم ونشر القيم الفاضلة، إلا أن القيادات اللاحقة فيها حولت طروحات هذه الحركات إلى فكر تكفيري وصل خطره مداه. فالإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، التي أصبحت أكبر الحركات عدداً وتأثيراً، لم يطرح إقامة دولة دينية كما تصوّرها بعد ذلك سيد قطب الذي استقى فكر الحاكمية من المودودي الباكستاني، وكفّر المجتمع واعتبره مجتمعاً جاهلياً، لكن الإمام حسن أراد نظاماً للحكم يستلهم القيم والمبادئ والأصول الإسلامية. وهذه الأصول هي التي عرّفتنا عليها النظم الأوروبية وتحدث عنها الإمام كما يتحدث الأوروبيون، وهذا هو ما يستخلص من رسالته المهمة مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي.

وقد تعمق المؤلف الحموري فاستند إلى الوثائق والدراسات الأميركية للوصول إلى الكيفية التي استطاعت بها أميركا استخدام الفكر الإسلامي المتطرف بالتعاون مع بعض الدول العربية والإسلامية وأنشأت تنظيم القاعدة في أفغانستان، وحشدت باسم الجهاد لخدمة الإسلام أكبر جيش إسلامي، لاصطياد الاتحاد السوفييتي في تلك الدولة، مما أدى إلى هزيمته وانتهيار دولته، وبعد ذلك تخلت أميركا عن الذين جنّدتهم للجهاد وصنّفتهم كإرهابيين. وعندما انفجرت الشعوب في ثورات الربيع العربي حثت أميركا الخطى بالتعاون مع حكام الثراء والسلطان المطلق في أمة

العرب لتتحرف ثورات الشعوب عن مسارها فتتحقق بذلك الفوضى الخلاقة بعد تدمير الدول العربية وتمزيقها، مما يحقق مصلحة إسرائيل من ناحية، ويحقق مصلحة حكام السلطان المطلق في وأد المطالبة بالحرية والديمقراطية من ناحية أخرى.

#### تناسل التكفيريين

هكذا تعددت التنظيمات والأحزاب والحركات الإسلامية والتكفيرية وتزايدت المنافسة بينها، كما تزايد تطرفها واستخدامها للشرع الإسلامي في تكفير الناس، بل وتكفير بعضها بعضاً، وتكفلت الدولة الأميركية وحلفاؤها من دول المال السلطاني بتقديم ما يلزم من تمويلات مالية تشبع نهم قيادتها وتغطية نفقات من يتم توظيفهم من أصحاب الحاجات والمعوزين باسم الجهاد الإسلامي برواتب شهرية عالية، وأصبحت هذه «الشركات الجهادية» أدوات لأنظمة حكم أجنبية وعربية ذات أجندات سياسية تسعى لتنفيذها وتكرار ما حدث في تمويل مرحلة الجهاد الإسلامي في أفغانستان. وكانت المحصلة قتل وتهجير لأبناء الأمة وتدمير لأوطانهم. لكن المستور قد انكشف ولم يعد خافياً ما تم من تواطؤ أميركي وسلطاني عربي ليصبح خير شاهد على ما نقول.

والحقيقة أن من يدرس طروحات هذه المنظمات التكفيرية التي طفت على السطح بحجة إقامة ما تسمّيه الدولة الإسلامية لا يجد لديها فكراً أو نهجاً أو برنامجاً يقيم دولة تتعامل مع معطيات الوقت الحاضر أو تعالج مشكلاتها. وكل ما لدى هذه التنظيمات هو طروحات غيبية عقدية تفسر الآيات المتعلقة بالعبادات والسلوك المرتبط بالقيم وتسخرها لغاياتها السياسية، رغم أن هذه الآيات تتناول علاقة الإنسان بخالقه من حيث كيف ينبغي أن تكون وما هي الجوانب الإيمانية والقيمية، ومن المفروض أن لا شأن لهذه المنظمات بها لكنها مع ذلك تعتقد

أن الإسلام يبيح لها أو يأمرها بفرض ما تعتقده فرضاً على الناس، ولو بقوة السلاح، وبالتخويف بالقتل أو الحرق أو تقطيع الأوصال عند الاقتضاء.

#### الحرية المضطهدة

على النحو السابق فإن حرية العربي لا تزال محل اضطهاد من السلطات التي تحكم، ومن منظمات الإرهاب التي تتوعد وتكفّر عن طريق استغلال الدين. وقد أن الأوان ليعرف المواطن العربي لماذا وصلت أمتنا إلى هذا الحال، وحلّ حكم الأشخاص مكان حكم القانون، ولماذا لم تستطع شعوب الأمة أن تكون مصدراً حقيقياً للسلطة؟ ولماذا لا يزال نهج خليفة المسلمين الذي أسكت الناس عن طريق الاستبداد باسم الإسلام على مدى القرون طاغياً ويلتزم به من يفسرون الدساتير ونصوص الحريات، رغم مضي قرن على انتهاء دولة الخلافة؟

ألا يشكل كسر الشعوب لحاجز الخوف من حكامها إنذاراً واضحاً؟ إن سكوت الناس في الوقت الحاضر على استبداد أكثر من السابق لا يعدو أن يكون استراحة محارب ليس إلا. وإذا كانت «مصر الكنانة» تشكل الرأس والعقل والقائد للأمة العربية، وكانت ثورة شعبها عام 2011، بالمقارنة التفصيلية، أكثر إنسانية وعقلانية من الثورة الفرنسية ونموذجاً فريداً غير مسبوق النهج في سلميته ولا تحاكيه ثورة على مدى التاريخ الإنساني، فإن معاناة مصر الآن، يقف وراءها من لا يريدون الخير لها ولأمتنا، ومن ثم يعملون جاهدين لتدمير مصر وتمزيقها. لقد أن الأوان ليعرف المواطن العربي من يقف وراء ذلك ومن يجتد ويموّل ويأمر بتفجير الكنائس والمرافق العامة ويقتل أبناء مصر؟ إن انكشاف الحقائق في سوريا، باعتراقات أباطرة المال والسلطان المطلق، والوثائق التي أصبحت متاحة لمن يريد أن يبحث ليعرف، تؤكد بوضوح، دور التواطؤ الأميركي مع من يحكمون باسم الدين في

هذا الأمر، وذلك رغم ما نراه من زيارات ومجاملات واستقبال بالأحضان والتقبيل وصدق نزار عندما قال: قبلاّتهم عربية من ذا رأى فيما رأى قبلاً لها أنياب!

#### كسر القيود

لقد أن الأوان لينطلق العربي من عقالة ويكسر القيود المكبلة لحرّياته التي طال أسرها، ومن ثم، ليباشر دوره في بناء أمتة وإعادة مجدها، فلديه من الإمكانيات والقدرات والطروحات ما يحقق ذلك. إن قاعدة اختيار الناس للحكام وقاعدة العدل وقاعدة المساواة وقاعدة أن الإنسان ولد حراً هي قواعد تستوجبها روح الشريعة السمحة وكان ينبغي أن تدخل في وجدان الناس وأذهانهم كقيم كبرى بشأن تنظيم سلطة الحكم. ومثل هذه القيم والقواعد وجدت عندنا قبل أن يولد لوك وهوبز وروسو بأكثر من عشرة قرون. لكن التسلط وقهر الناس على نحو تراكمي فرض على هؤلاء الناس السكوت والخوف، لتخبو معها جذوة تلك القيم الكبرى، وحن الوقت للانطلاق والحقاق بأمم كنا متقدمين عليها لقرون.

وينهي الكاتب حديثه بضرورة ضغط الناس لإقامة أنظمة حكم ديمقراطية تعتمد مبدأ الشعب هو مصدر السلطة، وأما السلطة فيحكمها مبدأ تداول السلطة، وتلازم السلطة والمسؤولية ومبدأ سيادة القانون على الحاكم والمحكوم على حد سواء، فهذه حقوق مقدسة للناس، والحقوق تؤخذ ويفرض احترامها ولا تُستجدى. ومن المنطلقات السابقة كانت المؤسسة العربية للدراسات والنشر حريصة على إصدار هذا الكتاب ونشره لتعميم فائدته لأبناء الأمة وذلك التزاماً من المؤسسة برسالتها.

كاتب من لبنان مقيم في إسطنبول



# صوت الغراب: المسرات والأحزان الفردانية في مواجهة السلطوية

ممدوح فراج النابي



تكشف تجربة الروائي عادل عصمت -على تعددها- الفائز مؤخراً بجائزة نجيب محفوظ التي يمنحها قسم النشر بالجامعة الأميركية 2016 عن «حكايات يوسف تادرس»، فقد أثمرت هذه التجربة خمسة أعمال ما بين قصصية وروائية إلا بقراءة عمله الفائز بالجائزة، عن كاتب يتميز بأسلوب ممتع في السرد، وتمكنه من ضبط إيقاع الحكاية دون زوائد تعوق حركة السرد وتفاعل الشخصيات، وكذلك لغته العذبة المتدفقة كشلال بصور رائقة بعيدة عن التعقيد والتكلف، لكن الملاحظة اللافتة -وهي سارية على عمله الجديد- تتمثل في طغيان حالة العدمية التي صارت عليها شخصياته، وهو ما جعلها شخصيات دوماً هاربة غير قادرة على المقاومة والصمود، وهي صورة سلبية وإن كانت تُرسخ لحالة الضغوط التي مورست على إنسان العصر الذي عجز عن المقاومة واكتفى بالهروب.

**صدر** له مؤخراً عمله الجديد «صوت الغراب» 2017 عن دار الكتب خان بالقاهرة، وهو في الحقيقة لا يقلُّ جمالاً وعذوبة عن عمله السابق، وإن كانت اللغة ومساحات السرد في هذا النص غاية في الروعة، خاصة وهو يغوص في عمق الشخصيات أثناء اختبارها في مواقف الحياة، المهم أن الشخصيات كانت أكثر إشكالية من الرواية الأولى باستثناء البطل المنعزل.

## انهيار عالم الجماعة

تطرح الرواية الجديدة عبر أزمت شخصياتها قضية مهمة تتمثل في أزمة الفرد الناتجة عن الآخر والجماعة التي ينتمي إليها، وهي رؤية مُمتدة في عمله السابق. أزمة الفرد في هذه الرواية ليست نتاج فرديته بل هي نتاج اندماجه في الجماعة؛ فالبطل الرئيسي تبدأ أزمتته من الانهيارات المُتتالية لعالم الجماعة الذي ينتمي إليه؛ فسيرة العائلة تطرح كل فترة فراغاً معوجاً، بدءاً من الجد أصل العائلة مندور البري وما روي عنه بأنه «ضرع وحشاً، كان يمنع الناس من المرور في أثناء الليل إلى بيوتهم» وكذلك غرام جده بدوي بالبنات الضغار في نهاية حياته ثم ما دبَّ «في البيت الكبير من خلافات» انتهت بتأسيس الأب لبيت انتقل إليه، فأول ما فقدته الراوي هو دفء الجماعة، وهو ما كان تأثيره سلبياً؛ فمال من لحظتها إلى الغزلة وبدأ يُحلق بعيداً مُستعيداً طرُقاً من سيرة الجد مندور الذي خلق هو الآخر إلى عالمه دون أن يعرف أحد إلى أين!

يتوالى عالم التحليق مع اختلاف النتائج بدءاً من العفة سعاد التي كانت هي الأخرى تعيد صورة من صور الجد في العشق واللامبالاة بقوانين العائلة، فأحببت ابن أحد العمال في الوكالة، وضربت بكل التهديدات عرض الحائط، حتى وقعت المأساة باكتشاف مقتله أثناء ذهابه إلى الجيش، وكانت مأساتها الشخصية نتيجة تدخلات عم البطل صلاح الذي حال بينهما، وإن كانت اتهمته بأنه هو القاتل، وصولاً إلى النهاية التي انتهت إليها وكان الزاوي شاهداً على طرف من نهايتها. تتكرر أزمت الشخصيات لا فرق بين الرجال والنساء، فابتسام كانت أزمتها في القلق الذي سيطر عليها بعد مقتل أخيها، لكن تشتت أزمتها بعد زواجها من شاب يعمل نجاراً مسلح، تركها وذهب إلى العراق ثم أرسل لها ورقة طلاق، وتم إجبارها على التنازل عن الشقة من قبل إخوته. دفعت هذه الأزمت الشخصيات بلا استثناء إلى الاتجاه إلى الذات لا بغرض التشرد وإنما للتماهي معها والتحليق بعيداً عن عوالم الإخفاقات.

تبدأ الرواية بالبطل (مجهول الاسم) وهو يجترُّ حياته/

عمر إبراهيم



بهذا الطرح كأن الرواية تدعو إلى الفردانية أو التحلل من الجماعة، وإن كانت الفردانية كمذهب يرى وجوده داخل الجماعة فهو جزء، دون التضحية بالفرد في مقابل الجماعة. وهي فكرة وجد الكاتب أنها الحل والبدل لمشاكل وأزمات شخصياته الناتجة عن وجودها في الجماعة. لذا وجد الجميع الخلاص في التحرر، وأنه الحل الأسهل للتحرر من هيمنة الجماعة وإلا وقع الفرد فريسة لأوهامه وأمراضه على نحو ما حدث لبطل الرواية هنا، الذي تتعقد وتتأزم مشكلته ويصبح لا حل لها، حيث يتخيل نفسه يطير بعدما حلَّ عليه الغراب في كل شيء من صوته إلى ملامحه الغريبة

التحليق. لكن ثمة مرحلة يلتقي فيها البطل مع ابتسام، وتصبح ابتسام هي المرفأ الذي يلقي عليه بكل همومه، حتى أنه بعدما تخلص ممّا يثقله، عرف لأول مرة الطريق الذي لم يسلكه في حياته، وكان يساوره قلق وحيرة، عكسه تساؤله «ماذا يفعل لو تركته؟».

لم تسلم خالته خضرة من أذى الآخر فكانت أزمتها بسبب ارتباطها بسومة التي قدمت من القرية وعملت على تعليمها حتى فجأة خرجت ولم تعد. أوهمت نفسها بأن البنت سوف تعود لكن كانت تخدع نفسها، وبعدها انتابه شعور بالقلق من الشقة بادعاء تهيزات فعدت إلى القرية.

مأساته في موازاة ومقاطعة مع حياة عائلته، وهو حبيس غرفته في انتظار حكمهم بإرساله إلى قصّة نفسية أو بمعالجته في البيت تحت إشراف زملاء أخيه محسن الطبيب، سارداً بغنائية تتخللها تأملات عبر التساؤلات لذاته وللقارئ عمّا ود البطل من أحلام التحليق والطيران، وما تبع هذا من مغامرات التلصص على الآخر، فجاءت مرحلة المنظار الذي كان يتلصص به على فتيات المدرسة ثم الجيران، إلى التلصص على عالم نجوم السينما بعدما فتح له توفيق السيد عالماً جديداً بمنحه هدية أصول الأفلام فصارت هديته تُعادل هدية الدّراجة التي كانت نواة حلم





التي لاحظها الجميع، وسببت له رُعباً بعدما أخبرته ابتسام بأنه شاخ.

#### مناهضة الأبوية

على الرغم من أن ثمة أبوية ظاهرة في النص حيث سيطرة الذكورية وهيمنتها على مصائر النساء، إلا أن النساء تمردن علي هذه الأبوية، فسعاد لم يمنعه ردة إخوتها عن الاستمرار في علاقتها بابن عامل الوكالة، واستمرت تخرج تقابله عند الخياطة الإغريقية، وأحياناً تخرج بملابس مكشوفة دون أن تأبه بأحد، وعندما حدثت الحادثة له وقفت أمام الجميع وأعلنت أنها تتهم أخاها صلاح بأنه قتل حبيبها.

وبالمثل مريم التي كان الجميع يخاف تشبيهها بسعاد استطاعت أن تقف للجميع بل وانتصرت لعمتها سعاد، فتمردت على قوانين العائلة وذهبت لتقدم في الإذاعة دون أن تأخذ إذناً من أحد، وعندما أعلنت قرارها بالانتقال إلى القاهرة قامت ثورة في البيت، لكنها وقفت وتحدثت حسن وكأنها تتأثر للجميع.

وبالفعل غادرت البيت واستقلت في عملها. لكن الخطوة السابقة لهذا التمرد هو ما كتبه وكان أشبه بمذكرات لشخص مجهول، عن تاريخ العائلة وتعربة العائلة وسرد حكاية سعاد من جديد. هو بداية التمرد والمواجهة بدأتها على الورق إلا أنها استطاعت أن تُطبقها فعلياً، وقد كان. فصار حسن في النهاية يفتخر بأن له أختاً اسمها يظهر في تحقيقات صحافية. في مقابل الشخصيات الذكورية كانت الشخصيات النسائية أكثر قدرة على المواجهة، وهو انتصار للمرأة، وإعادة المكانة للمرأة التي ترفض أن تكون التابع أو الظل، حتى لو كانت وسائل المقاومة والتمرد تقليدية إلا أنها في النهاية انتصرت وهذا هو المهم.

قدّمت الرواية شخصيات نسائية غاية في الروعة والجمال، بدءاً من العمّة سعاد الغائبة بالموت والحاضرة بسيرتها التي كانت واحدة من التي أكسبت السرد

تراجيديا وذروة وتصاعداً، أو بانعكاساتها على الآخرين.

لعبة الحضور لشخصية سعاد في حكاية مريم جاءت لعبة ماهرة رغم تكرار الحدث، لكن تكرارية الحدث في حكاية تمرد مريم أكسب الحكاية أبعاداً جديدة لم تكن واضحة في السرد الأول، والأهم أنها مروية من شخصية سعيدي حكايتها من جديد وكأنها كانت بمثابة الحافز على التمرد وهو ما كان وتكفي وقفتها أمام أخيها حسن ومواجهته بما فعل مع سعاد وهو ما عجز عنه الجميع.

مساحة مريم السردية كانت صغيرة إلا أن الكاتب استطاع عبر شخصيتها أن يؤكد



**أزمة الفرد في هذه الرواية ليست نتاج فرديته بل هي نتاج اندماجه في الجماعة؛ فالبطل الرئيسي تبدأ أزمته من الانهيارات المتتالية لعالم الجماعة الذي ينتمي إليه؛ ففسيرة العائلة تطرح كلّ فترة فرعاً معوجاً، بدءاً من الجدّ أصل العائلة**



المعنى الذي كان يبحث عنه الراوي وفشل واستسلم لحالته وكأنه استعذب هذه السلبية.

ثمة شخصيات حضرت ودورها انتهى من نصف الرواية كشخصية العمّة وبالمثل سومة، وحالات الاندهاش التي بدت عليها بعد ما رأت المدينة وهي القادمة من القرية، ثم التطور في شخصيتها وتمردّها

دون أن يعرف أحد إلى أين ذهبت، وهو ما سبّب انكساراً للخالة سعت لإخفائه إلا أنها لم تتمكن، فقزرت العودة إلى القرية. وكذلك شخصية توفيق السيد الذي كان حالة هو الآخر للعيش مع ذاته دون أن يأبه بأي سلطة.

أما الشخصية الأهم فكانت شخصية ابتسام التي حزّت السرد من الغنائية التي كانت مهيمنة عليه، ودفعت بالأحداث إلى قمة الإثارة سواء برسم شخصية ابتسام المطلقة والمتحرّرة، تلك التي تبحث عن نقطة الضوء داخلها. ابتسام على الرغم من أنها دخلت أحداث الرواية في منتصفها إلا أنها استطاعت أن تشغل النصف الأخير بحضورها وعلاقتها بالبطل، وإن كان الانفصال بينهما ميلودرامياً، وربما كان مبرزه هو تفاقم حالة البطل النفسية، فبعدها دخل طور الانعزال.

ثمة بعض الشخصيات التي كان حضورها قويا ثم انقطع، مثل شخصية سومة كانت نموذجاً للشخصية الإشكالية إلى أن انقطعت سيرتها بعد هروبها، وبالمثل توفيق السيد، وبالمثل شخصياته الفقيرة منه إبراهيم الألفي الذي أحرز على الدكتوراه.

والشيء الذي لم أقبله أو أستسغه هو أن الراوي المصاب بالمرض هو الذي يسرد الأحداث، بل نراه يعلّق على كثير من المواقف في صورة تؤكد صحتها وسلامته، وهو ما يتنافى مع الحالة التي رسمها المؤلف للراوي.

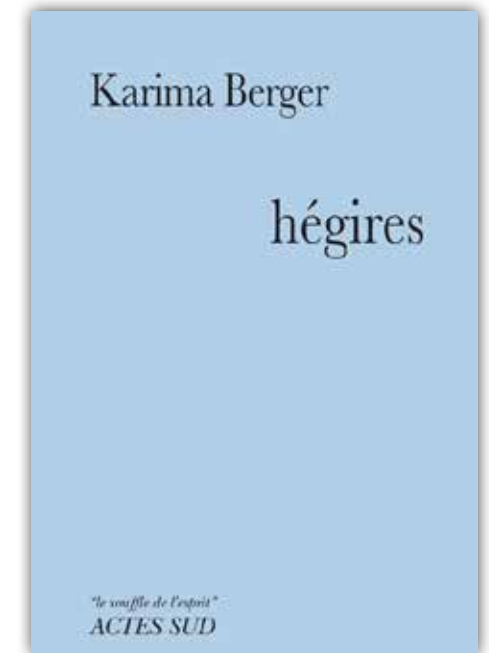
قادّ الفردانية الأشخاص للتحزّر من السلطوية، ونجح البعض لكن يبقى عامل القدرة على التحزّر وكيفية التحزّر دون أن يؤثر على الجماعة هو الفيل، وهو جوهر العمل. سومة تحزّرت وقادت العمّة إلى الضياع، ومريم تحزّرت وقادت حسن إلى الجنون، أما الجدّ مندور البدوي فكانت سيرته في العائلة بمثابة الشرخ الذي يتوارى الجميع خوفاً من إظهاره.

كاتب من مصر مقيم في تركيا



## على آثار المهاجرين من كل عصر «هجرات» لكريمة برجبي

نجم الدين خلف الله



«هجرات» عنوان بصيغة الجمع ورَدَ، ولكنه مُثَنَّى بكل مكوناته تجلّى: تتقابل فيه هويتان، تبحث الواحدة عن الأخرى بلا كلل. تطالعا من جهة أولى الأدبية كريمة برجبي، وبريشتها ترسم مسالك الهجرة التي اتبعتها بحثا عن أنى كوني حقيقي وخالد. ومن جهة ثانية تاريخ حافل تترامى أحقابه من مهاجرة العهود المقدسة، إلى زوارق الموت الفظيعة تحمل البائسين وتنكسر على ضفاف المتوسط.

### ويظن

القارئ، حين يقف على العنوان أو يسمع عنه، أن الكتاب، الصادر منذ شهر عن دار «Actes Sud»، هو سيرة جديدة، قد تكون أدبية للنبي محمد. ولكنّ الظنّ سرعان ما يتلاشى، فالكتاب لا يذكر من هجرة النبي إلا ظرفاً قصيرة، يتجاوزها إلى هجرات سائر وجوه الديانات التوحيدية الثلاث، فيستدعي إسماعيل وأباه إبراهيم، ومعهما موسى وخضره، ولدى كل وجه من هذه الوجوه التأسيسية بحثت الكاتبة عن لحظة الرحيل في المسيرة، فجعلتها بدءاً للملحمة. والجامع بين الهويتين مغادرة الأوطان مكرهة، والسفر من الذات نحوها مشتاقة، قطعاً مع دفء مسقط الرأس، وسعيًا وراء سمو الروح ونصاعة العبارة.

وبالتوازي مع هجرات الأقدمين حَبَرَت الكاتبة جزائرية الأصل صفحاتٍ عن هجرتها هي الراهنة، من أرض مولدها ومنشئها (الجزائر)، قادمة على متن باخرة، عبر الضفة الغربية للمتوسط، لتستقرّ في عاصمة الأنوار، وتتأمل عطشى، على مدارج جامعة السوربون محاضرات العلماء والأدباء، يصنعون الحداثة على مسامعها. وهناك احتضنتها أمها الثانية، والرمز بدهاءة إلى الثقافة الفرنسية ولغة موليار، فأرضعتها لبان الكلمة الحرة ودقائقها، وصارت رديفًا لأمها الأصلية تلك التي زودتها، حين ودعتها، بصندوق سرتها المقطوعة مع رصيد من خرافات الطفولة وأساطير البلد وروائحه.

وبربشة شعرية دقيقة، رسمت في المقطع الواحد، بل في الجملة الواحدة، مشاهد المهاجرين المفجوعين الفارين من سهوب إفريقيا وشمالها، وقد استقلوا مراكب الموت يبحثون عن موانئ الخبز والأمن. فابتلعت بعضهم البحار في امتدادها الموحش، وغاب الآخرون في قلب المدن ومخيمات لاجئها القاسية، دون وثائق ولا ماض.

وكان الرسم/النص يتتابع حسب خطة سداسية محكمة: سَمَت القسم الأول منها «المحن» حيث كانت هجرة الطاعنين ابتلاء ربانيًا، حتى تتجاوز الذات ذاتها. وسمت الثاني «انعطافات» تصف فيه منعرجات الأنا الحاسمة، والثالث «مواقف واستراحات» للحديث والتعبير عن اختلاجات الضمير، والفوالي من الفصول «تحولات»، استدعت فيه غابر الذكرى، وبعده «الإتمام» حديثًا عن تحقق الذات، والآخر «الوجهات»، حيث لم يُقَطع الحبل السري بين الجزائر وباريس.

وهكذا، تتالت فصول الكتاب مثل المواقف والتجليات، لحظاتٍ وخواطر، استجمعت فيها من كلّ جنس أدبي أفضل ما فيه، ونظمته عقودُ سرد، بلا نشاز ولا حيرة،

جوني سمعان



بل سبكة ملساء تسائل قهر المجتمعات الأبوية وضياع الأجيال وعنف التاريخ، وتحفل القارئ مسؤولية السفر إلى حنايا ذاته المتعددة، حتى يجد نفسه ويكون، استجابةً للأمر الرباني: «كن».

وقد بنيت هذه الفصول في قالب حوارٍ، تلقيه شفاهاً امرأة مجهولة إلى «الأميرة الصغيرة»، تعيدها بلطف الوالدة إلى ذكرياتها الغائبة، وتعرض عليها خواطرها السانحة. فانتظمت المخاطبة أحاديث ذات شجون، مع أنها تدور كلها حول الهوية في ترحالها، وآلام الهجرة إلى ديار غير ديارها.

اسم الكاتبة كريمة بارجر، وهو، وإن لم يكن من مكونات السرد ولا من وحداته، يحمل الثنائية العميقة التي شيد النص وفقها، فبني فيه المعنى ثنائياً تقابلياً، فهي كريمة، مَختدّها أصيل، انحدرت من الثقافة العربية الإسلامية، وأتقنت نصوصها الدينية، وغاصت في أي القرآن وكتب الحديث، والسيرة النبوية، وما أحاط بها من تراث تفسيري وتاريخي. ومن هذه النصوص جميعها انتقت شذراتٍ، بقلم صناع، لترفد كتابها هذا «هجرات»، فكان فيه التناص كأجمل ما يكون التناغم: فمن ذاكرة التراث استقت لمعًا من شطحات الصوفية وتغنيهم بالمطلق، وضقت سردها مقطوعاتٍ من قصائد الرومي، ومن فريد الدين العطار

فقراتٍ من «منطق طيره». ومن الراهن، استدعت مشاهد البؤس والتيه في شوارع العاصمة الفرنسية وجسورها، بلهجة المناضلة التقدمية والكاتبة الملتزمة.

وأما لقبها ففرنسي صريح «Berger» ومعناه الراعي، فهل كان الجمع إيحاءً لطيفاً بأنّ الكرم عربي النسبة، والرعاية فرنسية، كأنّ ثقافة فرنسا وفلسفة أنوارها هما من حرسا كنوز العقل العربي حين احتضنت أرض المهجرات ألق الكاتبة وتغريبة روحها. وهكذا، جمع اسمها الكامل، بهذا المعنى، ظرفي هويتها، ولخص كيفية تلاقي هذه الروافد، فولد حيوية النص.

وأما أسلوب الكتابة فيه فيتأبى عن كل تصنيف، ويعسر وضعه في خانة واحدة: فهو من رقيق الشعر وقد تتالت صيغُه في شكل قصيدة نثر، فتجلّى في طريقة تصنيف الأسطر وإخراجها على الصفحة في شكلٍ هرمي. وهو أيضا نثر سردي، يرصد مسار الهجرات عبر التاريخ، كأنما يكتب سيرًا مقتضبةً. وهو وصف أوتوبيوغرافي لفضاعة المنفى حين يصير مصدرًا للألم والتعالي. كما أنه تأويلات إشارية على نهج الرمزيين من الصوفية، يُحيون وجوه الأساطير وينطقونها بما يجول في خواطريهم، مزجًا بين فكر الماضي وآلام الحاضر وآمال الآتي.

وأكثر كريمة برجر من استخدام آلية التناص وتفتنت، فصار ديوانها هذا مآدبة حضرتها آيات القرآن في بعدها الإطلاقي، تقدّس التاريخ وتتعالى عنه، وشهدتها بضعة أحاديث بما فيها من أبعاد إنسانية تخاطب القارئ بلانهاية الصحراء. والتسيج مضمّج بقصائد العطار والرومي، وجلّها تدور حول الحركة فعلاً إبداعياً، تمجّد من خلاله الضرب في الأرض بحثاً عن الهوية، والسفر في فُلوات النصوص المتباعدة لإنشاء جمالية العبارة الحرة. وتنساب الفصول الستة، وما حوته من أقسام وجيزة، في لغة فرنسية رفيعة تحاكي خالد الأدب العالمي، وإن انشّدت مراجعُه إلى دوحة الضاد.

نعم. نص كريمة برجر عربي فصيح، ولكنه بفرنسية رفيعة كُتب. وإحالاته ومرجعياته إسلامية محضة تحاور لوحة المتغيرات السياسية الراهنة، التي هزت الإسلام في دياره، كما في ديار الغرب، فحوّلتها دار لجوء وملاذ، بعد أن كانت دار حرب وهلاك. والنص رسالة تسأّل واحتيار في المصير، بعد المسير في عوالم النصوص العتيقة، وشوارع باريس المنيرة. وعلى جسورها الساحرة.

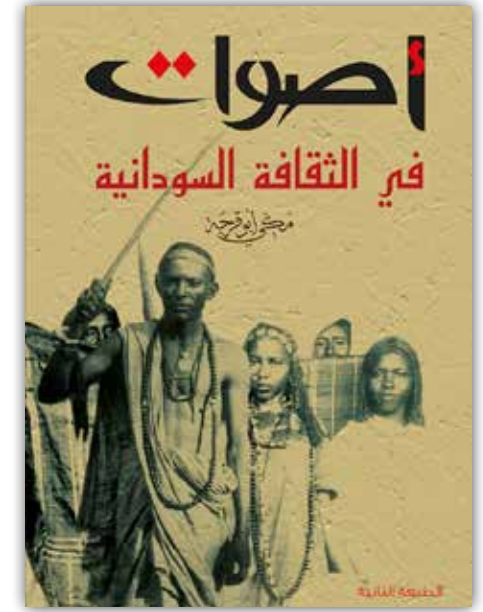
كاتب من تونس مقيم في باريس



## أصوات في الثقافة السودانية

### مكي أبوقرجة

محمد الحمامصي



يضم هذا الكتاب «أصوات في الثقافة السودانية» للكاتب السوداني الراحل مكي أبوقرجة الذي صدر في أبوظبي عام 2005 وصدرت طبعته الثانية أخيراً في القاهرة عن دار صفصافة، مجموعة من المقالات التي نشرها بصحيفة «الاتحاد» بأبوظبي على مدى خمس سنوات (2000 - 2005)، وأعدت نشرها صحف عربية وسودانية. وسعى المؤلف من خلالها إلى تقديم نماذج من الثقافة السودانية مثل عبدالله الطيب والطيب صالح ومحمد المهدي المجذوب وجمال محمد أحمد وغيرهم لأجيال منقطع بها.. حجبتها الظروف السياسية الماحقة عن رؤية ذاتها وتجاذبتها المهاجر والمنافي وما أبقت لها ظهراً. محاولاً أن يشد من أزر تلك الأجيال وأن يقول إن لها تاريخاً مجيداً وحضارة حاذقة ثرية ووطناً جديراً بالانتماء إليه. هذا فضلاً عن قراءاته في رؤية الآخر الأجنبي للسودان مثل قراءته المعنونة «التاريخ السوداني في قصص بورخيس».

**وقد** أكد المؤلف أن كتاباته سزت كثيراً من القراء فأعربوا عن سعادة غامرة وفخر مشبوب ولولا ذلك لما أقدم على جمعها في كتاب. وقال «أما أصدقاؤنا المثقفون الحاديون الغارقون في هوى الوطن وهمومه فقد أبدوا حماساً فائقاً منذ الوهلة الأولى.. ظلّوا مثابرين على الاتصال والتنويه عقب كل مقال.. وجدوا فيها تعبيراً عن صورة ذلك الوطن السعيد.. وكثيرٌ منهم ساهم بشكل إيجابي في إثراء تلك الكتابات مزوداً بالكتب النادرة والمعلومات المفيدة والنصائح الغالية وفي مقدمتهم العالم الكدود د. فيصل عبدالرحمن علي طه الذي أشرع قلمه -دون مَنٍ وادعاء- يقف منافحاً عن تاريخ أمته وحقوقها ومصالحها وحدودها السياسية ومياه نيلها وموروثها من القيم الأخلاقية الباهرة.. ولا غرو فهو الليث من ذاك الأسد».

ورأى أبوقرجة أن الثقافة السودانية غورها عميق وروافدها متعدّدة وأنساقها متشابكة. فقسماتها تشكّلت عبر آلاف السنين. شاركت في صنع الحضارة الإنسانية -إن لم تكن ينبوعها الأول- ثمّ لم تلبث أن ران عليها انقطاع. وأضاف «لسنا بصدد الإحاطة بكلّ ذلك، وما كُنّا عليه عاكفين. ولكن حاولنا تقضي بعض تجلياتها من خلال رؤى سفرت بعد قراءات ومشاهدات ومساهمات واستعراض عميق لموروثنا من الحكايات والروايات المتصلة بخصائص تلك الثقافة ومظاهرها المتنوعة. نفعل ذلك في دُجى ليلنا هذا الطويل، فنستدعي بمحبة واحتفاء وجوهاً عزيزة لنفرّ كريم من مبدعينا، أدباء وفنانين ومؤرخين ومعلمين ومناضلين ونقابيين ومتصوفة وقديسين، رجالاً ونساء وأشخاصا عاديين من غمار الناس -ملح الأرض- مزوا سراعاً كأنفاس الصباح إلّا أن آثارهم بقيت كعظمة الإماتونج ورسوخ جبل مرة وكبرياء الدابر. نستدعي أيضاً بعضاً من أيام أمتنا الولود، معاركها وبطولاتها وانتصاراتها، وانكساراتها.. أيامها النضرات ومواقفها المشرفات وأعيادها المشرقات. وفي اعتقادنا الجازم أنّ ما يحيق الآن بوطننا من محن وأزمات ما هو إلّا تعبير عن قصور وعينا بتاريخنا وثقافتنا. وما السياسة -في أرقى خطاباتها- إلّا تجلّي الوعي بالذات والعمل من أجل حياة غنية متممة زاخرة بالنشاط الإنساني الخلاق».

ولفت في مقدمة الطبعة الثانية إلى أن الطبعة الثانية تصدر كما كانت الأولى إلّا من تنقيح خفيف وإدخال مقالاتين في الكتاب، ومؤكداً أن الظروف التي ظلت هذه المقالات ما زالت كما هي لا تبرح مكانها والأزمات



السياسية والاقتصادية والأخلاقية تأخذ بتلابيب البلد. وما زلنا نؤكد أن مخرجنا هو الاهتمام بثقافتنا وتاريخنا لشحن الوعي السياسي لهذا الجيل حتى يتمكن من الإمساك بمصيره ويصنع مستقبلاً يكون جديراً بهذا الشعب العظيم.

قال أبوقرجة عن عبدالله الطيب أحد أبرز العلماء والمثقفين السودانيين، عمل في مجال التدريس والتأليف ووضع المناهج والمقررات مدة ستين عاماً «كانت حياته الأكاديمية والفكرية زاخرة حيث عاد للتدريس في كلية الخرطوم الجامعية واستمر معاصراً أطوارها المختلفة حتّى اكتملت في طورها الحالي جامعة من أكثر نظيراتها عراقية في العالم. وتولّى عمادة كلية الآداب بجامعة الخرطوم رداً من الزمان نعم فيها طلابه الذين كثيراً ما كان يثني عليهم ويرعاهم ويثمن مجهوداتهم بفيض علومه الزاخر وحضور شخصيته الطاعني. ثمّ أصبح مديراً للجامعة لمُدّة عام ومديراً لجامعة جوبا عاماً آخر. صدرت له عدة دواوين من الشعر الرصين منها أصداء النيل وبانات رامة وأغاني الأصيل. واهتم بالمسرح فألف مسرحية 'زواج

السمر' وغيرها. أما كتابه 'المرشد لفهم أشعار العرب' فقد ظل مرجعاً نقدياً عميقاً التزم فيه بالمنهج العلمي متناولاً قوافي الشعر وأوزانه تناول الفجّد القادر على هضم التراث. ظل عبدالله الطيب عضواً بجمع اللغة العربية في مصر منذ عام 1961 وقام بتأسيس جامعة بابيرو في كانو بنيجيريا، كما عمل أستاذاً للغة العربية في كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبدالله في المغرب، وقضى فترة يدرس في معهد بخت الرضا لتدريب المعلمين وإعدادهم في الدويم وساهم بجهد مقدر في إعداد المناهج. وكثيرون ممن عاصروه من المعلمين يذكرون خلافاته مع مستر قريبث الذي أسس المعهد.. فأوسع سباً ولجأ إلى سلاح الشعر الذي يلوذ به كلما أحس بضيم».

وأفرد أبوقرجة أكثر من مقال للمساجلات الشهيرة بين الشعاعين محمود الفكي وعبدالحليم طه، وعن الريادة الشعرية التي لم تتل حقه من الاهتمام فتحدث عن المغامرة المبكرة في التجديد الشعري للشاعر والناقد السوداني حمزة الملك طنبيل الذي ظلّ يكتب منذ بدايات القرن العشرين

وحتى الخمسينات منه. وأصدر عام 1931 «ديوان الطبيعة»، وقد جاء إحساسه بضرورة التجديد من خلال إدراكه لضرورة الكتابة التي تناسب الذائقة الجديدة، فكان شعره يتميز بلغة وصور أقرب إلى الواقعية، إلّا أنه ظل بعيداً عن الهم السياسي على العكس من الكاتب محمد المكي إبراهيم الذي كان بالإضافة إلى كتابة الشعر كاتباً سياسياً لا تخلو كتابته من السخرية والغضب، في حين ظل شعره يتغنّى بحب الوطن.

ومن الأسماء الشعرية الأخرى التي عزف أبوقرجة بها وبإسهامها الإبداعي الشاعر الصوفي إسماعيل الدقلاشي الذي كتب الشعر الديني وشعر الغزل المباشر والطبيعة وقد تميز بعزفه على آلة الطنبور، والكاتب المسرحي د. أحمد الطيب الذي درس المسرح في إنكلترا، وعمل عميداً لقسم اللغة العربية، ووضع أسس المسرح المدرسي في السودان. ولا تقتصر أسماء الأعلام التي يتحدث عنها الكتاب على الكتاب السودانيين وحدهم بل يطول عدداً من الأسماء الأجنبية والمعاهد العلمية التي لعبت دورها التنويري، ومن الأسماء الأولى يتحدث عن الكاتب البريطاني توماس غراهام الذي أقام علاقات وثيقة مع السودانيين، كما يتحدث عن فيليبا المغربي الممرضة البريطانية التي كانت أول زوجة لأول رئيس سوداني.

يذكر أن المثقف السوداني عبدالجبار عبدالله كتب على الغلاف الأخير من الكتاب «ولئن كانت المحاذير والالتباسات الفكرية العديدة، قد أحاطت بمصطلح «الثقافة السودانية» بحد ذاته، وأدخلت استخدامه السائب المطلق في دائرة النقد والحذر لأسباب ثقافية تاريخية معلومة، فإن هذا الحذر ينتفي تماماً مع تصفّح هذا الكتاب، الذي يسهم إسهاماً مقدراً في تقديم النموذج والمثال، لما تعنيه «الثقافة السودانية».

كاتب من مصر



# الرواية العجائية في الأدب المغربي

لخالد التوزاني

علي لفته سعيد



يؤمن الناقد المغربي خالد التوزاني بقوة الإبداع المغربي وتميز الأدباء المغاربة وهو ما جعل في داخله الرغبة في استجلاء مظاهر التميز والقوة فيه واقتراح قراءة علمية بمعايير موضوعية منصفة ترى في النص الأدبي عملا يخدم الإنسانية ويربط جسورا من التواصل الثقافي بين الحضارات مركزا على ما هو عجائبي في هذا الأدب.

## ولهذا

فقد سعى في كتابه الجديد «الرواية العجائية في الأدب المغربي الحديث» الذي صدر عام 2017 ليكون إضافة جديدة إلى المكتبة العربية والمغاربية والمغربية إلى التركيز على العجائبي في الرواية وإلى عقد تصالح بين القراء مع تراثهم الشفهي. وهذه الخلفية الثقافية تمثل تأريخا للبنية النفسية والاجتماعية لبعض المناطق التي تنتعش فيها العجائب والأساطير، وبذلك تقدم متنا غنيا من الناحية الدلالية والرمزية يفيد في فهم بعض مظاهر السلوك وذهنية الإنسان المغربي.

والذي يلاحظ كتب التوزاني يرى هذا الاهتمام الكلي بما هو عجيب حتى في العناوين من مثل كتبه «الرحلة وفتنة العجيب: بين الكتابة والتلقي» و«جماليات العجيب في الكتابات الصوفية: رحلة 'ماء الموائد' لأبي سالم العياشي» و«أدب العجيب في الثقافتين العربية والغربية» وهو ما يبدو واضحا في هذا الشغف الذي يمتلكه ليكون هذا الأمر خطا مميزا ومائزا له في الكتابة النقدية المختصة بالسردية المغاربة والعربية.

في كتابه الجديد الصادر عن منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية حاول خلق مسارات جديد في العجائية التي يبحث عنها ويقترح مناخا ومساربا جديدة لفهم العقلية العربية، وهو بالتالي يخوض مغامرة لتحليل النص بطريقة مختلفة باحثا في الروايات التي تحمل ما يبحث عنه لتكون مادة تحليلية له مبتعدا عن النقد الظاهراتي مقتربا من النقد البنيوي في تلك المسرودات الروائية لأنه هنا في هذا الكتاب يكون معنيا بدراسة نفسية اجتماعية مستخلصا ما هو مسكوت عنه وما هو مهمش والذي ربما لم يره أو يطلع عليه اللاوعي الجمعي.

وهو بهذا يقترب من التأويل ومناقشته وما يتصل بهذا النفسي الذي لم تستغله النقديات العربية بشكل كبير وربما يأتي أيضا لتخصصه بعلم النفس ما يعينه في مجال النقد ويضفي على منتجه البعد التحليلي والربط بين ما هو أدب وإبداع وبين ما هو نفسي مخيالي وواقعي.

وكتابه الساعي إلى التحليل في منطق التأويل يريد برهنة ما يمكن أن يظهره العمق العجائبي في الأدب عموما وفي السردية المغربية على وجه الخصوص. وهنا ستكون مهمة السؤال مهيمنة على الظاهرة الإبداعية لاستبطان العمق التأويلي في النص السرد.

إن العجائية التي يقصدها التوزاني في كتابه تنطلق من أساسيات أو مرتكزات أو مقاربات محددة أولها البحث في البنيات النفسية المهترئة والتواصلات الاجتماعية الهشة

سليمان سباعي



التي تركز السلبية وتعمق ضعف واقع ومنطقة منكوبة على مستوى استخدام العقل والذراع.

وثانيها المقاربة النفسية الاجتماعية باعتبارها اختيارا منهجيا عاملا مساعدا على كشف هذه البنيات واقتراح بعض الحلول، فضلا عن سبر أغوار النصوص الروائية ذات الملمح العجائبي.

وثالثها الالتقاء العجائبي بين الرواية كونها من أكثر الأجناس الأدبية تمردا على التحديدات المنهجية سواء التنظيرية منها أو التحليلية مما فيبحث عن تلك الحالات التي تعطيها سمة التمرد والانفلات.

ورابعها يكمن في الأساسيات إذ يبحث عن مقارنة العتبات التي تؤطر الروايات العجائية للبحث عما هو مشوق وحاو على التراتيبات الجاذبة والمدهشة.

وخامسها ما يطرحه العمل من أسئلة على المتلقي بهدف البحث عن أجوبة جديدة تحمل عجائبيتها مثلما تحمل جديتها في خلق علاقات جديدة بين أطر العجائية ذاتها وما يعنيه في كتابه.

أما الأساس السادس أو المرتكز فهو البحث عن التوظيف الإبداعي لما هو رمزي ودلالي وما يمثل الفكر الرمزي والسلوك من ملامح الجدية في الحياة ومعناها.

في حين يأتي السابع منها في بحثه في

الروايات العجائية عن كانت لها القدرة على تخزين المعرفة الإنسانية واختلافها عن تلك التي تحولت كما يقول بفعل الإيقاع اليومي الرتيب إلى نوع من اليقينيات والبيدييات.

الكتاب مهم في المكتبة العربية سواء بما يحمله من جديد وجدية في النقدية العربية حيث ضم فصلين وقبلهما المقدمة، والفصل الأول كان قد خصص لمقاربة الرواية العجائية من التنظير إلى الممارسة وفيه عدد من المباحث التي تهتم بشرح ما له علاقة بالعقلية العربية وصلة دلالات العجائبي بالأدب وتأثير الجن في الرواية المغربية.

في حين خصص المؤلف الفصل الثاني لتحليل نماذج من الروايات المغربية ومنها روايتان الأولى رواية «سيرة حمار» لحسن أوريد ورواية «وريخا» للكاتب عزيز أمعي مرفقا خلاصته التي أكد فيها أن سعة الثقافة أحد مفاتيح فهم العجائبي كونها المسؤولة عن تحرر الإنسان من الأوهام ومحاولة تقريب العجائبي والعقلي لدى المثقف المتلقي عبر تأسيس جسور التلقي بمعرفة نفسية جديدة لكي تكون المهمة الثقافية مهمة وعي وإدراك ومسؤولية تعين المتلقي على تحرر عقله لبناء الحضارة والمشاركة في صنع الجمال

وتلاقي الأضداد، مثلما توصل إلى وجود خصوصية في الأدب المغربي العجائبي رغم أن موضوعات العجائية لم تخرج عن هموم الوطن ولكنه قرأ ما مفاده أن الرواية العجائية تسعى لتغيير واقع مألوف مليء بالإحباط والحدود والمكر إلى واقع آخر مغاير للعادي ومخالف للمألوف مثلما تسعى لتلبية حاجياته بل وتمكينه من بعض الكماليات.

كما توصل أيضا إلى أن الرواية التي تقدم نفسها على أنها رواية دهشة ومتعة وجاذبية وفيها سرد جميل تدفع المتلقي إلى البحث عن أسئلته الخاصة لوجود العديد من المفارقات والتناقضات سببها العجائبي الذي تتوافر عليه مثل هكذا روايات لأنه لا يريد زرع الشك في عقله مما يقرأه بقدر ما يريد إزالة الحيرة من خلال سردي واقعي لشيء غرائبي وعجائبي، لأنها، أي العجائية، إنتاج ثقافي يبحث عن التحليل في كينونتها للوصول إلى نضج التلقي والمشاركة في إدانة الفعل وصنع واقع جديد أساسه السؤال والمنطق والحيرة وحتى الميتافيزيقي والمخيّل اللاواقعي لجعله واقعا محتشدا بالوعي والثقافة.

كاتب من العراق



## المختصر

كمال بستاني

## الهيمنة البطيريركية على المرأة باسم الدين

في كتابها «الأسئلة التي تُغضب» تقول الباحثة المغربية أسماء لمرابط إن الحديث عن المواضيع التي تغضب في الإسلام، لا سيما تلك التي تتعلق بالمرأة، ليس استفزازا بل ضرورة، حتى نوضح ونصوّب ونفضح أيضا الخلط بين رسالة النص الديني والتأويل المكزّس عبر العصور. وهي إذ تستعرض عددا من الأحكام الذكورية المسبقة في التقاليد الإسلامية التي تهين المرأة وتقدم على كونها من تعاليم ديننا، تدين أيضا ما خلّفته الثقافة البطيريركية في أذهان المسلمين بوضعها المرأة موضع دون، ما جعل المرأة تعاني من ميز حقيقي باسم الدين، والحال أن الدين منه براء. في هذا الكتاب تبين الباحثة المغربية أيضا أن أغلب التأويلات القروسطية الكلاسيكية، هي نتاج لوسطها الاجتماعي والثقافي، بنيت على هامش القرآن، وأحيانا خلافا للقرآن، الذي يحمل رؤية أكثر عدالة وانفتاحا.

## هل يضمحل اليسار الفرنسي

السؤال الذي طرحه المؤرخ أندري بورغبيير في كتابه «هل يضمحل اليسار؟» كان في محله، والرجل لم يرجع بالغيب بعد هزيمة اليسار المنكرة، إذ صدر الكتاب قبل شهر من الانتخابات الفرنسية، الرئاسية والتشريعية، بل استند إلى قراءة للواقع الراهن، وللأسس التي قام عليها اليسار، ليبين أن القاسم الأيديولوجي المشترك، كإرث مباشر للثورة الفرنسية، لا يزال يشكل بنية التمثلات السياسية، ويلاحظ أن الولع النبيل بالمساواة تراجع، لأن تطور المنظومة النيابية وسلطة النواب وحرفيتهم ألغت صوت المواطنين، إضافة إلى الدولانية، أي مد سلطة الدولة وصلاحياتها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية قاطبة، والدستور ذي الطابع الملكي، وضعف العمل النقابي وتفاقم الأزمات. ولكن الأخطر من كل ذلك بالنسبة إلى اليسار، رضوخه لضغوط الليبرالية الاقتصادية وانتهاجه سياسات أمنية، ما جعله يخفق في الغايات التي وجد من أجلها، أي جعل المجتمع أكثر عدالة وحماية وديمقراطية.

## ما وراء الحدود

يعتبر «تاريخ العالميات» الذي جمع بحوثا تحت إشراف إريك أنصو وجاك أوليفيي بودون وأوليفيي أول كتاب يهتم بتاريخ العالميات ومدى صحة مفهومها، ليذكر بأن التاريخ الحديث والذاكرة الجمعية لا يحتفظان إلا بالعالمية الحمراء، أي الشيوعية، ويغفلان عن السوداء (الفاشية)، والبيضاء (الفاشكان)، والأناشية، والديمقراطية المسيحية. والسبب أن تلك العالميات لم تبلغ ما بلغته من حيث الانتشار عالمية العمال في القرن التاسع عشر، ثم الحركة الشيوعية التي انفصلت عن العمال عام 1919 وتشكلت تحت لواء الكومينترن في القرن العشرين. إحدى عشرة مداخلة لمؤرخين وباحثين تتبعت مسار تلك التجمعات التي تمتد من «العالمية الليبرالية» التي حاول ضباط نابليون إنشاءها كردّ على الساعين إلى إعادة الملكية، إلى المنظمات الإرهابية المعاصرة العابرة للقارات، يسارية وإسلامية، مرورا بمحاولة توحيد الحركات اليمينية الراديكالية التي لم

علاء شراي



تستطع جمع شتاتها بعد نهاية موسوليني، وكذلك عالمية المحافظين.

## تحسيس الصغار بالتغير المناخي

«التغير المناخي كما شرحته لابنتي» كتاب هام لجان مارك جانكوفيسي أستاذ الهندسة بمدرسة البوليتكنيك بباريس يتوجه به إلى المراهقين، ليس من جهة توصيفه الواضح لوضع كوكبنا فحسب، وإنما أيضا لأن الثورة الضرورية في أنماط التفكير تهمهم بالدرجة الأولى. يبين الكاتب أن تناقص البترول والاحتباس الحراري سيغيران كل شيء: السكن، النقل، التغذية، الحرف، وأنماط العيش والاستهلاك، فهل سنواجه كارثة إيكولوجية تعقبها كارثة اجتماعية؟ أجل يجيب الكاتب، إذا يقع تدبر السبل الرشيدة، وإن كان يجد فيها فرصة لتحرير الخيال وطاقة الخلق للتفكير في المهن التي تناسبهم في المستقبل القريب. فهل سيخلف الآباء، الذين يصفهم بمدمني بترول، أطفالا أكثر حكمة وأبعد رؤية؟ هذا الكتاب، الذي يستند إلى مستجدات البحوث العلمية في التغيرات المناخية وسبل السيطرة عليها، قد يساعدهم ولو بنزر قليل.

## جذور المنع والانتهاك في الإسلام

يضم كتاب عالم الأنثروبولوجيا الراحل

معجم الرموز في القرون الوسطى عن مثيلاتها في العصر الحاضر، فلو فصلنا مثلا لفظة ثورة عن مثلها السياسي الذي تنتزل فيه، لجاز أن نعتبر مذبحة سان بارتيليمي والإرهاب وكل شكل من أشكال العنف ضد النظام القائم ثورة. ولذلك يقترح ما يسميه طاقم نجاة، وهو أن نتذكر دائما أنه لا وجود لمثال تاريخي، في أي ظرف كان، دام فيه السوء بشكل أبدي. فكل عمل عنيف، أيا ما تكن تسميته، مآله الزوال، لأنه حالة طارئة، وإن امتدت في الزمان.

## ترامب تحت المجهر

«الملفات السوداء لدونالد ترامب» كتاب جمع فيه إيفونيك دونويل مقالات مجموعة من الصحافيين الأمريكيين والأوروبيين ركزوا فيه على جوانب الظل لدى الرئيس الأمريكي، هذا الرجل الذي انتخب رغم مسيرة تتخللها شبهات كثيرة ليس على المستوى السياسي وحده، وإنما أيضا على المستويين المالي والأخلاقي. في هذا الكتاب بحوث استقصائية في «ترامب أورغانيزشن» وولوج إلى قلب منظومته التي تقوم على ركيزتين أساسيتين، الكازينوهات والعقارات الفاخرة، للوصول إلى أن الرجل ما كان ليحصل على مثل ذلك الغراء لولا علاقته بالمال الفاسد وعصابات المافيا. وبينما كان يندد في حملته الانتخابية بـ «أعداء أمريكا» كانت شركاته تخرق سرا الحظر الأمريكي المفروض على إيران وكوبا، فقد كشف بعض الصحافيين مثلا شراكة ترامب مع كيان على ملك حراس الثورة الإيرانية. هذا فضلا عن علاقته بأحد أثرياء اليمين المتطرف الذي كافأه عن تمويل حملته بتعيين أتباعه، وتحرشه الجنسي، واغتصاب قاصر، وتعامله مع المخابرات الروسية.

## كيف صار الإسلام عدوا للغرب

بعد كتابه «الغرب والإسلام» الذي بين فيه ينابيع الصهيونية وتكوينها، يواصل

مالك شبل «لاوعي الإسلام: تأملات في الممنوع والخطأ والانتهاك» خمس دراسات يؤكد من خلالها مدى حضور الخطأ والانتهاك في العالم الإسلامي المعاصر. هذا اللاوعي ينبع في رأي الكاتب من جذور المعتقد نفسه ويتغذى بتاريخ الخلفاء، ويفسر في جانب منه الجنون الحالي الذي أصاب جانبا من الأمة، فقد وقع تحريف مفهوم الجهاد، وتمجيد صورة الانتحاري، وتكريس العنف الرمزي في العلاقة بين الأم والابن، ومصادرة الكتب، والحرق بدعوى التطهير. هذا الغوص في عالم الممنوعات وانتهاكها يضع موضع مساءلة الروابط التي تصل الدين بالسياسة والحرية في العالم العربي الإسلامي، ويدعو الكاتب من خلاله إلى الكشف عن لاوعي طال التستر عليه، للوقوف على حجم التناقضات التي ألبست بالإسلام.

## هل العنف ضد النظام القائم ثورة؟

عرف باتريك بوشرون كمؤرخ متخصص في المدن الإيطالية إبان العصر الوسيط وأستاذ في الكوليج دو فرانس، وعرف أيضا بإسهاماته في تحليل الراهن وملابساته كما في كتابه «القوة السياسية للصورة». في كتابه الجديد «كيف نثور؟» يجري مقارنة بين الماضي والحاضر ليبين مدى اختلاف



# ثالثية ماكرون وما بعد السياسة

أبو بكر العيادي

شكل فوز إمانويل ماكرون في الانتخابات الرئاسية مفاجأة مذهلة، قسمت المجتمع الفرنسي إلى نصفين، نصف تفاعل بوصول وجه جديد يقطع مع المشهد السياسي القديم الذي لم يقدم زعماءه للفرنسيين غير الوعود، وتمنى أن يحصل حزبه «الجمهورية إلى الأمام» على الأغلبية المطلقة في البرلمان حتى ينفذ برنامجه الانتخابي. ونصف استاء من صعوده إلى سدة الحكم بدعوى عقيدته النيوليبرالية التي سوف تخدم الأعراف والبنوك ورؤوس الأموال أكثر مما تخدم الشعب، فقاطع الانتخابات التشريعية بقوة، حيث بلغت نسبة الامتناع عن التصويت أرقاما غير مسبوقة منذ ستينات القرن الماضي (51.29 بالمئة في الدور الأول، و57.21 بالمئة في الدور الثاني).



أبو بكر العيادي

وأن نصفهم صوت ضدّ مارين لوبان أكثر مما صوت له، فإن المحللين ركزوا على ما يعتبرونه جديدا في برنامجه بما يحويه من حرص على تجاوز ثنائية اليمين واليسار، ليقدم حلاً للتجاوزات الأتية التي تعطل المجتمع الفرنسي، من خلال ثورة ديمقراطية كفيلة بتحرير طاقات القوى التقدمية التي طالما شكمت اندفاعها الأحزاب التقليدية.

فقد وصف عالم الاجتماع الفرنسي ألان تورين التصويت لماكرون وبرنامجه بكونه «خيّار المستقبل ضد خيار الماضي»، وقال إن ماكرون لم يسع لإضافة حركة أخرى ناحية اليمين أو اليسار، لأنه أدرك أن التوجه الصحيح ليس في الاصطفاف مع اليمين ضد اليسار أو العكس، بل في اختيار المستقبل ضد الماضي، لأن المهم هو ملء الفراغ الناجم عن تفكك

عشرين، فالأغلبية المطلقة التي حصل عليها حزب «الجمهورية إلى الأمام» تطرح في نظره مسألتين، ضعف السلطات المضادة كركيزة للجدل الديمقراطي من جهة، والطلاق الكامل بين تلك الأغلبية في البرلمان ومن يفترض أنه منحها إياها، أي الاستفتاء الشعبي من جهة ثانية. هذا فضلا عن كون 70 بالمئة من نواب الحزب الفائز ينتمون إلى الطبقات العليا، وهو ما جعل الأصوات الغاضبة تذهب للمتطرفين من الجهتين، اليمين واليسار، أو تؤثر الامتناع. وفي رأيه أن الديمقراطية تكون في صحة جيدة إذا تصرف النواب انطلاقا من رصيد معين من الأصوات ليعبروا عن إرادة منتشرة انتشارا واسعا عبر أنحاء البلاد.

وبصرف النظر عن أن ماكرون -الذي حصل في الدور الثاني على نسبة 66.06 بالمئة- لم يفز في الواقع إلا بنسبة 43.63 بالمئة،

الامتناع عن التصويت مثل هذا بدوره محور جدل لم ينته بعد، بين مبزّر كاليفيلسوف الألماني بيتر سلوتردايك الذي عدّه إرثا لحال الكآبة العامة التي سبقت مرحلة ماكرون، فالناخبون الفرنسيون في رأيه يحتفظون في دواخلهم بارتكاس تصرفاتهم السابقة إذ ينتابهم نوع من الالتباس لكونهم مرغمين على التفاؤل عبثا يوما وراء يوم فيعيشون في ما يسمّيه بالتشاؤم المترف والإحساس المرّ بعدم القدرة على تصديق الحياة السياسية حتى صارت السياسة في تصورهم مجالا يعطل فيه الجميع الجميع ويغدو الفساد خبز الفرنسيين اليومي. وبين من يعتبره نهاية التمثيلية النيابية مثل الفرنسي عبدالنور بيدار، لأن السلطة التشريعية الجديدة لا تمثل سوى سدس الكتلة الانتخابية، أي ثلاثة فرنسيين من

البترول هي التي كانت سببا في انهيار الاتحاد السوفييتي، وتفتت يوغسلافيا. حتى الحركات الإيكولوجية المناهضة للمفاعلات النووية، إنما ظهرت بتمويل من الشركات البترولية العملاقة حتى تظل الدول تحت رحمة البترول. وأخيرا وليس آخرا الحرب الأنكلوأمركية على العراق من أجل تأمين حاجة البلدين إلى النفط لنصف قرن قادم.

## استشراء الجهل

كيف السبيل إلى كسر تصاعد الظلامية وإعداد مستقبل أكثر نورا؟ ذلك موضوع كتاب «الصعود الطويل للجهل» لمؤرخ المطارحات الجدلية والمجادل الملتزم ديميتري كازالي، الذي ينفي الفكرة القائلة إن التاريخ الإنساني يسير في شكل تقدم مستمر، وأن المعارف والعلوم تتراكم لخلق مجتمع يعيش فيها الأفراد والجماعات بشكل أفضل. المفارقة، يقول الكاتب، أننا إلى جانب هذه الطوباوية نشهد صعودا متزايدا للجهل، والأمثلة على ظلامية البشر تتعزز كل يوم، فيفضل الإنترنت تنتشر نظريات المؤامرة انتشارا مذهلا عبر فيسبوك وتويتر وغوغل وويكيبيديا، ويزداد إنكار الحقائق العلمية خصوصا ما يتعلق بخلق الكون والإنسان، وكروية الأرض وموقعها في المنظومة الشمسية، فضلا عن نشر القتل وتدمير الآثار الإنسانية. كل تلك الظواهر، يقول الكاتب، تدل دلالة واضحة على انتشار الجهل والامية في كافة أنحاء المعمورة.

## معنى التفكير

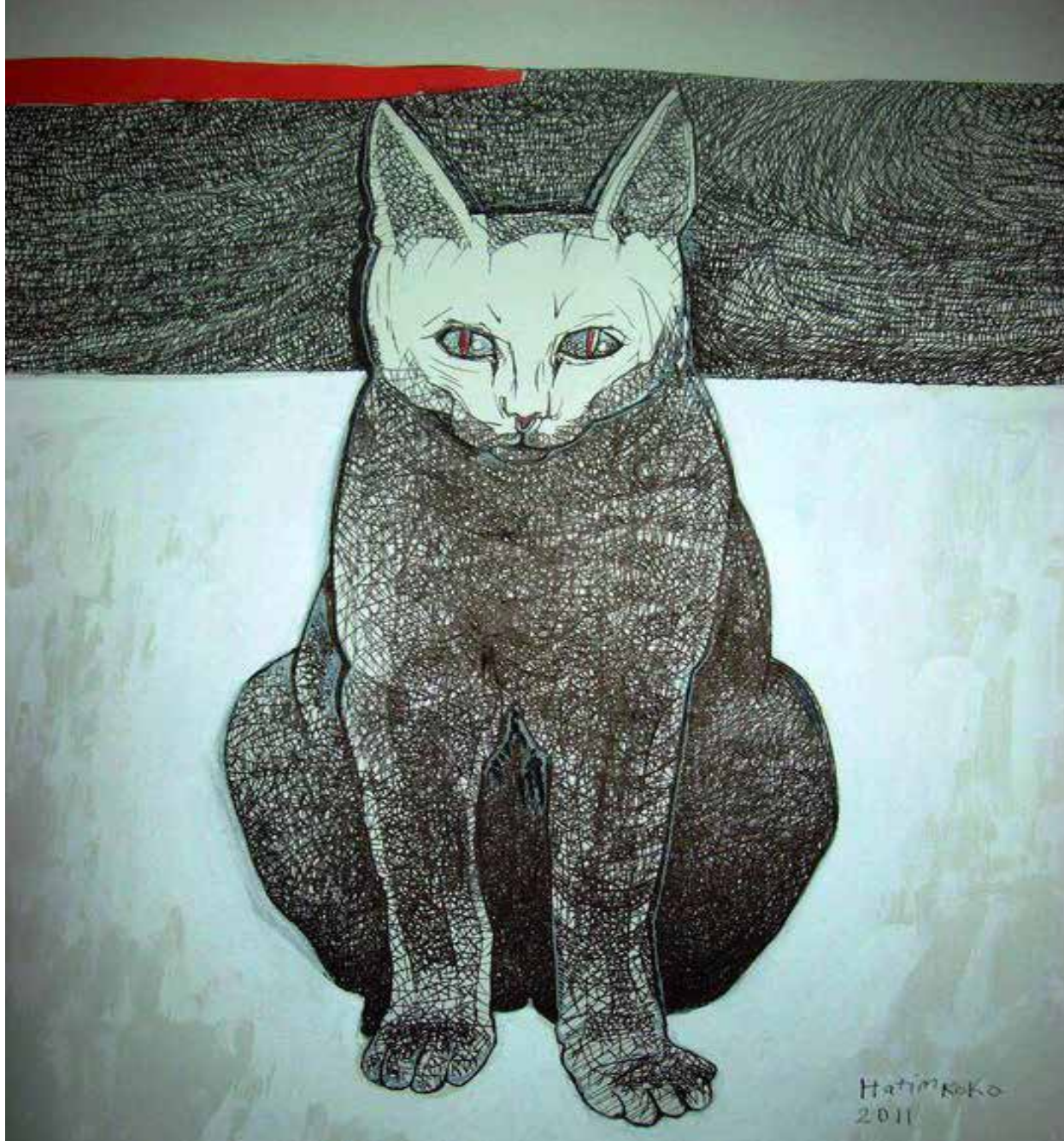
بيير دو بونوا فيلسوف فرنسي صاحب مجلة «المدرسة الجديدة» له مؤلفات عديدة في الفلسفة السياسية وتاريخ الأفكار. آخر ما صدر له كتاب بعنوان «ماذا يقصد بالتفكير: التفكير مع غوته وهايدغر وروسو وشميت ويغي وأرنت...» يبين فيه الفرق بين التفكير العادي والتفكير

## احتضار اليسار

«اليسار يحتضر» عنوان كتاب جديد لعالم الاجتماع المعروف جان بيير لوغوف يصف فيه بالأدلة والتواريخ أزمة اليسار وتحلله منذ نصف قرن. بدءا بثورة مايو 68 إلى الخلافات الراهنة والانتخابات التمهيدية للحزب الاشتراكي، ليبين كيف انحدر اليسار إلى هذا الدرك. وبعد استعراض الثيمات الأساس التي هيكلت هويته منذ القرن التاسع عشر، وتأكله بل وتحلله، يسلط الكاتب الضوء على نهاية دورة تاريخية مؤكدا صعوبة إعادة البناء بسبب المشاكل الراهنة التي يتخبط فيها قاداته، فالهوة ليست فقط بين الأجيال، المكرسة والجديدة، بل بين اليسار المثقف والطبقات الشعبية التي أدارت له الظهر، في ظل غياب أفكار حديثة تعيد تشكيله على نحو يسترجع فيه موقعه في الساحة السياسية والاجتماعية الفرنسية. وفي رأيه أنه لا يمكن إعادة البناء ما لم يستحضر اليسار إرثه الثقافي.

كاتب من لبنان مقيم في ليدز/بريطانيا





تكون قيادة بلاد من خلال تقديم وعود بمزيد القوة لمن هم منتصرون أصلا في سياق التنافس الاجتماعي، أولئك الحائزون على كل رؤوس الأموال، ثقافيا واقتصاديا. والتعويل على الخيار الثالث لعرقلة سير الجبهة الوطنية المتطرفة، كما يتخيل، قد يساهم في دعمه ولو بشكل غير مباشر.

كاتب من تونس مقيم في باريس

الفرنسيين يعارضون سياسته، وعن تجاهله للطبقات الضعيفة التي لم تجن من تعاقب الحكومات غير البطالة وشظف العيش، ما سيقود حتما إلى تمزّد الفئات الشعبية تمردا ينقّر المستثمرين الذين يعول عليهم ما عبر عنه صراحة عبدالنور بيدار حين لوح بشبح تمزّد شعبي إن لم ينصت الرئيس المنتخب للغضب الصاعد، فلا يمكن أن

خلال حملته الانتخابية أن الحدود لم تعد بين يمين ويسار، بل بين تقدميين ومحافظين، لعلمه ألا وجود لسياسة خالية من حدّ فاصل بين «نحن» و«هم»، ولكن تلك الحدود لا تقيم علاقة ذات طابع سياسي بين المتنافسين، بل تقصي مختلف أشكال المعارضة لئلا يجرّها ضمن مسقى واحد هو «محافظون»، أي أنه يعبر عن استخفافه وازدراؤه بعدد كبير من

الديمقراطية التعددية ليست بلوغ توافق بقدر ما هي تمكين التوافق من التعبير عن نفسه من خلال مؤسسات تفتح له باب صراع سليم، لا ينظر فيه المتصارعون إلى بعضهم بعضا كأعداء بل كمتنافسين، فهم يعرفون أن ثمة مسائل لا يمكن الاتفاق حولها ولكنهم يحترمون حق بعضهم بعضا في الصراع لأجل فوز فريقهم، وتتولّى المؤسسات الديمقراطية عندئذ توفير إطار «يقاوم فيه المتصارعون بعضهم بعضا دون أن يفتك طرف بطرف» بعبارة الأنثروبولوجي مارسيل موس.

ذلك أن التقابل بين اليمين واليسار في التقاليد الجمهورية هو طريقة لتجسيد الانقسام المائل في المجتمع. والديمقراطية التعددية هي محلّ توتر بين مثل المساواة والحرية، توتر لا ينقطع التفاوض حوله في إطار المواجهة بين اليمين واليسار. ومن خلاله يمكن لسيادة الشعب، كأحد أعمدة المثل الأعلى الديمقراطي، أن تعبر عن ذاتها، وفي ذلك رهان سياسة ديمقراطية حق.

إذا أكدنا أننا نعيش الآن في مجتمعات «ما بعد الديمقراطية»، تقول شنتال موف، فلاّن سيادة الشعب تراجعت أمام انتصار الهيمنة الليبرالية وخرمت من حقل مراسها الطبيعي، إذ أن التوافق «ما بعد السياسي» لا يدع مكانا إلا للتناوب على السلطة بين وسط اليمين ووسط اليسار، وكلاهما يخضع للأمر المفروض من النيوليبرالية. وكل الأحزاب التي ترفض هذا السيناريو توصف بالتطرف وتتهم بتعريض الديمقراطية للخطر. وفي رأيها أن إمانويل ماكرون يدفع بهذا المنطق إلى حدود أبعد ليجعل «جذته» ببساطة إجلاء لما تبقى من اعتراض واه زمن الثنائية الحزبية، وبزوال الحدّ الفاصل بين اليمين واليسار تصبح إمكانية الاعتراض نفسها مرفوضة، وبذلك نكون قد بلغنا المرحلة القصوى من «ما بعد السياسة».

لقد صرّح ماكرون في أكثر من مناسبة

«الوسط الجديد»، قبل أن يتبناه معظم الاشتراكيين والاشتراكيين الديمقراطيين في أوروبا، ويعلنوا انتماءهم إلى وسط اليسار.

وبزوال الحدود بين اليمين واليسار فقد المواطنون إمكانية الخيار بين البرامج المختلفة عند الانتخاب. وكان لغياب البديل أثر في ظهور المشاكل التي تواجهها البلدان الغربية حاليا، كالشك في صدقية المؤسسات الديمقراطية وتساعد الامتناع عن التصويت والنجاح المظرد للأحزاب الشعبوية اليمينية. ولئن استطاعت تلك الأحزاب، التي تزعم أنها ستعيد إلى الشعب سلطة انتزعتها منه النخب، أن تتجذر في عدة بلدان، فإن



**«عصر الارتداد» هو زمننا دون ريب، وهو أيضا زمن الوعي النقدي، الذي ينشط في شبكات الفكر بكل أشكالها، وإن لم يكن لها ما لمحترفي السياسة من حضور، فهي التي تساعدنا على تبيين الطريق الصحيحة**



الاشتراكية الديمقراطية، بانزياحها نحو وسط اليسار، أصيبت في مقتل ووقعت في أزمة تكاد تشمل كافة أوروبا. وفي رأي شنتال موف أن إلغاء الحدود بين اليمين واليسار غير واقعي، لأننا نعلم، منذ ماكيافيلي، أن المجتمع يطفح بمصالح ومواقف متناقضة لا يمكن التوفيق بينها، ولا يكفي أن نكرها كي تزول. ثم إن غاية

اليمين واليسار المناصرين لدوام الاتحاد الأوروبي. وهو ما مكّنه، رغم قصر عهده بالسياسة، من فرض خياره الأساس المتمثل في سياسة اقتصادية مفتوحة على كل محاولات الانغلاق السياسي، ما جعل الولايات المتحدة المهمة بانعزالية دونالد ترامب، وبريطانيا المنغلقة بسبب البريكسيت، تترديان إلى منطقة الظل التي خلقتها بنفسيهما، بينما «يأتي النور الذي قد يضيء سبل كل البلدان نحو النهضة الاقتصادية المشفوعة بالصراع ضد التفاوت الاجتماعي من بلد الأزمات والإخفاقات، أي فرنسا».

أما شنتال موف، أستاذة النظرية السياسية بجامعة وستمنستر، فقد رأت أن من المفارقة أن نداوي الأزمة العميقة للتمثيلية النيابية التي تعاني منها الديمقراطيات الغربية والتي كانت هي الداء. فالأزمة نجمت عن تبني معظم البلدان في أوروبا استراتيجيا الخيار الثالث الذي نظر له في بريطانيا عالم الاجتماع أنتوني غيدنز ووضعه قيد التطبيق حزب العمال الجديد بقيادة توني بليز. وهي استراتيجية اعتبرت هي أيضا ثنائية اليمين واليسار منتهية الصلاحية، ودعت إلى شكل جديد من الحوكمة أطلق عليها مصطلح «الوسطية الراديكالية»، وصرح معتنقها توني بليز بـ«أننا ننتمي جميعا إلى الطبقة الوسطى»، وبألا وجود بعدئذ لسياسة اقتصادية يمينية أو يسارية، وإنما «سياسة جيدة» أو «سياسة رديئة».

هذا الأفق الذي اصطلح عليه بـ«ما بعد السياسة» يستند بدوره إلى شعار مارغريت ثاتشر «لا بديل» أو «TINA» اختزالا، باستعمال الأحرف الأولى لمقولتها Alternative «There Is Not»، والمقصود ألا بديل للعوامة النيوليبرالية.

وقد لقي الخيار الثالث الذي اعتمده توني بليز حينئذ صدى في ألمانيا، حيث تبناه المستشار غرهارد شرودر في حزبه





هيثم الزبيدي

## احتفاء بالبلدة المغربية تشيّد تناساه المشرق العربي

**لا** تحس بمدى خسارة البلدة في مشرق العالم العربي إلا حين تزور المغرب وتلمس الفارق الكبير في مدى تطور البلدة المغربية وتراجعها في المشرق.

البلدة في المغرب ملتقى حضري وليست مركزا سكانيا فقط. ثمة الكثير من العمران مما يلاحظ في كل ركن من البلد. ولكن هذا العمران، وهو يحاول ان يستبدل أحزمة الفقر السابقة، لا يهدف إلى انتهاك الشكل الإنساني للبلدة (وبشكل أوسع المدينة) ولا يسعى إلى تفكيكها.

ما الذي يجعل البلدة شيئا متميزا؟

البلدات هي أساس التطور الحضري في التاريخ. المدن الكبرى ظاهرة معاصرة نسبيا، ما نشأت إلا بعد تطور وسائل النقل التي تستطيع ان توصل إلى المدن ما تحتاجه من سلع وخدمات. البلدات شيء آخر. هي المرحلة الوسطية سكانيا بين الريف والمدينة. ولكن هذا لا يمنعها ان تكون حاملة لأغلب مواصفات المدينة من دون العبث بمعطيات البساطة والسهولة والهدوء التي توفرها البلدة بالمقارنة مع المدينة.

في الغرب، لا تزال البلدات شيئا نابضا بالحياة. يمكن ان تزور بلدة غيلفورد جنوب إنكلترا وتجد في واحد من حقولها القريبة معرضا للتماثيل بروح الفن المعاصر لا يقل ما يعرض فيه من رقي تشكيلي عن ذلك الذي تنتظر أن تراه في غاليريات وسط لندن. لو قلبت موقع يوتيوب وبحثت عن درس أونلاين عن لغة برمجية متقدمة، لا تستغرب أن تجد أن من يقدمه هو مبرمج يعيش في بلدة برايدنتون في ولاية فلوريدا الأميركية. كثير من الفلاسفة عاشوا وماتوا في بلداتهم من دون ان يمنعه هذا من النظر عميقا في حال المجتمعات والدول. لا تنتظر أن يكون مطعم البلدة الغربية أقل نظافة أو ترتيبا أو مستوى للخدمات من المدينة الكبيرة.

المدن الكبرى في المشرق لم تستنزف الريف فقط من طاقة الزراعة وإطعام البلد، بل مسخت شكل البلدات التاريخية هناك وحولتها إلى أشباح لما كانت عليه إلى فترات قريبة نسبيا. المدن الكبيرة تريفت وانتهت منطقة تقاطع لأشكال الغضب من كل شيء، والريف أفرغ من سكانه وتصحر، والبلدات -المحظوظة منها- صارت حاشية سكانية بلا شخصية تقريبا. ما تبقي منها أتت عليه الحروب الأهلية أو الاضطرابات أو الإهمال.

لا بد من القول أولا إن المغرب بلد المراكز الحضرية. كل مدن المغرب الكبرى هي عواصم: من طنجة وتطوان في الشمال، مرورا بالرباط والدار البيضاء وفاس في الوسط، وصولا إلى العمق في مراكش أو ساحل المحيط في أغادير. لكن هذا لم يمنع أن تكون بلدة أصيلة مركزا حضريا قائما بذاته. القرب من طنجة لم يجعلها هامشا لا يستحق الذكر كما هو حال المئات من البلدات القريبة من المدن الكبرى في المشرق.

هناك موسم ثقافي في أصيلة مستمر منذ نحو 40 عاما. مر على أصيلة خلال هذه السنوات عدد كبير من أهم السياسيين والمفكرين والإعلاميين العرب والأجانب. مشهد أمين عام سابق للجامعة العربية أو رئيس حكومة سابق أو حالي أو وزير خارجية لبلد عربي، يتمشون في الحي القديم والقلعة هو مشهد مألوف لا يستغربه سكانها من الصيادين البسطاء. مهاجرون غربيون تركوا أعمالهم في أوروبا وجاؤوا ليفتتحوا مطاعم في البلدة الصغيرة. تستطيع البلدة المتصالحة مع معطياتها أن تستوعب في الصيف أكثر من 100 ألف زائر بالإضافة إلى عدد سكانها. الخدمات البلدية فيها شيء تحلم به القاهرة أو بغداد أو دمشق. في وسط الحواري والأزقة تجد جداريات مرسومة بذوق رفيع، أو أن ترى أفضل ما قدمه الفنانون المغاربة من فن تشكيلي تقنيته مؤسسات مغربية كبرى ولكنها تسعد أن تستعيره البلدة وأن تجده معروضا في صالات البلدة المختلفة التي تستضيف مناسباتها الثقافية. يقف المثقفون القادمون من انحاء العالم على منبر موسمها الثقافي لينتقدوا ظاهرة الإسلام السياسي على الرغم من أن حكومة البلد مشكلة من تحالف أغلبيته بمرجعية من الإسلام السياسي.

أصيلة تجربة ثرية ومهمة تستحق التقدير أولا، وتستحق أن يقلدها الآخرون. هي المثال الحي على أن مركزية المدن الكبرى شيء مفتعل وغير حقيقي ويمكن تجاوزه بسهولة. هذه ليست دعوة لأن يهاجر أهل المدن الكبرى في الشرق عائدین من حيث أتوا، إلى تلك البلدات التي تحتضر، ولكنها إشارة أن ثمة حياة يمكن ان تعاش بمستوى راق في بلدات بسيطة سعيدة بخصوصية بساطتها ■

كاتب من العراق مقيم في لندن